
ذكريات
رضا التامر
مدونة جبل عامل
JABAL AMEL BLOG



مقدّمة

بقلم عطوفة الأستاذ حبيب أبي شهلا

رئيس مجلس النواب اللبناني سابقاً

طلب اليّ صديقي رضا التامر ان اقدم كتابه هذا بكلمة موجزة . فشكرت له التفاته هذه لأني وجدت فيها اثراً بيناً للصداقة التي جمعت بيننا منذ امد طويل .

وبالرغم من الحافه عليّ للاسراع بكتابة هذه المقدمة لم اشأ ان اخط حرفاً قبل ان اطّلع على « ذكرياته » ، وما بدأت اقلب الصفحات الاولى حتى تحولت الى قاريء بدقة اذ تذوقت هذه الصفحات وما انطوت عليه من ذكريات طريفة ومن آراء قيمة وعبر متنوعة كتبت باسلوب سهل ، شيق ، يملك عليك شواعرك ولا يتركك الا وقد انتهيت من قراءة « الذكريات » وانت غير شاعر الا بلذة عميقة وباعجاب وتقدير .

قسمت الذكريات الى فصول عدة . تبدأ حول « طفولة وتشرد » وتنتقل الى « عهد الدراسة في باريس » ثم « عودة الى الوطن » والى « ربع قرن في خدمة القضاء » وتنتهي بفصلين عن « كيفية الحد من كثرة الجرائم في لبنان » و « تطور جبل عاملة منذ قرن حتى اليوم » .

لقد استهواني فصل الدراسة في باريس وما حواه من ذكريات ... هي صدى السنين الحاكي ... رأيت فيها – كما سيرى فيها كثيرون غيري – صورة ناطقة ، حية ، لحياة كل تلميذ عاش بعض الوقت في تلك المدينة الوحيدة الخالدة .

فالحياة في باريس ، كما وصفها رضا التامر ، متعة متنوعة دائمة ، شيقة لا يمكن للانسان ان ينساها او ان يتملص من آثارها .

***

عاش رضا التامر كما عشنا جميعاً في جو من الدرس وما يرافقه من نجاح يوماً وفشل يوماً آخر ، ومن الحياة العامة في الجمعية السورية العربية من كفاح ضد الصهيونيين في انديتهم ومجتمعاتهم ، الى قسط وافر من المغامرات .. التي برع فيها رضا التامر براعة دلت عليها حادثة جرت له في عهد طفولته ، يوم حكم عليه والده لظروف عائلية بالزواج ، وهو طفل ، من امرأة تكبره اضعافاً اضعافاً ، ولكن ذكريات باريس دلت على انه اصبح في شبابه اوفر حظاً ... من هذه الناحية .

اما الفصل عن « ربع قرن في خدمة القضاء » فمجموعة قصص واقعية وذكريات طريفة تمت بصلة وثيقة الى تاريخ القضاء اللبناني في هذه الحقبة الاخيرة . ورضا التامر القاضي ، اولى من يتكلم على هذه الحقبة ، فقد عاش ونشأ فيها وخبر ظروفها واحوالها الى ان توصل الى القمة في سلك القضاء .

***

ويطيب لي ان افخر بالقسط الضئيل الذي يعود اليّ في توجيه حياة رضا التامر القضائية ، ولا يسعني في هذه الفترة الا ان اذكر حادثة لها دلالة ناصعة .

في سنة ١٩٤٣ يوم كنت اشغل وزارة العدل قمت بتنظيم القضاء اللبناني على اسس جديدة ضمنت للقضاة استقلالهم وكرامتهم ، ورأيت في

ذلك الحين ان اكلف رضا التامر رئاسة احدى الغرف الاستئنافيـــة ، فاعترض البعض بحجة ان رضا التامر قاض جزائي ولم يتح له ان يقوم باعباء الرئاسة الحقوقية بعد . لم ابال بهذه الاعتراضات وعُيّن رضا التامر رئيساً للغرفة الرابعة في محكمة الاستئناف ، وشغـــل رضا هذه الوظيفة ، وكان الامتحان فوزاً باهراً له ، ونال اعجاب القضاة والمحامـــين ، والمتقاضين وتقديرهم .

لم يكن ذلك بامر غريب ، فرضا التامر رجل علم ، وتجرد ، ونزاهة ، وجرأة ، واستقلال . ومن كانت هذه صفاته لا يمكن الا أن يفوز في جميع الامتحانات والميادين .

ويختتم رضا التامر هذه الذكريات بفصول تعنى بشؤون اجتماعية خطيرة يجد فيها فرصة لابداء آرائه القيمة نتيجة الخبرة الطويلة العميقة .

وما الفصل الذي يدور حول كيفية الحد من كثرة الجرائم في لبنان الا درس ممتع لموضوع خطير هو موضوع الساعة ليس في لبنان وحسب بل في جميع بلدان العالم .

ولرضا التامر في هذا الموضوع رأي خاص يدل على صـدق في تصوير المرض وعلى دقة في وصف العلاج . فهو يرى ان كثرة الجرائم هي قضية تهذيب الشخص عامة والسجين خاصة .

وهو يقول « وما كنت اصدر مذكرة توقيف بحق مجرم مبتديء الا وارتجفت يدي لعلمي انني اقود المجرم المبتديء فيما اقوده الى السجن ، الى مدرسة عريقة في تلقين الاجرام وتدريس فنونه » .

« والواقع ان المجرم الذي يدخـل السجن من جراء اقترافه ذنبـــاً صغيراً يغادر هذا السجن واذا هو خبير في الاجرام واتباع مسلك المجرمين . »

« فالسجون يجب ان تكون مؤسسات تربوية . »

***

اما الفصل عن تطور جبل عاملة منذ قرن حتى اليوم فقد رأيت فيه

الصلة الروحية التي تربط رضا التامر بالجبل وباهليه المقيمين والمغتربين .

ان جبل عامل عزيز على لبنان واللبنانيين ، وتطوره قضية وطنية اكثر منها قضية فردية او اقليمية او طائفية .

وكم احببت النداء الذي وجهه رضا التامر الى العامليين المغتربين يذكرهم بواجبهم نحو بلادهم وسكانها ويدعوهم الى المساهمة في تأمين الرقي والعمران في منطقة حرمت منهما مدة طويلة من الزمان .

واني لواثق من ان مغتربينا الكرام الذين عانوا المشقات ولاقوا الصعاب ثم انعم الله عليهم بخيراته وبركاته سيلبون هذا النداء ، وسيرى جبل عاملة ولبنان الآثار الحية لجهودهم في خدمة وطنهم .

***

هذه هي ذكريات صديقي رضا التامر وهذه هي كلمتي في تقديمها .

قد يكون حبي لرضا التامر واعجابي به غلبا علي في بعض ما كتبت ولكني احب ان اؤكد للذين سيقرأون هذا الكتاب اني بالرغم من العلاقة ، العاطفة الراسخة ، التي تربطني به قد انصفته ، وسيرى قراء ذكرياته اني انصفتهم ايضاً .

حبيب ابي شهلا

بيروت ١٠ كانون الاول ١٩٥٤





عنوان

•

ليس هذا الكتاب قصة او تاريخاً او بحثاً .
وانما هو صورٌ مني مدى العمر .
سكبتها سكباً سهلاً في فترات متشابكة .
اخبر فيها وانا لا ابتغي الخبر وحده .
وابوح فيها وانا لا اقصد البوح وحده .
وانصح وانما لا اهدف الى النصيحة النصيحة .

وافرح واتألم ، وانا في الفرح والألم حديث قدر عجيب ينقلني من دنيا الى دنيا ، ومن فُجاءة الى فُجاءة ، ومن تشريد الى اطمئنان ومن اطمئنان الى شيء عجيب ، كله عجب ، هو هذا الشيء الذي سميته « انا » .

... ولعل كتابي هو اول كتاب في المشرق العربي يقول فيه صاحبه اسراره وخفاياه الشخصية .

ويدخل مع القلم والحرف والقاريء الى حرم البيت .

فيروي عن نشأته وحبه وبغضه والنضال والمهادنـــة والفقر والغنى

والشكوى والحكم والقضاء ، والزواج والطـــلاق ، ما يخاف الناس من روايته .

ويرسم الواقـع الحي الذي عاشه ، على عكس ما اعتاد اهل القـــلم العربي من رسمه .

وها هو كتابي بين يدي القاريء .

واني لاعتذر من الذين ورد ذكرهم فيه ، خيراً او شراً .

..... أعتذر اليهم كلهم احياء واموتاً ......

ولا غرو فالذي يبوح مثلي ، هو نفسه بسر نفسه ، بالخفي الخفي من زوايا عمره ، لا يضن باخبار الناس في الطاريء من التعبير مـــا دام الناس واخبار الناس قد اصبحت قائمة قاعدة في عالم نفسه واصبحت الاسماء فيها فواصل من فواصل الكلمات ، ومواقف من مواقف التعبير والتفكير .

هذا الكتاب جزء مني .

فليقرأ القاريء الجزء الاول من حياتي .

رضا التامر

مفوض الحكومة

لدى مجلس شورى الدولة

طفولة وتشرّد



أقدار وظروف

ولدت سنة ١٩٠٦

هكذا قال لي والدي - رحمه الله - ، وهكذا يشهد هذا التاريخ الشعري الذي نظمه المرحوم الشيخ ابراهيم حمام مهنئاً والدي بي ومؤرخاً ولادتي :

...... حسن الرضى لمحمد ولدا ......

استقبلت الحياة في قرية « كفردجال » بقضاء النبطية ، حيث كان والدي يملك ارضاً ، ثم باعها - رحمه الله - وانا في الرابعة من عمري ، مستبدلاً بها قرية « تولين » في قضاء مرجعيون منتقلاً بنا اليها .

وشاء القدر ، وشاءت شؤونه ، ان يُحكم والدي عام ١٩١١ حكماً غيابياً بالسجن خمس عشرة سنة ، غير ان هذا الحكم لم ينفذ ، لان والدي ظل متوارياً عن العيون حتى عفي عنه قبيل الحرب العالمية الاولى .

وشاء هذا القدر نفسه ، ان لا ادخل المدرسة حتى تستقر بوالدي الدار . فكان اول ما عمله حينذاك ان سعى بي الى بيروت ليدخلني احدى مدارسها ، وفيما نحن - والدي وانا - في النبطية ، على الطريق ، الى

بيروت ، وقعت الواقعة ، واعلنت الحرب ، فعدنا الى بيتنا ، وحالت الاقدار ثانية بيني وبين العلم .

مدرستي الاولى

ولكن والدي لم يشأ ان يجاري هذه الاقدار فأمّن لي معلمـين يعلموني قراءة الحرف ، وكتابته .

وما كان هؤلاء بمعلمين حقاً ، ولكنهم كانوا من اشباه الاميـين ، ممن يطوفون باهل اليسار في القرى يستضيفونهم او يستجـدونهم ما يسد بعض جوعهم ، وكان الجوع يومئذ يفتك بالبلاد طـولاً وعرضاً ، يهلك الحرث والنسل ، وظل هكذا في فتكه طوال سني الحرب ، وظللت انا هكذا في تلقي مبادىء اللفظ من افواه هؤلاء المعلمـين حتى وضعت الحرب اوزارها .

زواجي الاول

وفي عام ١٩١٨ توفي المرحوم شبيب باشا الاسعد ، عن ثروة ضخمة وعن اولاد وزوجة كانت تصغره بالسن كثيراً ، هي السيدة بهية التامر ، ابنة عمي ، فسارع والدي ، بحكم ما بيننا وبين المرحوم شبيب باشا من قرابة ، وحفاظاً على ورثته وثروته ، الى صيدا حيث كان يسكن الفقيد ، ثم عاد بجميع ورثته الى قريتنا « تولين » .

واراد والدي ان يوطد الصلة بيننا وبين ثروة شبيب باشا فعقـد لي على زوجته بهية التامر برغم انها كانت تكبرني بسنها اضعافاً ، وعقد لاخي على ابنتها ، ملكناز ، وعقد لابن زوجها المرحوم عـلي نصرت بك الاسعد ، على شقيقتي الكبرى ، زينب ، وعقد لابنها نزيه على شقيقتي الثانية ، منيفة .

فأحكم والدي بهذا كله الصلة إحكاماً شديداً بيننـا وبين الورثة والثروة معاً .

ثورة واحتلال

وفيما كانت شقة الخلاف تتسع بين الملك فيصل – ملك سوريا يومئذ – وبين الفرنسيين ، بعد احتلالهم لبنان في اعقاب الحرب ، اذا بالثورة تنشب في جبل عامل ضد الفرنسيين ، واذا بوالدي يترك وظيفته – وكان قائمقام مرجعيون – ليقود هذه الثورة ، فقادها اكثر من ثمانية اشهر .

وخمدت الثورة في جبل عامل ، واحتل الفرنسيون هذا الجبل ، يتتبعون رجال الثورة وقادتها ، فكان نصيب والدي ان حكموا عليه بالاعدام ، وكان نصيبنا نحن – افراد عائلته – ان هوجمنا ذات صباح باكر ، وما نزال نياماً في المنزل ، بالمدافع تقصف علينا البيت قصفاً وتدمره تدميراً ، فاخرج انا مذعوراً ، صارخاً ، مولولاً ، واذا صوت يدوي ورائي كالرعد يقول لي :

« – ولك لا تبكي ، ابن محمد التامر ما لازم يبكي . ما لازم يخاف . »

وكان هذا الصوت صوت والدي ، فقد التفتُّ اليه ، فاذا هو على نحو عشرين متراً من البيت ، يحمل بندقية حربية ، وقد وقف خلف شجرة الكينا الكبيرة يصدر من هناك اوامره الى رجاله بان ينقذوا الاطفال والنساء من المنزل ، وهو يتداعى فوقهم ويتساقط ، فهرعت الى والدي ووقفت بجانبه امنع دموعي ، واطرد فلول الذعر من نواحي نفسي كلها .

رجولة مبكرة

وفي تلك اللحظة عينها ادركت ان من واجبي – بعد الآن – ان أكون رجلاً كوالدي ، احتقر الخوف ، واهزأ بالجزع ، واسخر من الهزيمة .. ومنـذ تلك اللحظة تفتحت في ذاتي كل معاني الرجولة وانا لا ازال من الطفولة على عهد وثيق .

تشريـــد

لقد انقذ رجال والدي ، الاطفال والنساء من الهلاك ، وأبعدوهم عن

متناول المدافع وألسنة النيران ، وساروا بهم الى قرية ، قبريخا ، حيث نملك اراضي هناك ، وجيء - لي ولوالدي - بجوادين مطهمين ، فركبناهما ، وكنت قد حذقت ركوب الخيل وفنون الفروسية المعروفة في عهدنا ، وسرنا الى قرية ، قبريخا ، فوجدنا اهلها بانتظارنا ، وكانت النساء ، لم يصلنها بعد ، فبعث اهل القرية اليهن بالخيول فركبنها ، واتجهنا جميعاً الى بلدة الطيّبة ، فاذا خالي المرحوم كامل بك الاسعد يستقبلنا على نحو ثلاثة كيلو مترات من البلدة ، في موكب حاشد من رجاله .

ولم نكد نصل الطيّبة ، ونهم بالاستقرار فيها ، حتى نفاجأ بحدث جديد . فعلمنا ان الفرنسيين حكموا على خاليّ كليهما كامل بك وعبد اللطيف بك الاسعد ، بالنفي المؤبد من البلاد .

وكان تشريد . . فقد عزم والدي وخالاي ، على الخروج من جبل عامل الى حيث لا تصل اليهم يد الفرنسيين ، ثم جمعوا عيالهم وساروا بهم جميعاً الى قرية « رب ثلاثين » قرب الطيبة وهناك تركوا الاهل والعيال وديعة ، ثم اتخذوا منطقة « الجولان » وجهتهم حيث يستطيعون الاتصال برجال الملك فيصل ، ولا سيما بقائد حملة الثوار ، علي خلقي بك .

ولقد قلت لك منذ قليل انني صرت رجلاً وانني كبرت فشببت عن الطوق مذ صاح بي والدي صيحته تلك يؤنبني على الذعر والبكاء ، فكيف تراني ارضى - اذن - ان ابقى مع النساء والاطفال في « رب ثلاثين » ? كيف ارضى ان اتخلف عن ركب الرجال الثلاثة المغامرين ? ، بل كيف يرضى لي والدي ان أُعَدّ في الاطفال الصغار وقد انتهرني بذلك الصوت المدوي القاصف يزجرني عن الخوف والدموع .

... لا ، لا بد ان ألحق بركب المغامرين الرجال الثلاثة . وها هو والدي يدفع الي ببندقية فرنسية يناسب صغرها صغري ، وهاأنذا اتقلد بندقيتي واتمنطق « بالجناد » مثقلاً بصفوف « الخرطوش » ثم ها أنذا أمتطي صهوة جوادي ، وارى نفسي فارساً بين الفرسان وبين والدي

وخاليّ ، ونحو خمسين فارساً آخرين .

عند الامير الفاعور

وصل الركب « واسط » معقل الامير محمود الفاعور ، شيخ عرب الفضل ، وهذا هو الامير الفاعور يقف لاستقبالنا في باب بيته الحجري المترامي الاطراف ، مردداً عبارته العربية السمحة :

– يا هلا بالضيوف ، يا هلا باولاد العم ، يا هلا بيك يا كامل بيك . الله مْحَيِيك .

وندخل بيت الامير ، ويستقر بنا المقام قليلاً ، ثم يخلو الامير وكامل بك في مكان منفرد نحو ثلاث ساعات ، ثم يخرجان علينا بان رأيهما استقر على ان يتوجه خالي كامل بك الى دمشق . وما هي الا ان نتناول الغداء ، حتى يكون خالي قد ركب السيارة الى عاصمة فيصل .

في المنصورة

اما والدي وخالي عبد اللطيف بك ، وسائر الركب ، فقد حزموا امرهم على المسير ، في صباح اليوم التالي ، الى قرية المنصورة ، وهي على مقربة من « واسط » مقر الامير الفاعور ، وعلى اربعة كيلومترات من القنيطرة ، فلما نزلنا المنصورة استأجر كل من والدي وخالي وبعض الصحب منازل للسكن هناك ، واختار بعضهم الاقامة في القنيطرة .

والمنصورة قرية شركسية تحيط بها قرى عدة جل اهلها من الشركس ، وكان هؤلاء على خصومة مع عرب الفضل والدروز الذين في جوارهم ، ولكن اخصامهم جميعاً كانوا يقدرون بأسهم قدره ويحترمون شجاعتهم .

قيادة وسفارة

وهاأنذا ارى رجولتي المبكرة تنمو بسرعة ، فها هو والدي – وقد اقام في المنصورة – ينتدبني لقيادة جماعة من فرسان الحاشية ،

اكون معهم « سفيراً » الى العيال في جبل عامل ، كي اعود بهم الى المنصورة حيث تستقر بهم الدار .

وهكذا خرجت « قائداً » و « سفيراً » اول مرة ، واتخذت مع صحبي طريق بانياس على خط الحدود بين سوريا ولبنان ، وارسلنا طليعتنا شاباً من اشد الرجال كان من رؤساء الثائرين في ثورة جبل عامل ليستطلع لنا الطريق في ظلام الليل وفي تلك المنطقة الخطرة ، حيث تكثر الانهار والمستنقعات ، وانتهينا بسلام الى بلدة النبي يوشع عند انبثاق الفجر ، فدخلناها فرادى كي لا نلفت الينا الانظار ، وسمعنا هناك من خادم المزار الواناً دامية من الحكايات عن اعمال الاحتلال في جبل عامل كان معظمها يحتاج الى التدقيق .

وبقينا في « يوشع » بياض نهارنا مستترين عن العيون حتى اطبق بنا الظلام ، فتابعنا المسير الى الطيبة ، فلما وصلنا خراج البلدة ، رأينا استحكامات قائمة هناك ، فخشينا عاقبة الامر ، وبعثنا باحدنا متنكراً يتجسس الخبر ، في قلب البلدة ، وتفرقنا نحن بين الصخور حذرين من امر يفاجئنا ، حتى عاد الينا صاحبنا ، فاذا هو يطمئننا ، فندخل البلدة جميعاً ، ويذهب بعض الركب الى بيوتهم ، واذهب انا الى مقر عائلتي في « رب ثلاثين » .

يقظة الزوجية

كان قد مضى على زواجي ، حتى ذلك اليوم ، اكثر من ثلاث سنوات ، وما شعرت يوماً قط خلال هذا الزمن ، أنني « زوج » ، وما احسست نحو زوجتي لحظة واحدة ، بما يحس به الازواج الرجال نحو زوجاتهم . فقد قلت لك انني كنت ما ازال مع الطفولة على عهد وموثق ، ولكن رجولتي التي نبهها صوت والدي يوم المفاجأة الاولى ، يوم خرجت هارباً من نيران المدافع تتساقط علينا في المنزل ذات صباح

في « تولين » .. ان « رجولتي » التي تنبهت في ذاتي يومذاك على صوت والدي وهو يزجرني عن الذعر والبكاء . . ان رجولتي هـــذه المتفتحة الباكرة ، قد نمت في ايام قلائل نمواً سريعاً عجيباً ، ولقد زاد في نموها السريع ، هذه القيادة التي حمّلني والدي اعباءها ، وهذه السفارة الى العائلة التي شاء — رحمه الله — ان يوليني اياها ، فاذا بها تزيدني ثقة بنفسي ، واذا برجولتي تتفتح الى شيء جديد .

ها انا ادخل البيت فجأة في « رب ثلاثين » وها هي والدتي — يرحمها الله — تنكفيء الي توسعني شماً وتقبيلاً وضماً ، بينا تنحدر الدموع من عينيها بصمت وغبطة وخشوع ، وها هي شقيقتي الكبرى زينب تعـانقني وتقبلني ، ثم هاهي زوجتي تتقدم الي كذلك .. وها هي تقبلني فاحس احساساً جديداً في قبلتها .. أحس انني زوج أشعر بعاطفة الزوجية تتيقظ فجأة في قرارة نفسي . وكان الحدث الجديد ساعتئذ ، وكان الحدث الاول في حياتي الزوجيـة ، واستكملتْ رجولتي المبكرة يقظتها وتفتحها ومـا تحتاج اليه من ثقة واعتداد وتفاخرٍ ذاتي على عمق الايمان .

رحيل وظفر

وبعد يومين اثنين ، كان الرحيل بالعائلة من جبل عامل الى المنصورة ، عائلة والدي ، وعائلة خالي عبد اللطيف بك . اما عائلة خالي كامل بك ، فقد بقيت حيث هي ريثما يعود هو من مهمته في دمشق .

وكان الرحيل يومئذ على الجمال ، وقد ركبتِ النساء في الهـــوادج ، وكنت انا قائد الظعينة وحاميها ، فطافت في اذهاننا حينذاك صور من حياة الاجداد يسيرون في عواصف الصحراء بين الظعائن ، عـــلى ظلال المروءات والرجولات والبطولة الرحبة في مواجهة الخطر بالواح الصدور .

لقد كان الرحيل بالعيال على هذه الصورة محفوفاً بالمخاطر ، اذ كان الاحتمال قوياً بان تغتنم السلطات هذه الفرصة فتأسر العائلات لترغم والدي

وخالي على الاستسلام ، ولذلك احتطنا لكل احتمال خطر اثناء المسير، واتخذنا من وسائل الحذر ما قادنا الى النجاة من كل محذور آخر ، حتى وصلنا بلدة بانياس ، فشعرنا هناك بالفرح والنجاة ، واطلق بعض رجالنا حناجرهم « بالعتابا » و « ابو الزلف » اعلانا بالغبطة والابتهاج . لقد انزاح عنا شبح الخطر .

اما غبطتي انا ، فقد كانت بحيث اعجز الآن عن تصويرها ، لقد كانت غبطة القائد بالفوز والغلبة ، لقد كانت غبطة الرجل بأنه يملك من قوة رجولته ، كل عناصرها . ولمَ لا تكون غبطتي كذلك ؟! وانا قائد الظعينة وحاميها . ولمَ لا اشعر هذا الشعور ؟! وهي اول تجربة يشاء والدي – رحمه الله – ان يمتحنني بها ، فاذا بي اخرج من الامتحان ظافراً . واذا بي ارى في اسارير جبهتي ما يسهل عليَّ اجتياز مخاطر الحياة من غير ذعر او بكاء .

ثلاثة اشهر

هي ثلاثة اشهر من حياتي ليس في طاقتي ان انساها ابدا ، ثلاثة اشهر مع والدي وخالي المرحوم عبد اللطيف بك ، قضيناها بين المنصورة والقنيطرة نتطلع فيها الى الدنيا من خلال نافذة صغيرة لا تكفي ان تصل بيننا وبين الحياة الواسعة العريضة التي كان العالم يحياها يومذاك في انقاض حرب عالمية دامية ، وفي خضم من الانتفاضات القومية الوطنية في كل مكان .



أدهم خنجر

وفي اثناء اقامتنا بالمنصورة حدثت لنا حوادث تستحق التدوين ، لان في بعضها عبرة ، وفي بعضها متعة ، ومنها هذا الحادث الطريف :

كنا مجتمعين يوماً في منزلنا ، وبيننا ابن عمتي المرحوم ادهم خنجر بك ، واذا بمعازنا الذي كان يرعى لنا ما نملك من المعزى هناك ، يدخل علينا صارخاً :

– وينك يا ادهم بك ... راحت المعزى .

ثم نستطلع منه الخبر ، فاذا بجماعة من الاعراب قد اغاروا على معزانا ونهبوا منها خمسة وثلاثين رأساً ، وما يكاد ادهم يسمع الخبر ، حتى ينتفض ثائراً ثم ينهض وهو يقول لي :

– شو بعدك ولد ما صرت زلمة ؟ . يالله قم معنا نسترجع المعزى .

فتثور بي حينئذ نخوة الرجولة ، وأجيبه على الفور :

– عين عيونك .. انا مستعد .

وسرعان ما نهضت الى غرفتي وتمنطقت بجنادي وعتادي – وتقلدت بندقيتي ، وخرجت كامل العدة ، فاذا بأدهم وقريبيّ : عبد الهادي السلمان ومحمد ابراهيم التامر ، على اتم الاهبة أيضاً ، فركبنا خيولنا واتجهنا الى

حيث اشار المعّاز ، وسار هو امامنا يستقصي في اثر المعزى المنهوبة ، حتى وصلنا الى محلة تدعى « حوش الامير » .

قال ادهم :

– هذه السهول ، كما ترون ، واسعة ، ممتدة الجوانب ، فلننقسم فريقين وليذهب اثنان منا الى الجهة الشرقية ، واثنان الى الجهة الجنوبية ، وليدخل الراعي هذا المنزل (واشار الى منزل للاعراب هناك) ، لكي يتحرى اثر المعزى المسلوبة .

فذهبنا – ادهم وانا – في جهة ، ومحمد ابراهيم وعبد الهادي في جهة ، وفيما نحن نطوي السهول ، ونحدو جوادينا بالاغاني الحماسية ، اذا بنا نشاهد من بعيد ستة اشخاص يسوقون اربعة رؤوس من المعزى .

فقال ادهم : – انظر . . هذه آثار القوم ، فاستعد لهم . . هيىء بارودتك واتبعني .

قال ادهم ذلك ، وشهر مسدسه . واطلق لجواده العنان ، واطلقت انا عنان جوادي خلفه شاهراً بندقيتي ، حتى قاربنا القوم ، فصاح بهم ادهم :

– ارموا سلاحكم . . انا ادهم .

وما اسرع ما اجابوا ، فقد رموا اسلحتهم ، واخذوا يتضرعون قائلين : « دخلك ادهم بك » فتحققنا امرهم ، فاذا هم ليسوا غرماءنا ، وأطلقنا سبيلهم لنتابع المسير ، حتى انتهينا الى مكان يجاور حي الامير زعل السلوم ، الذي كان مضرب المثل في تلك الديار بيأسه وشجاعته وهو ابن عم الامير الفاعور .

رأينا راعياً صغيراً ، فأخذ ادهم يستدرجه بلطف للاعتراف بأمر السلب ، فلم يعترف ، فلم يجد ادهم بداً من العنف ، فأمسك بشعره وشده اليه قائلًا له : « اما ان تدلني اين عنزات المتاولة واما ان اقتلك » .

عندئذ قال الراعي الصغير : « عنزات المتاولة خذاهم عرب زعل » .

وما سمع ادهم ذلك حتى عقد ما بين عينيه من الغضب واشار اليّ :

– يا لله . . لنذهب الى زعل .... وسترى ما يكون .

قلت : ولكن اوهذا معقول ؟ الا ترى انك تفكر كمن فقد عقله ؟ اباستطاعة احد ان يتحدى زعل في عرينه ؟ !

قال : بعدك ولد يا ابن العم . . « حب الموت غيرك يكرهه » .

قال ادهم ذلك ثم ألوى بعنان جواده نحو منزل الامير زعل وقال :

ـ سأدخل وحدي منزل زعل ، وانا وحدي سأغامر هذه المغامرة ، ولتعد انت الى المنصورة .

فأثارتني قساوة لهجته ، وشعرت انه ينتقص رجولتي فقلت : « انني معك على الموت ، ولكن دعنا ننتظر محمد ابراهيم وعبد الهادي .... » .

فرفض ادهم الانتظار ومضى بسبيله ، فتبعته حتى منزل الامير زعل فاذا هو يخرج لاستقبالنا قائلًا : « يا هلا بأدهم بك » .

فانتهره ادهم : « لا اهلا ولا سهلا ، قل لخادمك يأتــك بسلاحك فاما ان تقتلني واما ان اقتلك » .

وشهر ادهم مسدسه ، وحلف انه لا يسمح للشيخ زعل بالتراجع خطوة واحدة ، فعجب الرجل من هذا التحدي في حرمة منزله ، وراح يهدئ من حدة ادهم ، ولكن ادهم قال له وهو يوجه اليه فوهة المسدس :

ـ والله يا زعل لو كنت فعلًا اميراً ، لدفعــت بنفسك للموت في سبيلنا ، ونحن نزلاؤكم وضيوفكم في هذا الحي ، ولكنك دست على حرمتنا وكرامتنا ، لذلك تراني اتحداك في منزلك فلا احافظ على حرمتك وكرامتك . ها انا قدامك ، فهيا الى سلاحك ؛ اما ان تقتلني واما ان اقتلك ، ولا اسمح لك بالتراجع خطوة واحدة ، ولستُ بالجبان لاغدر بك ، فانا بانتظار سلاحك .... » .

تقدم الشيخ زعل من ادهم ، واخذ يطيب خاطره ، وهو لا يزال راكباً جواده ، وانا اتطلع دهشاً لما يجري ، معجباً بجرأة ادهم وحلم الشيخ زعل معاً ، ثم لم يترجل ادهم الا بعد أن اقسم الشيخ ان يعود الينا كلُّ ما سلب .

وفي هذه الاثناء كان ابنا عمي : محمد ابراهيم وعبد الهادي قد وصلا مع المعاز ، وذهب خادم الشيخ ليأتي بالمعزى ، فجاء بها ناقصة ثلاثة رؤوس ، فادعى الشيخ ان « كلاهم العجيان » . فبادره ادهم :

— يا شيخ والله لو اعرف انك ستقول هذا القول ، لما شربت قهوتك ولما دخلت منزلك ، اتريد — يا شيخ — ان تأخذ منا (خاوة) والله اما ان نأخذ المعزى كاملة ، واما ان ندعها جميعاً عندك ، والحساب بيني وبينك » .

فلما رأى الشيخ هذا الموقف ، لم يجد بداً من ان يقدم لنا ثلاثة رؤوس من الضان بدل المعزى ، وعندئذ تعانق الشيخ زعل وادهم ، وتبادلا تحية الود والاخاء ، وخرجنا عائدين الى المنصورة ونحن نهزج اهازيج النصر .

. . .

هذه واحدة من مغامرات ادهم — رحمه الله — فقد كانت حياته حافلة بالمغامرات ، وكانت مغامراته جميعاً تنطبع بطابع النجدة والنخوة والمروءة والوطنية . ومن ذا يعرف ادهم في جبل عامل ، ولا يذكر بلاءه الحسن ايام الثورة العاملية بوجه الاحتلال ، وقد كان مصيره مصير المغامرين الاحرار ، إذ اعدمه الفرنسيون رمياً بالرصاص جزاء قيامه بالثورة المسلحة ضد القوات المحتلة على رأس فئة كانت من اشد رجالات الثورة .

سقطت دمشق

وآخر عهدنا بالمنصورة ، يوم جاءنا النبأ المفاجيء ، يقول لنا ، أن قد سقطت دمشق بيد الفرنسيين .

فقد كان والدي — يرحمه الله — جالساً امام البيت يسرح نظره في السهل الفسيح الذي يطل عليه ، واذا به يرى فارساً من بعيد يطوي السهل طياً ، فيتشاءم من اقبال هذا الفارس بهذه السرعة ويقول لمن حوله :

« الله يجيرنا من خبر ها الخيال » .

ويصل الفارس الينا ، ويخبر والدي وخالي ان قائمقام القنيطرة يبلغهما سقوط دمشق ، ويطلب حضورهما اليه ، وان القائمقام قد استدعى الامير الفاعور وشخصيات اخرى للتشاور في الامر ، فركبنا جميعاً الى القنيطرة وقصدنا دار الحكومة فيها ، فاذا بها مكتظة بالرجـــال من مختلف الشخصيات السياسية والشعبية ، واخذ القوم يتداولون الرأي بينهم ، ولكنهم تفرقوا دون ان ينتهوا الى رأي موحد ، او قرار حاسم .

الرحيل من المنصورة

وعدنا نحن الى المنصورة حينذاك على عزم الرحيل ، فقد اصبح المقام بها ، بعد سقوط دمشق ، خطراً محتماً ، وفيما نحن نستعد هناك للرحيل اذا بخالي كامل بك الاسعد قادم من دمشق ، وكان قد خرج منها مع من خرج من رجال فيصل ، قبل دخول الجيش الفرنسي الزاحف اليها من ميسلون ، فتداولنا معه الرأي فيما نصنع ، فأشار بان نرسل النساء والاطفال الى وادي التيم ، لان اهله من الدروز وهم يومئذ على صلة حسنة مع الفرنسيين ، وان يذهب الرجال نحو حوران يقيمون هناك حتى ينجلي الموقف .

واتفقت الكلمة على هذا الرأي ، وارسلنا الرسل الى الدروز في وادي التيم ، نخبرهم اننا سنستودعهم النساء والاطفال ، فاذا بهم يقبلون الينا افواجاً ومعهم الخيل والدواب لينقلوا العائلات الى ديارهم ، فلما عرف الشراكسة بالامر ، ثارت بهم النخوة ، وعدوا لجوء عيالنا الى الدروز اهانة لهم ، لانهم ممن يحمون النزيل ، ويدفعون الضيم ، ببأس شديد وحفاظ مرير ، وحدث بينهم وبين وفود الدروز من التلاحي ما كاد يصل الى القتال ، وتحصن بعضهم برشاشاتهم في نوافذ المئذنة في ساحة البلدة ، يهددوننا والدروز القادمين بالابادة . ووقعت مشادة بين الشيخ

اسعد كنج شقيق الشيخ كنج ابو صالح رئيس دروز وادي التيم ، وبين الحاج يعقوب رئيس الشركس .

فرأى والدي وخالي نجاةً من هذا المأزق الحرج ان تنقسم العائلات شطرين : شطراً يبقى نزيلاً لدى الشركس ، وشطراً يذهب الى وادي التيم ، وهكذا كان الامر .

من يدري المصير ؟

وقبل ان يهم ركب الرجال بالرحيل من المنصورة الى حوران ، قادني والدي الى غرفة في البيت ، ودفع اليّ بـ « كمر » من صوف ، ثم القى في « الكمر » بنحو اربعمئة ليرة ذهبية ، واوصاني ان اتزنر بالكمر تحت الثياب ، ثم فعل مثل ذلك مع والدتي ، وشقيقتي الكبرى زينب ، قائلاً : انه لا يعلم المصير الا الله ، ومن الخير ان يتوزع المال ما بيننا لنستفيد منه في تمزق الشمل ، وتباعد الاقدار .

الى حوران

ها نحن أولاً نغادر المنصورة الى حوران ، في ركب من الفرسان يناهز الاربعين فارساً ، و « نوا » اول بلدة تواجهنا في حوران ، وكانت اكبر البلدان في تلك المنطقة واكثرها سكاناً واوسعها ارضاً ، واوفرها ثروة وماشية ، وكان رئيس « نوا » يومئذ ، الشيخ منور الويدان ، فقصدنا منزله ، فتلقانا باروع مظاهر الترحاب ، واذا منزله لا يختلف عن منازل الفلاحين بالبلدة في بساطته وسوء مظهره وحقارة بنائه ، وان اختلف عنها بسعته وامتداده .

ودعينا الى سماط الشيخ للغداء ، فاذا المائدة عربية سخية ، عربية بهذا « المنسف » الفسيح من النحاس ، وبهذا الهرم الهائل من الارز المطبوخ يملأ رحاب المنسف ، وبهذا الخروف الناضج يتربع على رأس الهرم ، وبهذا الخادم العملاق الشبح يقف على رؤوس « المعازيم » يحمل وعاء

السمن المذاب يسكبه سكباً ويصب صباً فوق الارز هنا وهناك امام كل واحد من الضيوف .

طائرة فرنسية

ومضت ساعة بعد الغداء على مائدة الشيخ منور السويدان ، واذا بطائرة فرنسية تحوم في سماء « نوا » ثم تلقي القنابل ورصاص « المتراليوز » على القرية ، فتبعث الرعب في الناس ، ويتفرق جمعنا ويهرع كل منا الى جواده يمتطيه ذاهلاً عن رفاقه ، ناسياً كل رابطة تربطه بكل واحد منهم .

وانطلقت انا بجوادي في سهول حوران ، وكلما بعدت عن نيران الطائرة المغيرة قليلاً ، رفعت رأسي فاذا بي اراها تحلق فوقي لا تفارقني ، ثم ارسل لجوادي العنان منطلقاً في هذه السهول الفسيحة ، حتى رأيت الجواد يقف من تلقاء نفسه ، فانقطعت بي سبيل الخلاص ، واستسلمت للامر الواقع ، وحينئذ رأيت نفسي اتلهى بالتفرج على حالة الذعر التي دبت في هذه البلدة ، وادهشني ما رأيت فيها من مواشٍ لا ابالغ اذا قلت ان عددها يربو مائة وخمسين الف رأس من البقر والغنم .

موقف حيرة . . .

وانفرجت الازمة بعد قليل ، اذ غابت عنا الطائرة الفرنسية ، واخذت افكر فيما ينبغي لي ان اصنع : هل اعود الى « نوا » ؟ . ولكن ما معنى العودة اليها وقد خرج منها اهلي وقد لا يعودون اليها ؟ وماذا تجدي العودة اليها وقد تُغير عليها طائرة فرنسية اخرى وتلقي القنابل مرة ثانية او مرات ، ويعود الذعر والقلق ؟

الى الجولان ...

ولم يطل بي موقف الحيرة ، فقد عزمت امري ، واتخذت « الجولان »

وجهتي ، فاما ان انزل هناك ضيفاً على الامير الفاعور حتى اجتمع باهلي وعشيرتي ، واما ان اعود الى عائلتي في المنصورة .

ولم اكن اعرف الطريق الى « الجولان » ولكني عينت وجهة قدرت انها تؤدي الى منزل الفاعور ، وانطلقت في المسير حتى انتهيت في اوائل الليل الى حرج هناك ، فأحسست شيئاً من الرهبة ، ووقفت بين عاملين : عامل اليأس من امكان العودة الى حيث كنت ، وعامل الخوف من المضي في هذا الليل الرهيب بين هذه المجاهل المخيفة التي لا يأمن المرء فيها على نفسه ، ولكن لا بد من احدى اثنتين : اما العودة واما المخاطرة في السير ، فاخترت الثانية ، ومضيت قدماً في قلب الخطر ، واذا بي أتغلغل بجوادي في الحرج الكثيف والظلام يزداد رهبة وثقلاً ، وجمدت يدي على مسدسي في حذر شديد ، اتلفت يميناً وشمالاً .

ارى اشباح الاشجار فكأني ارى رجالاً من قطاع الطرق مدججين بالسلاح يريدون الفتك بي ، وكلما اختلجت اذنا فرسي ، خفق قلبي من ذعر ، وحسبت اني اكاد اصبح فريسة قطاع الطريق .

ولكني ، في الواقع ، كنت فريسة الاوهام والوساوس ، وما نجوت الا بعد مسيرة ثلاث ساعات حسبت انها ثلاثة دهور ، ولم التق فيها رجلاً واحداً ، ثم وجدتني قد انتهيت الى سهل رحيب ، فزالت وحشتي ، وذهبت في السهل على طمأنينة وهدوء ، حتى وصلت قرية من قرى الشركس تدعى « بريقة » قصدت فيها بيتاً رأيت رجلاً يقف امامه فطلبت اليه ان يدلني على حانوت من حوانيت القرية اجد فيه طعاماً لي ولجوادي ، فاذا بالرجل نفسه صاحب حانوت ، واذا هو يدعوني اليه بلهجة عربية فصيحة ، فأدركت انه ليس بشركسي ، ونزلت عن جوادي فأدخلته الدار ، وربطته الى وتد هناك .

ولم ينتظر الرجل ان اجلس واستريح ، بل اسرع يسألني : من انت ؟! والى اين ؟ .. فلما علم انني من جبل عامل ، ظهرت عليه

بوادر اللهفة وقال : لعلك من المتشردين ، ابن كامل بك الاسعد الآن ؟
قلت : نعم ، انا من المتشردين ... انا ابن اخت كامل بك ... قال : أأنت ابن ابي رضا ؟ . قلت : نعم ، وانا رضا نفسه ..

واسرع الرجل الي واخذني بذراعيه مرحباً بي بحرارة وحماسة شديدتين ، واذا هو من اهل زبدين – النبطية ، يدعى « علي الحاج ابراهيم صفا » كان قد هاجر الى هذه القرية منذ زمن يبحث عن العيش ، واكرمني اكراماً احار كيف اصفه ، بقدر ما حار الرجل كيف يعبر لي عن فرحه بي ، فهو لم يترك وسيلة من وسائل التعبير والاكرام في متناول يده ، الا صنعها بقلب طيب ، واخذ يسألني عن كل شيء من امرنا ، واخذت اقص عليه ما حدث لنا .

ونالت الحماسة من الرجل منالاً ، وقال انه على استعداد ان يبحث عن مكان اهلي ، ولكني لم اقبل ان يتحمل هذا العبء . وبقيت في منزله يومين على انبل ما يكون الاكرام واسخى ما تكون الحفاوة ، غير ان ذلك كله لم يكن ليخفف من اضطراب بالي ، فقد كنت اسأل نفسي في كل لحظة :

اين صار اهلي ؟ ورفاقي ؟ ما مصيرهم بعد حادث « نوا » ؟

مفاجأة ... ولقاء

وكانت مفاجأة .... واذا شاب اشقر يدخل علينا بيت مضيفي ، ويلقي اليه بضع كلمات باللغة الشركسية ، ثم اعلم انه جاء يقول له : ان ثمانية فرسان دخلوا القرية يقولون انهم من جماعة كامل بك الاسعد . فأسرع اليهم مضيفي الكريم وعاد بعد قليل ، فاذا جميع من كانوا معنا في « نوا » يدخلون القرية وينزلون معي ضيوفاً على الرجل نفسه ، اما كامل بك ، فقد قالوا لي انه ذهب الى « واسط » ليجتمع بالامير الفاعور ، ومعه والدي ، وخالي ، وقد عرج هؤلاء الفرسان على القرية باحثين عني .

وحاولنا ان لا نثقل على مضيفنا — وقد تكاثر عددنا — فأبى الا ان يكون غداء القوم جميعاً عنده .

الامير الفاعور

ثم خرجنا من القرية بعد الغداء الى « واسط » وهناك وجدنا الامير الفاعور على اهبة السفر ، وقد بلغه ان الفرنسيين سيحتلون القنيطرة ، والجولان ، وهو من المغضوب عليهم عند المحتلين ، ويخشى ان يعتقلوه او ينفوه ، او يحكموا عليه بالاعدام . وقرأنا في اسارير وجهه انه يريد ان يقول :

— اذهبوا حتى استطيع ان امضي في سبيلي قبل فوات الاوان .

وذهبنا فعلاً جميعنا ، ومعنا والدي وخالي وادهم ، عائدين الى المنصورة حيث لا تزال تقيم نساؤنا ، وما كدنا نخرج من « واسط » حتى كان الامير الفاعور يرحل من البلدة في قافلة طويلة .

اللجوء الى فلسطين

وبعد نحو ساعة ونصف ساعة ، كنا في المنصورة . وفور وصولنا اجتمع والدي وخالي في خلوة استمرت اكثر من ساعتين ، استدعيا بعدها خادمين عهدا اليهما ان يذهبا الى « جسر بنات يعقوب » ، فيتصلا هناك بضابط عربي في الجيش الانكليزي يدعى « صادق بك » ، ويظهر ان خالي كامل بك ، كان قد فاوض الانكليز بأمر الالتجاء الى فلسطين ، اذا احتل الفرنسيون سوريا بكاملها .

وقبل ان يرد الجواب من « صادق بك » قصدنا جميعاً الى « جسر بنات يعقوب » ، ولكننا ما كدنا نقترب اليه ، حتى اقبل علينا الرسولان يخبراننا ان « صادق بك » ذهب الى صفد ، وسيذهب منها الى حيفا ، ولن يعود الينا بالخبر اليقين الا بعد تسعة ايام ، فاضطررنا حينئذ للعودة الى المنصورة ننتظر نتائج مسعى الضابط .

وابل من الرصاص

ومررنا في طريق العودة ، بمنزل الشيخ زعل الفارس ، وهو شيخ حي من احياء الاعراب هناك ، فتناولنا عنـــده العشاء ، ثم استأنفنا المسير ، وما ابتعدنا عن الحي مسيرة نصف ساعة ، حتى فوجئنا بوابل من الرصاص ينهال علينا ، ونظرنا فاذا الرصاص يصدر من ارض ترتفع قليلاً عن الطريق قد زرعت بالذرة الصفراء ، فنزلنا عن خيولنا ، واستتر كل منا خلف صخرة يتقي الرصاص ، الا ادهم خنجر بك – رحمه الله – فقد ابى ان يستتر ، وركض بفرسه نحو مصدر الرصاص ، وما هي الا دقائق واذا صوته يلعلع في الفضاء يقول :

– ولك عندك .....

واخذ يطلق الرصاص من مسدسه وكان من امهر الرماة . ثم سمعنا صوت قنبلة علمنا انه هو الذي اطلقها . وحينئذ صاح بنا كامل بك :

– يا شباب انجدوا ادهم . فهو وحيد بين جماعة كثيرين .

من تاريخ ادهم

وهممنا ان نخف لنجدته ، فاذا هو يقبل علينا منشداً شاهراً مسدسه وامامه ثلاثة من الاعراب مسلحون يسوقهم كالنعاج . حتى وصل بهم الى كامل بك . فقال لهم :

– قبلوا يد البك . فهو الذي يعفو عنكم .

فهجموا على كامل بك يقبلون يده ، ويقولون :

– دخلك يا كامل بك . نحنا زلم ادهم بك ؛ ما كنا نعرف انه معكم ؛ ولا عرفناكم انتم ..

فقال كامل بك :

– اليس بعار عليكم ان تحاولوا الاعتداء علينـــا ونحن ضيوفكم ،

أتظنون ان الاعتداء علينا سهل المنال ؟

فقال احد الاعراب :

— والله يا بك يكفيكم ادهم .. هذا بطل العرب .

وقد تبين ان احد الثلاثة مصاب بزنده ، ثم اطلق كامل بك سراحهم ، فذهبوا يهرولون كالأطفال يطاردهم شبح الذئب .

ونذكر بهذه المناسبة ، ان ادهم خنجر ضرب امثالاً كثيرة في حياته للشجاعة والجرأة والاقدام ، ولن ينسى تاريخ النضال الوطني ، انه كان يرئس اخطر عصابة ثائرة في بدء الاحتلال ؛ وانه ابلى بلاء حسناً في مدافعة المحتلين عن بلاده .

المدراج الشرقي

وصلنا الى المنصورة بعد الهزيع الاول من الليل ؛ وفي الصباح استقرّ رأينا ان نتفرق في نواحي الجولان الى ان تنقضي الايام التسعة ويعود الينا النبأ الاخير من « صادق بك » ، حتى لا نلفت انظار الفرنسيين الينا باجتماعنا ولا نثقل على من نستضيفهم بكثرة عددنا .

كنت انا في فرقة تتألف من والدي وخالي عبد اللطيف وادهم وخمسة آخرين ، فذهبنا الى محلة تدعى « المدراج الشرقي » شرق بحيرة الحولة ونزلنا على شيخ من شيوخ الاعراب يدعى « الشيخ محمد علي العماوي » فاذا هو على غاية من النظافة والاناقة ، واذا بمنزله مفروش بالسجاد العجمي النفيس تنتثر في جوانبه « التكايات » تغطيها قطع ثمينة من السجاد ، اما قهوته فتبدو عليها العناية البالغة فهو يشرف بنفسه على إعدادها ، يرتشف منها رشفة قبل ان يقدمها لضيوفه ، كي يطمئنوا الى انها خالصة من الريبة وماء الحظر .

ومن اروع المشاهد التي اذكر اني شهدتها في منزل هذا الشيخ هو مرأى ولده الكسيح « صايل » وقد اخذ يستعرض المواشي ، ويصدر الاوامر للوكلاء والماشية ، ويصرف الامور كلها بلباقة ورشاقة رائعتين ،

حتى تأوي « الطروش » الوفيرة العدد الى حظائرها ، ويأتي – بعد هذا بدوي تبدو عليه ملامح من جمال وفروسية يدعى « صيّاح » فيأخذ بتحميص القهوة ، ثم يدقها في الجرن دقاً توقيعياً موسيقياً يجري معه بغناء عذب وصوت رخيم ، فيتجاوب غناؤه وتوقيع دقاته في نفوس القوم ، فيهتفون به : « الله محييك يا صيّاح » .

ثمانية ايام !

قضينا في منزل هذا الشيخ المضياف اياماً كانت عامرة بألوان من الانس ، اصغينا فيها بلذة الى احاديث شتى من الفروسية العربية على ألسنة القوم ، بعضها من الواقع وبعضها من ابداع الخيال ، ولعل هذه الايام الثمانية التي قضيناها بين الشيخ محمد علي العماوي والشيخ زعل الفارس والشيخ زعل السلوم والامير دهام ، اثناء هذه الرحلة بين الجولان والمنصورة ، هي من اطيب ما مر بنا من ايام التشرد .

واذكر من امر الشيخ زعل السلوم ، انه عُرف بالشجاعة ، وان كرمه يتناسب وشجاعته المعروفة ، واما الامير دهام ، فأذكر من امره انه كان زري الملابس حتى ليراه الرائي فيظنه من أتعس الناس حالاً . بخيل على نفسه من حيث اللبس ، مفرط عليها بالكرم من حيث التدخين ، فلا يدخن الا « السكاير » الانكليزية ، حتى كان كثيراً ما يرسل ساعياً خاصاً من الجولان الى فلسطين لشراء هذه السكاير وحدها ، في حين لا يرى اي عيب في ان يعتمر بالعقال البالي المقطعة اوصاله تقطيعاً .

على جسر بنات يعقوب

رجعنا بعد ايامنا الثمانية تلك ، الى المنصورة ، ولكن لم نقم فيها سوى ليلة واحدة ذهبنا في صباحها الى « جسر بنات يعقوب » على الموعد بيننا وبين الضابط « صادق بك » .

نزلنا على ضفة الجسر الشرقية ، في الارض السورية ، وارسلنا احدنا بعد ان نزع سلاحه ، الى الضفة الاخرى حيث تعسكر حامية انكليزية وعاد الينا بعد قليل مع « صادق بك » فاذا به يرتدي بزة الضباط العسكريين ، اسمر اللون ، معتدل القامة ، وما يكاد يسلم علينا ، حتى ينفرد هو وخالي كامل بك في ظل صفصافة هناك تبعد عنا نحو مئة متر ويطول الحديث بينهما ، ثم يفترقان ، ويخبرنا خالي ان « صادق بك » ذاهب الآن الى صفد للاجتماع بذوي الامر ، واقرار إقامتنا في فلسطين .

عودة الى جبل عامل

وهنا يستقر رأي والدي وخالي على ان يوفداني الى ارض الوطن ـ الى جبل عامل ، فقد احتجنا الى المال ، ومهمتي ان آتي الأهل بالمال من اشخاص معينين هناك ، وما كان اختيارهما اياي لهذه المغامرة ، الا خشية ان يردّ اولئك الاشخاص الرسل بالمماطلة والتسويف ، فاذا كنت انا مع الرسل استحيا القوم مني وبادروا بدفع ما يطلب منهم دون مماطلة ولا تسويف ، على ان وجودي مع الرسل كان ادعى للاطمئنان على المال في طريق العودة .

لحظات رهيبة

وبدأنا الرحلة الى جبل عامل ، ونحن اربعة رجال : انا وقريباي عبد الهادي السلمان ومصطفى المحمود ، وآخر يدعى موسى جمعه ، وجعلنا وجهتنا الاولى نحو « المدراج الشرقي » ثم وصلنا نهر الشريعة ، وكان لا بد من خوض الماء للعبور الى الضفة الاخرى ، فاختار لنا موسى جمعه مكاناً للعبور قال انه « مخاضة » ، حيث تجري المياه على الحصباء رقراقة دون عمق ، فنزلت الى الماء بجوادي ، وما هي الا خطوات حتى غاصت قوائم الجواد في عمق من الماء ، واذا انا في غمرة النهر حتى اعلى صدري ، ثم اذا بمجرى النهر يغلب الجواد على امره فيجرفه التيار في لحظات نحو

مئة متر عن الرفاق ، وكانت لحظات رهيبة احسست فيها انني في قلب الخطر ، فقد كنت لا احسن السباحة ، ولا اجرؤ عـلى رفع صوتي بالاستغاثة ، اذ كنا على مقربة من حامية عسكرية انكليزية كان مقدراً ان تطلق علينا النار بمجرد ان تشعر بوجودنا هنـاك او ترى مكاننا ، فالموقف – اذن – رهيب دقيق شديد الحرج ، وما اذكر اني نطقت في هذ الموقف باكثر من كلمة واحدة : « يا رب » ، وما اذكر اني سمعت من الرفاق الا قول المرحوم عبد الهادي بصوت متحفظ منخفض : « يا سيدي ، يا ابن عمي ، لا تخف » .

ولكن الموقف ، على رهبته ، لم يستمر طويلا . فقد استطاع الجواد ان يعبر النهر وانا ممسك بناصيته . ولكن رفاقي لا يزالون على الضفة الاخرى ولا يزال النهر بيني وبينهم ، فلست اقوى على العبور اليهم بعد ان ذقت مرارة التجربة ، وليسوا هم بقادرين على خوض الماء بعد ان رأوا العبرة بي ، مع ان جوادي اقوى من جيادهم . اخذت ارتجف من شدة البرد وقد تبللت ملابسي ونفذ الماء الى جسدي كله وعظامي .

لقد تعقد الموقف مرة ثانية ، فكيف الخلاص ؟

لا اكتم القاريء انني كدت ألقي بسلاحي الى النهر ، واتقـدم الى الحامية الانكليزية فأستسلم إليها طائعاً ، مرغماً ، مختاراً ، واشير الى رفاقي ان يعودوا ادراجهم ، ولكن العناية ... ولكن « يا ربّ » ارسلت الينـا في تلك اللحظة اليائسة بدوياً رأيناه يعبر النهر من موضع لم يغمر المـاء فيه سوى ساقيه ، فتنفسنا الصعداء ، وانفرجت الازمة ، وتطلعنا الى فوق ، الى حيث لا يضيع الامل .... وعرف رفاقي من اين ينبغي لهم ان يخوضوا الماء ، وما هي الا لحظات واذا بنا قد التقينا على الضفة الثانية وتابعنا المسير .

ولكن البرد لا يزال يرعد في جسمي وعظامي ، حتى خلت انـني مصاب لا محالة بحمى ستقضي عليّ في تلك الليلة ، ثم انتهى بنا المسير الى

بلدة تدعى « التليل » ، فنزلنا على شيخ البلدة ، فاذا هو رجل مسن ، فلما عرفنا احتفى بنا كثيراً ، واضرم لنا النار فخلعت ملابسي ، وامر الرجل احد اتباعه فجففها قبالة النار ، واخذنا نصيباً من الراحة ، ثم استأنفنا المسير .

من الحولة الى الطيبة

قطعنا الطريق من الحولة الى الارض اللبنانية ، وكانت بلدة المالكية اول بلدة واجهتنا من جبل عامل فنزلنا على وجيه المالكية يومئذ المرحوم سعدالدين فرحات ، وكان معروفاً بالكرم وطيب الخلق ، فقضينا في ضيافته النهار كله ، ولما انتشر ستار الظلام ، استأنفنا السّرى الى مقصدنا الاخير بلدة « الطيبة » .

وصلنا الطيبة في اواخر السهرة ، فأيقظنا علي صالح احد اتباع خالي عبد اللطيف بك ، وكان هذا يستطيع ان يمدنا بالمال ، ولكنه ابى ان يعطينا شيئاً بالرغم من الحاحنا عليه بوصف الحاجة التي يعانيها خالي في هجرته .

ثم قصدنا الى قريتي : تولين وقبريخا ، وكان والدي يملك هاتين القريتين ، فاستطعنا ان نحصل منهما على بعض المال ، ثم نذهب الى بلدة عديسة ، فنزور خالي محمود بك ، وهو يومئذ على خلاف مع اخويه : كامل بك وعبد اللطيف بك ومع والدي ايضاً بسبب سياسته الصديقة لفرنسا .

تبعة النكبة

وحين رآني خالي محمود بك مدججاً بالسلاح ، وانا في سن الفتوة الباكرة ، بادرني بقوله :

ـ يا خالي ، بدكم تحاربوا الفرنسيين بهيك شباب واطفال ؟ ..

بارك الله بعقلائكم ...

واخذ الخال يتهم والدي وخاليّ الغائبين بوطنيتهم ، ويلقي على عواتقهم تبعة كل ما جرى في جبل عامل من اخطاء الفرنسيين ضد الشعب ، ومن تدمير لبعض القرى ، ومن تغريم اهل المنطقة مائة الف لـــيرة ذهباً ، وجمع هذه الضريبة اضعافاً مضـــاعفة حتى أنهكت قوة الشعب العاملي على الفقر والتشريد .

كنت اسمع ذلك من الخال ، وانا مطرق لا اجيب ، فلما انتهى سألني : « ألعلك تحتاج الى طعام ؟ » فشكرته وقلت انـني لا احتاج الى شيء .

فقال : طبعاً لا يجوز لك ان تأكل من بيتي ، لانـك عربي وانا فرنسي .

وعاد الخال الى حديث اللوم والتثريب ، فضقت ذرعاً ، واستأذنتـه واقبلت على يده الثمها مودعاً ، فأبى ان اقبل يده ، ثم قال :

ـ قل لبيّك وخوالك انهم دبوا فرنسا بالبحر ، مثل ما كانوا يحوربو لهـــم !

وخرجت من داره ، وهو يتمتم غاضباً ، وعدنا الى الاهل حيث لا يزالون بانتظارنا ـ وانتظار صادق بك على « جسر بنات يعقوب » .

الى الجاعونة ...

كان الانتظار في خيمة اقمناها على ضفة النهر ، وكانت انظارنا معلقة بالضفة الاخرى الى ان يطل علينا وجه صادق بك يحمل الينا بشائر الفرج والاستقرار .

وفيا نحن على هذا الانتظار والترقب ، وقد مضى نهار وكاد ينقضي ليل دون ان يطلع علينا صادق بك ، اذا بنا نشاهد جمـــاعة من الجنود الانكليز والهنود يعبرون الجسر ، ثم يقصدون حيث نخيم ،

واسلحتهم بأيديهم ، فيثبت في اذهاننا ان القوم دبروا لنا مكيدة ، وهم آتون الآن لتنفيذ المكيدة والقبض علينا ، وكان والدي محكوماً بالاعدام ، والاخرون محكومين بالنفي المؤبد ، وخطر لوالدي ان يلجأ الهروب ، ولكن القوم كادوا يحيطون بنا ولا مجال للهروب ، فلم يجد مناصاً من ان يتوارى خلف الخيمة في ظل أكمة هناك .

ووصل الجند الينا يتقدمهم ضابط هندي طويل القامة ، عريض المنكبين اسود الوجه والشعر ، دخل الخيمة وبادرنا بالتحية :

– السلام عليكم .

فقلنا جميعاً : وعليكم السلام .

ثم سأل : من منكم كامل بك الاسعد ؟ .

فاشرنا الى كامل بك ، فتقدم الضابط الهندي اليه بلهفة ، وركع بين يديه يبكي وهو يقول :

– آمان ، مسلمان ، ما عاد يحمل سلاح . انكليز خائن ، فرنسي خائن . الله اكبر .. آمان مسلمان .... متشرد .

وكانت مفاجأة ، وانقلبت حالنا من الخوف والقلق ، الى الاشفاق على هذا الهندي المسكين قائد الحامية الانكليزية الذي اسرع الينا بدافع الشوق من الدين ، واخذ بعضنا يبكي من اجله ، وكان السيد طعان ، وهو من جماعة خالي كامل بك المقربين اليه ، اكثرنا بكاء من التأثر لحال الضابط الهندي ، المشتاق الى مسلمين من دينه في تلك الساعات الحرجة .

ولم يكن احد منا يعرف لغة الرجل ، ولم يكن هو يعرف لغتنا ، ولكن استطعنا – على كل حال – ان ندخل الى قلبه ، بشيء من التفاهم ، بعض الراحة والطمأنينة ، ونحن احوج ما نكون ، في تلك الساعة ، الى من يدخل الى قلوبنا ولو شيئاً من الراحة والطمأنينة .

اما الجنود الذين كانوا برفقة الضابط الهندي ، فقد رجعوا الى مستقرهم على الضفة المقابلة ، ثم عادوا الينا بعد قليل يحملون كثيراً من

علب السردين والمربى واللحم ، وال « كبيس » والسكاير وغير ذلك مما كنا نحتاج الى قليله ، فضلاً عن كثيره ، حتى لقـد كفانا ذلك طعام اسبوع كامل ، ونحن خمسة واربعون شخصاً .

وقضى الضابط الهندي السهرة بيننا ، وفي اثناء ذلك كان بعض جنوده يذهب ويجيء ليستفسر عن عودة صادق بك مـــن صفد بالقرار الاخير بشأن مصيرنا نحن .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، دخـل علينا صادق بك وابلغنـــا ان المعاملات قد تمت ، وان ابواب فلسطين مفتوحة امامنا على مصاريعها ، ولنا ان ندخلها حين نشاء .

وشعرنا حينذاك اننا سندخل عهداً جديداً نجد فيه شيئاً من التعويض عن مرارة التشرد ، وما كاد صادق بك والضابط الهندي ، يغادران خيمتنا الى معسكرهما في الضفة المقابلة ، حتى ارسل خالي خمسة من رجاله الى القنيطرة و « عين زوان » ليأتونا بعائلاتنا ، ثم ندخل جميعاً ارض فلسطين . وفي الصباح كنا جميعاً مع نسائنا ننتظر ، على مدخل جسر بنات يعقوب ، ان يصدر « صادق بك » الامر الى الجنود بأن يفتحوا لنا الباب الحديدي .

وبعد دقائق ، وصل « صادق بك » ومعه الضابط الهندي ، وانفتح لنا باب الجسر ، فاذا بنا في ارض فلسطين ، واذا بالضابط الهندي يقود جواد خالي كامل بك بيده مسافة مئة متر بعد عبور الجسر ، ثم اهوى على يد خالي يريد ان يقبلها ، فانتزعها منه وابى عليه ذلك ، ثم وقف الضابط على جانب الطريق يستعرضنا واحداً واحداً ، وهو يودع كلًا منا قائلًا :

— سلام عليكم .. الله اكبر ..

وركب « صادق بك » جواده ومعه جنديان ، فرافقونا حتى بـلدة « الجاعونة » ، وهي البلدة التي اختارتها السلطة مقراً لنا في فلسطـين ،

وتقع على سفح تطل منه بحيرة الحولة ، ومعظم سكانها من اليهود الاجانب .

وفي « الجاعونة » نزلنا اول الامر في الفندق ، فتناولنا غداءنا ، ثم جاء « صادق بك » بسيارة اقلته مع خالي كامل بك الى الحاكم الانكليزي في صفد ، فزاراه ثم عادا الينا ، وودعنا « صادق بك » عائداً الى معسكره بعد ان ادى مهمته .

نحن في الجاعونة

لم يكن باستطاعتنا ان نقيم طويلاً في الفندق ، ونحن على حالة من العسر المادي ، فاستأجر خالي كامل بك ، بيتاً في الجاعونة ، واقام والدي – بعد موافقة « صادق بك » – في قرية على شاطيء بحيرة « الزبيد » ، واقام معنا في هذه القرية – عدا بعض المشردين من « بنت جبيل » وبعض قرى جبل عامل – الحاج خليل عبدالله وبعض شباب اسرته ، ورئيسا عصابة المقاومة : شبيب ، وادهم خنجر الذي كان والدي يؤثره باعزازه ومحبته .

وفي « الزبيد » كنا نعيش في فراغ ممل ، ثقيل ، فنضطر ان نقضي معظم الوقت على شاطيء بحيرة الحولة نصطاد الزرزور و « الغرة » وهو نوع من البط صغير اسود .

شبيب في الاسر

ومن اطرف ما حدث لنا في « الزبيد » اننا سمعنا ظهر يوم ضوضاء ، ولم نلبث قليلاً في حيرة من امر هذه الضوضاء ، حتى دخل الحاج خليل العبدالله على والدي وانبأه ان شبيب عبدالله مقبوض عليه ، فخرجنا جميعاً نستطلع الخبر ، فاذا شبيب هذا ملقى الى شجرة من الكينا وقد ربط اليها من اخمص قدميه حتى عنقه ، وحوله نحو عشرين يهودياً

مسلحين ، وبينهم مختار القرية الخواجا « ألطي » الذي نعرفه ويتكلم بالعربية ، فتقدم اليه والدي سائلاً عن سبب ما فعلوه بشبيب .

فأجاب « ان شبيباً حين كان رئيس عصابة ، التقى قافلة يهودية ذاهبة الى المطلة ، فاعتدى عليها ، وسلبها تسعة بغال ، فأما ان يدفع الآن ثمن البغال ، واما ان نسلمه للفرنسيين » .

فأخذ والدي يسترضي القوم ، ويناشدهم ان يطلقوا سراح شبيب ، وكان المختار يترجم بيننا وبينهم ، ولا نعلم كيف ينقل اليهم كلامنا ، حتى انتهى الامر الى ان يوقع والدي سنداً على نفسه بمائة وثمانين ليرة ذهبية ثمناً للبغال تدفع بعد شهر ، لقاء ان يفك شبيب من الاسر ، ووقع الحاج خليل عبد الله السند مع والدي ، واطلق شبيب .

ولكن كيف نستطيع الوفاء بهذا السند بعد شهر ، ونحن لا نملك شيئاً من المال ؟ . لقد حار والدي بالامر ، ثم توجه الى شبيب يقول له :

- كيف نمسح لك فعلتك يا شبيب ؟ . انت الان بين امرين : فاما ان تخوننا ، ونحن اهلك وعشيرتك ، واما ان تسعى بتهيئة « الضريبة » لندفعها في الاجل المضروب ..

فلم يجب شبيب بكلمة ، ولكنه سرعان ما ذهب ، ونحن لا نعلم الى اين ذهب .. وغاب نحو ثلاثة اسابيع ، واذا بالخواجا « ألطي » يدخل على والدي ويقول له بلغه عربية ولهجة يهودية :

- يا محمد بك . الكمبيالة . الكمبيالة ..

فقال والدي :

- لقد ذهب الرجل لتهيئة المبلغ ، وسيعود قريباً . كن مطمئناً . وكان يظن والدي ان الخواجا « ألطي » جاءه مطالباً بالوفاء بالسند ، واذا هو يبادر فيقول :

- لا . لا . ما بدنا لا مال ولا شيء ... هذا شبيب قد كمن

بجماعتنا في الطريق ، بين المطلة والزبيد ، ومعه خمسون خيالاً ونحو مئة رجل من المشاة ، واعترض قافلة يهودية فردها على اعقابها قائلًا :

– لن تستطيعوا الافلات منا الا بعد ان تأتوني بورقة من محمد بك يشير فيها الى ان الكمبيالة قد اتلفت ، وان جميع اليهود في « الزبيد » وضواحيها ، في خدمته ، والا فاني اقطع رؤوس مئة وثمانين يهودياً ، اي رأس كل يهودي مقابل ليرة ذهبية واحدة .

ثم دفع الخواجا « الطي » بالسند الى والدي راجياً اياه ان يمزقه ، وان يزوده بكتاب يمليه هو على والدي بحروفه ، لانقاذ القافلة اليهودية من قبضة شبيب .

فما كان من والدي ، الا ان تناول السند ومزقه ، واخذ ورقة بيضاء ، وقال للخواجا « الطي » : تفضل . أمل عليّ ما تشاء . فقال ، اكتب : « ان اهل الزبيد بأمري ، وخصوصاً الخواجا الطي . والكمبيالة تمزقت ، واطلب منك ان لا تتعرض لاحد من اليهود ، وان تعتبر ان الخواجا الطي يحبنا كثيراً وهو بأمرنا ، وكل يوم في الصباح يحضر الينا ويسأل عنا وعنك وان الكمبيالة نظمت بمؤامرة من الخواجه الطي ليتمكن من تخليصك من ايدي الذين اسروك ، فاجعل الطريق حرة ولا تعتد على احد من اليهود » .

لقد دوّن والدي هذه الكلمات حرفياً ، ثم اخذها الخواجا الطي فرحاً بها وخرج . فاستدعى والدي الحاج خليل عبد الله وسأله : من اين اتى شبيب بالخمسين خيالاً ، والمئة من المشاة المسلحين ، وليس في جبل عامل من يستطيع انجاده بعد النكبة التي حلت به وشردت كثيرين من اهله وقتلت كثيرين وافقرت كثيرين ؟

فاستغرب الحاج خليل الامر ايضاً ، ومضت ثلاثة ايام على الحادث . وبينا نحن مجتمعون في مساء اليوم الثالث ، اذا شبيب يدخل علينا فجأة ، وكنا في شوق ان نعرف تفاصيل « القصة » ولكنه كان هو اشد منا

شوقاً الى ان يرويها لنا قبل ان نسأله ، ثم يشرع يروي القصة .

قال : — غادرتكم وكلمات ابو رضا (يعني والدي) تـدوي في رأسي كالصاعقة ، ورحت اطلب المال من فلان وفلان وفلان (وذكر لنا اسماءهم جميعاً) وأستنهض حميتهم ، ولكنهم رفضوا طلبي ، ففرغت يدي من هذه الطريقة وانا وحدي وليس معي غير بندقيتي ، فوقفت على جانب الطريق العام قرب جاحولا ، بين المطلة والزبيد ، متوارياً خلف صخرة كبيرة هناك ، واذا بقافلة يهودية من اثني عشر رجـلًا مسلحين ، تمر على مقربة مني ، فوقفت بوجه القوم فجأة ، وصحت بهم : ارموا سلاحكم ، ارفعوا ايديكم للفضاء ، واقـتربوا مني ... وسرعان ما فعلوا كما اردت ، فقلت لهم حينئذ :

— ان محمد بك التامر قد كتب على نفسه كمبيالة بمائة وثمانين لـيرة ذهبية ، وعليكم ان تُتلف هذه الكمبيالة وان يأتي كتاب من محمـد بك انكم جميعاً بامره ، والا فسأقتل يهودياً مقابل كل ليرة واحدة .

وتابع شبيب يقص روايته ، قائلًا : وعاد القوم ادراجهم ، ولا اعلم كيف توهموا ان معي خمسين خيالاً ومائة من المشاة ، مع انني كنت وحيداً ، فهل اوهمهم الفزع والذعر ؟»

لقد اضحكتنا هذه الحادثة كثيراً ، ولكنها ابكتنا فيما بعد عندما رأينا سبع دول عربية تتراجع عن فلسطين وتلقي بها لقمة سهلة لهؤلاء اليهود اهل الفزع والذعر ...

وغاب شبيب ، مؤثراً ان يكون بعيداً عنا ، حتى لا يكون وجوده معنا سبباً للمشاكل ، واصبح لا يزورنا الا متنكراً .

بين ادهم واليهود

وحدث لنا في « الزبيد » ايضاً حادث آخر ، لا يقـل طرافة عن ذاك ، ولكن ادهم خنجر هو بطل الحادث هذه المرة ، فقد اتهم اليهود « ادهم » بقتل رجلين وامرأة منهم في مستعمرة « التخشيبـة » ، اثناء

حادث وقع بينه وبين طلائع الجيش الفرنسي الذي كان يتعقب افراد العصابات الثائرة ، بعد احتلال بلاد جبل عامل .

وخلاصة القصة اننا في صبيحة يوم ، ونحن في منزلنا بقرية « الزبيد » فوجئنا بان المنزل قد طوقه نحو خمسين جندياً انكليزياً ، فأيقنا ان الانكليز قد اتفقوا مع الفرنسيين على تسليم المحكومين ، وانهم جاءوا لتنفيذ الاتفاق والقبض على والدي ، فخرج والدي فوراً ، وهو بقميص النوم ، وطلب الى ادهم ان يختبيء بين النساء .

ثم تقدم والدي الى المختار الخواجا الطي ، وكان هذا يرافق الجند غير مسلح ، وقبل ان يصل اليه كان ادهم يقفز من النافذة مدججاً بسلاحه ، وتبين ان الجند من اليهود ، لا من الانكليز ، وقد جاءوا للقبض على أدهم بتهمة قتله الرجلين والمرأة منهم في « التخشيبة » ولذلك ما كاد يقفز من النافذة ، حتى صوب مسدسه الى رأس المختار صائحاً :

— اذا كنتم تعتقدون انني ممن يوثقون بالحبال ، كما فعلتم بغيري من قبل فقد خسئتم ... — فاما ان تأمر — ايها المختار — هؤلاء الجبناء ان يفكوا طوقهم عن البيت وينصرفوا الى خارج البلدة حيث اقابلهم انا بمفردي هناك حيث لا نساء ولا اطفال ، واما ان اذبحك كما تذبح النعجة .

فلما سمع الخواجا الطي ذلك ، جمد في مكانه ، واخذ يتكلم مع الجند بالعبرية ، ولكن والدي خشي من عاقبة الامر ، فانهال على ادهم بالتأنيب يريد ان يمنعه من استعمال هذه اللهجة الجريئة مع القوم خوفاً على النساء والاطفال وتشريدهم ثانية .

ولكن ادهم لم يلتفت الى ذلك ، وامر رجلين من رجاله ان يلبسا سلاحهما ، ويركبا فرسيهما ويتبعاه ، فامتثل الرجلان وخرجا وبيد كل منهما بندقيته مصوبة الى القوم .

وما هي إلا دقائق ، وإذا بالقوم يفكون الحصار عن منزلنا ويذهب

كل واحد منهم بسبيله ، ويبقى المختار وحده بيننا يتضرع الى ادهم قائلاً :
ـ انا ما خصني . جابوني بالقوة . انا بامركم .. الخ .

ثم انصرف المختار ، وقد اطمأن على حياته ، وركب ادهم جواده وتبعه الرجلان من اتباعه ، واخذوا يتجولون في شارع البلدة الوحيد ، مستخفّين بشأن اليهود ، ولكن والدي ارسل الى ادهم ينصحه ان يذهب الى نزل بعض الاعراب على بعد ثلاثة كيلومترات من الزبيد ، وهو يدعى نزل « القليطاط » على ان يوافيه والدي في المساء الى هناك ، ويتحدثا في امر اقامته ومصيره .

ولكن ادهم عاد الينا في المساء ، وقضى السهرة بيننا ، ثم ركب والدي جواده ومعه ادهم وتابعاه ، والجميع يحملون بنادقهم ، ويغلغلون في الظلام ، وقد رفض والدي ان اصحبهم على رغم توسلاتي الكثيرة ، وما كدنا نستيقظ في الصباح حتى بادرت اسأل عن والدي ، فاذا هو في المنزل ، فسألته عما انتهى اليه امر ادهم ، فقال انه ذهب الى شرق الاردن ، مع تابعيه ، حاملاً منه كتاباً الى الامير عبد الله (جلالة المرحوم الملك عبد الله) يرجوه ان يستخدمه لديه ، وذهب معه رجل شركسي يدعى « بكير » يهديه الطريق ، وسيعود هذا الشركسي بعد اسبوع بتفاصيل الامر .

اغتيال ...

كان لرحيل ابن عمتي ادهم عنا الى شرق الاردن ، اثر شديد في نفسي ، فلقد شعرت بعده بفراغ عجيب ، وبقيت اياماً مضطرب البال من اجله ، فقد كان لي اخاً صديقاً ، وكنت ارى في قربه راحة لنفسي ومتعة .

وعاد الشركسي « بكير » من شرق الاردن ، بعد نحو خمسة عشر يوماً يحمل الينا كتاباً من ادهم يقول فيه انه وصل « اربد » وان

« بكير » سيحدثنا باخباره بالتفصيل ، وفي الكتاب عبارات رقيقة اثارت كوامن نفسي ، حتى لم استطع ان امنع دمعتين تدحرجتا من عيني من فرط التأثر .

وحدثنا « بكير » حديثاً طويلاً عن ادهم في رحلته قال :

« ذهبنا الى القنيطرة ، وهنا التقى ادهم واحمد مريود ، فاختليا قليلاً ، وقررا ان يرابطا على الطريق العام بين دمشق والقنيطرة ، حتى يمر الجنرال غورو ، اذ عرف انه آت الى القنيطرة لتفقد شؤون المنطقة . وقد نفذا قرارهما بالفعل .

« كمن احمد مريود على جانب من الطريق ، وكمن ادهم على الجانب الاخر ، في نقطة تبعد عشرة كيلومترات عن القنيطرة ، ووقف احد رجالهما في منتصف الطريق وبيده ورقة بيضاء يتقدم بها الى الجنرال غورو حين تصل سيارته اليه ، فيطلب ان تقف سيارة القائد الفرنسي قليلاً متظاهراً ان لديه ظلامة يريد ان يقدمها الى القائد ، وكان من اعتداد مريود وادهم بحذقهما في اصابة الهدف ، انهما لم يضعا في منتصف الطريق شيئاً من الحجارة تعترض سيارة الجنرال فتضطر للوقوف ، فيطلقان رصاصهما عليه دون ان يخطئا هدفهما وتتم المؤامرة .

« وجاءت سيارة الجنرال غورو ، فاعترضها الرجل ملوحاً بورقته ، وكاد السائق يقف ، ولكن غورو ادرك الحيلة فوكز السائق ان يتابع مسيره على عجل ، ثم القى بجسمه الى قلب السيارة ، وكانت هذه مصفحة من نوع (المارمون) ، واخذ مريود وادهم يطلقان الرصاص على سائق السيارة عسى ان يقتلاه ، فيقبضا على الجنرال غورو ويكون رهينة لديهما يساومان به ، لاعفاء جميع المحكومين من قومهما ومواطنيهما .

ولكن رغم مهارة ادهم ومريود وحذقهما بالرماية ، لم يستطيعا اصابة السائق ، وانما أصيب مرافق غورو ، واصيب السيد حقي العظم ، رئيس الحكومة السورية يومئذ بكتفه ، وكان يرافق غورو في هذه الرحلة ،

وظلت السيارة متابعة سيرها الى القنيطرة ، وافترق مربود وادهم ، وذهب الاول الى وادي التيم ، وذهب أدهم الى اربد .

. . .

يظهر ان يقظة الجنرال غورو اقوى من دقة الاصابة ، وابعد عن هدف الغاية . والذي له عمر لا تقتله الشدة ولا المؤامرة .

وانقطع عنا خبر ادهم ، منذ هذا الحادث ، الى ان قتل عبد الرحمن باشا اليوسف في حوران ، واشتعلت الثورة في تلك المنطقة ثانية ، اذ علمنا يومئذ ان ادهم غادر شرق الاردن ، وكان الامير عبدالله قد اسند اليه وظيفة مفوض في الشرطة ، وجاء ليلتحق بالثورة ، متابعاً رسالته وكان مؤمناً بان عليه واجباً لهذه الرسالة المقدسة .

ادهم في الاسر

ووصل ادهم الى جبل الدروز ، ونزل في ضيافة سلطان باشا الاطرش ، وسرعان ما علم رجال الامن في السويداء بأمره وكان سلطان غائباً عن منزله في الصيد ، وكان الفرنسيون قد اعلنوا انهم يدفعون اربعة آلاف ليرة ذهبية لمن يأتيهم بأدهم ، او برأس ادهم ...

واغرت الجائزة احد افراد عائلة الاطرش ، فاوعز الى رجال الامن ، ودخلوا على ادهم ، وهو يتناول غداءه في بيت سلطان ، وكان طبعاً اعزل من سلاحه ، فقبضوا عليه ، فأثار الغدر اريحيته اكثر مما اثاره الخوف على نفسه ، وطفق يؤنب الغادرين ويهز شمائل الرجولة فيهم ، وهيهات ان تهتز شمائل الرجولة في اناس كان خيال الذهب يلتمع في عيونهم فيغشي ابصارهم وبصائرهم معاً .

قال لهم ادهم :

– ايها الجبناء ! اذا كنتم رجالاً ، فدعوني احمل بندقيتي ، والقوني خارج هذا المنزل ، ثم ليكن عددكم ما شئتم ان يكون ، ثم لنتبارز .. هكذا تقضي الشمائل العربية .. كان عليكم – ايها الجبناء – ان تلقوا

سلاحكم . وانتم تدخلون بيت زعيم عربي كسلطان الاطرش وفقاً للتقاليد العربية ان كنتم عرباً .

ولكن القوم لم يسمعوا ، واصروا على ان ينفذوا غدرهم بأدهم الشجاع . وكان لهذا الغدر وقع شديد في النساء ، واخذن يقذفن الغادرين بأواني المنزل .

من اسباب الثورة السورية

ولما عاد سلطان من الصيد ، وعلم بأمر ادهم ، ثارت نخوته ، واضرم النار في بيته من فرط التأثر ، وكسر اباريق القهوة كما كان يفعل فرسان العرب قديماً حين يعتدي احد على حرماتهم المقدسة .

وكانت غضبة سلطان هذه ، عاملاً من اكبر العوامل في اشتعال الثورة السورية المعروفة التي قادها سلطان ، وكان بطلاً شديداً من ابطالها .

اعدام ادهم

لم يستطع رجال القوة المسلحة ان يذهبوا بأدهم الى دمشق ، لا بالسيارات ولا بالقطار ، لان رجال سلطان طوقوا قلعة السويداء حيث اعتقل ادهم ، فاضطروا ان ينقلوه الى دمشق بالطائرة خلسة ، ثم نقلوه من دمشق الى بيروت ، وحوكم هناك امام المجلس العسكري الفرنسي ، فحكم المجلس باعدامه رمياً بالرصاص ، بوصفه ثائراً على السلطة ، كما يعدم العسكريون ، ونفذ الحكم فعلاً ، واعدم ادهم برصاص الاحتلال ، فذهب الى ربه شهيداً كريماً من شهداء الوطنية الميامين . رحمه الله وعطّر ذكراه .

ولم يذهب اعدام بطل مثل ادهم ، دون ان يثير نقمة الجماهير ، فقد اهتاجت الجماهير في بيروت ، وتصادمت مع قوى الامن ، واطلق هؤلاء الرصاص على المتظاهرين الغاضبين وقتل برصاصهم واحد من الاهلين وجرح

كثيرون ، إذ كان رجال الشرطة يريدون ان يتولوا هم دفن الشهيد « ادهم » وكانت الجماهير تريد ان تتسلم جثمانه ليدفن باحتفـــال يليق ببطولته ووطنيته .

وان نأسف لشيء في هذه المناسبة ، فاننا نأسف ان يكون معظم الذين شهدوا على « ادهم » امام المجلس العسكري الفرنسي ، كانوا من قومه ومن اقرب الناس صلة به من قومة وطائفته ...

عودة الى « الزبيد »

ونعود الان مرة اخرى ، الى حديث « الزبيد » ، الى حياتنا في تلك القرية ايام النفي والتشريد .

لقد مرضت زوجتي ، في ايامنا الاخيرة هناك ، مرضاً شديداً ، وهي حامل ، فلم تستطع مقاومة المرض ، وتوفيت — رحمها الله — وما رضي الاهل ان تدفن في « الزبيد » .. القرية اليهودية ، فنقل جثمانها الى مزار النبي « يوشع » فدفنت هناك في جوار نبي من انبياء الله .

كانت وفاة زوجتي كارثة لي ، فقد خسرت بها زوجاً واماً وصديقة واختاً ، اذ كنت اجد فيها اخلاص الزوجة ، وحنان الام ، ووفاء الصديقة ، وعطف الشقيقة .

فكرة استئناف الثورة

وفي ذات يوم ونحن في « الزبيد » جاءنا رسول من « الجاعونة » يطلب الى والدي ان يذهب اليها ، لأمر هام ، فاستجاب والدي للطلب وذهبت انا معه ، فلما وصلنا « الجاعونة » وتناولنا الغـــداء ، اجتمع خالاي : كامل وعبد اللطيف ، ووالدي منفردين ، وتذاكروا طويلاً ، ثم علمنا انه مطلوب الى زعماء الشيعة في لبنان ، ان تستأنف الثورة في الجنوب لمقاومة الفرنسيين المحتلين ، وعلمنا ان خالي عبد اللطيف ووالدي اظهرا ، في هذ الاجتماع ، موافقتهما على استئناف النضال ، والاستمرار فيه حتى النهاية ، ولكن خالي كامل خالفهما بالرأي .

وعلمت ، بعد الاجتماع ، ان والدي قال اثناء المناقشة :

– انني محكوم بالاعدام على كل حال ، ولن اسلم روحي للفرنسيين الا في ظروف تشرفني ، واي ظروف اشرف من النضال في سبيل الوطن ؟

العفو الفرنسي عن المحكومين

وانفض الاجتماع دون اتفاق على رأي حاسم ، وعلم المطران الحجار – مطران العرب – بالامر ، وكان يعرف زعماء الشيعة واحداً واحداً ، ويفهم كلًا منهم فهماً صحيحاً ، وكانت له عندهم منزلة محترمة ، وكان في الوقت نفسه على صلة بالفرنسيين ، فاستدعى والدي اليه ، وهو يومئذ في حيفا ، فذهب اليه والدي ، واستطاع المطران هناك ان يقنعه بالاقلاع عن فكرة النضال ، وعرض عليه ان يصطحبه الى بيروت للاجتماع بالجنرال غورو ، واستصدار العفو عنه . وكان الجنرال غورو هو الموحي للمطران حجار بهذه الفكرة ، تلافياً لاشتعال الثورة في الجنوب ثانية .

وظل المطران بوالدي يلح باستصحابه الى بيروت ، حتى اقنعـــه بذلك ، ولكن والدي لم يحقق رغبته الا بعد ان استحصل على وثيقة كتبت باللغة العربية تضمن الوفاء بالعهد ، وتُبدي الحذر من عاقبة الغدر ، وكم يؤسفني انني لا احتفظ بهذه الوثيقة التاريخية .

لقد نصت الوثيقة انه يصرح لمحمد بك التامر ان يدخل الحدود اللبنانية لا يعارضه احد ، وان يعود من الحدود ايضاً الى حيث شاء لا يعرقل طريقه احد .

وكان ما اراد المطران حجار ، وذهب هو ووالدي بالسيارة الى بيروت ، ثم عادا بعد يومين يحملان الينا نبأ العفو عن جميع المحكومين احكاماً سياسية بحوادث الجنوب ، ويسمي امرُ العفو جبلَ عامل بـ « جبل الشيعة » ...

عهدٌ في باريس

عَودة إلى الدِّيار.. وَرَحيل

انقضى عهد التشريد ، وعدنا الى ديارنا في الوطن الصغير « جبل عامل » . لم يبق لنا في بلدتنا « تولين » حتى بيت يصلح للسكن بعد ما اصابنا من تخريب ومصادرة املاك ، فاضطررنا ان نقيم اول الامر في قرية « الصوانة » على مقربة من « تولين » ببيت عمتي السيدة « فريدة » زوجة المرحوم السيد علي الامين .

ولم يستطع والدي ان يصلح المنزل في قريتنا الا في نحو ستة اشهر حيث وجدنا بعدها شيئاً من الاستقرار . غادرنا « الصوانة » منتقلين الى تولين وما كدنا نلقي برحالنا في بيتنا حتى تلقى والدي امراً شفوياً من السيد « بانسون » المستشار الفرنسي يومئذ يفرض عليه الاقامة الاجبارية في صيدا ، فلم يكن لنا من سبيل الا التنفيذ والانتقال فوراً الى عاصمة الجنوب . وقد كان هذا الانتقال خيراً عليّ ، انا نفسي ، لانه كان سبب الانتقال بي من عهد التشريد الى عهد الدراسة .

بدء دراستي

بدأت عهد الدراسة في مدرسة « الفرير » بصيدا ، وقضيت فيها

سنة ، كنت اتلقى خلالها بعض الدروس على استاذ خاص لكي استطيع مجاراة رفاقي في الصف .

ثم قضيت سنة اخرى في مدرسة المطران في صيدا انتقلت بعدها الى مدرسة الحكمة في بيروت ، فدرست فيها اللغة الفرنسية دراسة حسنة ، ثم انتقلت منها بعد سنتين الى اليسوعية ، والتحقت بالصف الاعـــدادي للحقوق ، وهو صف كان قد أنشيء للطلبة الذين يريدون الالتحاق بمدرسة الحقوق ولم ينالوا شهادة « البكالوريا » .

فلمّا نجحت في امتحان الصف الاعدادي خطر لي ان ادرس الحقوق في فرنسا ، ولكن والدي ابى ان يحقق لي هذه الرغبة ، وكان اكبر السبب في الرفض خوفه ان اعلق ، اثناء الدراسة هناك ، احـــدى الفرنسيات واعود الى الوطن بزوجة اجنبية . وكان والدي قد عرف مـــا جرى للدكتور رشيد جنبلاط اذ تزوج بفرنسية ، اثناء دراسته في فرنسا فلما جاء بها الى الوطن قيل انها كانت سبباً في كارثة عائلية قُتل بها شاب من أنبل شباب قومه من آل مزهر ومن اقرباء الدكتور جنبلاط .

. . .

صراع شديد بين والدي وبيني ، فقد اصر ان يحول دون سفري واصررت أنا على السفر ، وانذرته انني سأترك الدراسة اصلاً ان لم احقق رغبتي . وكان والدي يعرف عنادي ويخشى ان اتركها فعـلاً ، فقبل ، مضطراً ، ما عزمت عليه .

ولكن والدي احتاط للامر ، فقرّ رأيه ، حين لم يجد سبيلاً لمنعي من السفر ، ان يزوجني ابنة خالي محمود بك الاسعد ، وكانت معروفـــة بانها اجمل صبايا اسرتنا ، وكنت قد احببتها دون ان تراها عيني ، لان تقاليد اسرتنا ، حتى ذلك العهد ، كانت لا تسمح لبنات العمومة ان يسفرن لابناء عمومتهن ، ولكني كنت قد استطعت ان اراسل ابنة خـــالي ، فوافق رأي والدي رأيي ورضيت بالزواج ، طائعاً مختاراً .

الى باريس .... عاصمة الحب والجمال والنور

بينا كان الاهل منهمكين في شؤون زواجي ، كنت انا منصرفاً الى اعداد معدات السفر الى باريس ، غير مبـــال بشأن الزواج ، وما انقضى اسبوعان حتى كنت على مـــتن الباخرة « السفانكس » وخيال باريس يداعب خيالي ، ابحرت — على اسم الله — الى عاصمة الحب والجمال والنور ..

كان رحيلي ثقيل الاثر في نفس والدي ، حتى انه لم يستطع ان يودّعني على رصيف المرفأ ، كي لا يراني حقيقة على ظهر باخرة تقلني الى بلاد بعيدة عنه . واكتفى من وداعي بان ارسل اليّ كلمة وداع رقيقة مؤثرة ، ما ازال احفظ منها بيتين غارقين في الدمع واللهفة :

سر يا مسافر فوق باخرة غدت تجري ببحر دموع عـين ساهرة
هم يحرقون قلوبهم جزعاً ، فـلا تك خائفاً من نقص فحم الباخرة

بعد الوداع

ما ازال اذكر — وقد اقلعت الباخرة من الشاطيء وتفرق المودعون وذهب اخي واقربائي عن مرمى عيني — كيف عرتني الرجفة ، وكيف انهمرت دموعي دون ان استطيع لها رداً ، وكيف وددت لو انني لم اقدم على سفري ، وما كنت احسب ، قبل تلك الرجفة ، ان للوداع هذا الاثر في النفس ، وان الانسان على مثل هذا الضعـــف في موقف الوداع . ولقد شعرت ان كبريائي تتحطم وان نفسي تصغر وتتضاءل . وخطر لي حقاً ان اغادر الباخرة واعود الى اهلي وأنقض عزمي كله .

ها هي الباخرة تخرج من المرفأ ، وها هم المسافرون ، بين من يبكي ، ومن يتطلع الى مناظر الجبل دهشاً متأملا ، اما انا فقد ازددت ضعفاً ، وتأثراً ، وبقيت على ذلك بعض الطريق ، ثم اخذت اعود رويداً رويداً ، الى الهدوء والدعة ، الى ان استقرتْ في البحر كلُّ ارادتي ، وانسجمتُ

مع رفاق الطريق اتحدث اليهم ، ويتحدثون الي ، على مائدة الطعام ، وفي أبهاء الباخرة .

ولما وصلنا الى الاسكندرية ، رافقتنا بعثة مصرية من خمسة عشر شاباً يقصدون الى أنحاء مختلفة في اوروبا للتخصص بفروع علمية مختلفة ، فتعرفت اليهم واتصلت بهم ، وانقلب جو الحياة في الباخرة ، بوجودهم بيننا ، الى مرح لا ينقطع .

حتى في الباخرة !

وفيما نحن بطريق البحر الى باريس ، سمعنا بوق الباخرة يزأر عالياً ، فأصابنا الذعر وخشينا ان يكون قد حدث للباخرة حدث يؤذن بالخطر ، فخرجنا الى الشرفات نستطلع ، فاذا البحارة مصطفون بلباسهم الرسمي كأنهم في عرض عسكري . ثم قيل لنا ان عاملين مراكشيين من عمال الباخرة قد تشاجرا فطعن احدهما الاخر بمدية فقتله ، وان البحارة المجتمعين يحتفلون احتفالاً رسمياً بالقاء الجثمان الى البحر . وضع الجثمان في تابوت واوثقت بالتابوت سلسلة حديدية تنتهي بقطعة ثقيلة من الحديد ، ثم امر الضابط البحارة ان يؤدوا التحية ، واذا بهم اثناء التحية يرمون بالتابوت الى البحر ، فيغوص في الاعماق لثقله ، والبحارة منتصبون في التحية خمس دقائق كاملة ، ثم ساد الباخرة صمت رهيب ، هو صمت الموت ورهبتـه . هو شيء من الحزن والوحشة يقبض على صدري . نظرت الى من حولي في البهو الكبير فاذا الجميع كأنهم سكون سحيق . يومـــذاك عرفت قدر الحياة وروعة الموت ، وما يزال خيال هذا الحادث بعد ، خمس وعشرين سنة ، يراود نفسي بشعور الحزن والرهبة ، الذي تملكني يومذاك .

من مرسيليا الى باريس

قضيناها ، سبعة ايام كاملة من بيروت الى مرسيليا ، وما كدنا نصل

مرفأها حتى اخذ بعضنا يودع بعضاً وداعاً كأن لا لقاء بعــده الا في المصادفة العجيبة . وكانت الروابط قد اتصلت بيني وبين افراد البعثـة المصرية بحيث جعلت مصيري أو ما توهمته مصيري مرتبطاً بمصيرهم ، لما كان بيننا من توحّد الغرض في هجرتنا العلمية .

وكنا قد اتفقنا على ان نسافر معاً من مرسيليا الى باريس بالقطـار فذهبنا جميعاً الى المحطة ثم تشاغلنا بنزهة ريثما يحين موعد القطار ، فلما حان فوجئنا بانه ليس ممكناً ان نكون كلنا في حافلة واحدة ، فأخذنا الاسف ، وركبت انا وأحد افراد البعثة في حافلة . كان يقصد لندن للتخصص بصناعة النسيج ، فافترقنا في الصباح ، حين وصل بنا القطار محطّة « ليون » وبقيت وحدي مسافراً على الانقباض في وحشة الغربة .

مشهد !

خرجت في محطـة « ليون » فاستقبلني مشهد جديـد دهشت له الدهشة كلها يومذاك . رأيت رجلاً بين الجماهير الحاشدة ، يلتصق بفتاة – والناس من حولهما – الى جدار المحطة وفمه في فمها يوسعها تقبيلاً ، ولا ينظر اليهما احد ولا يأبه لهما احد ، فارتعشت وعجبت ان يبلغ عنـد القوم سوء الخلق هذا المبلغ فلا يخجل الرجل منهم ولا تخجل المرأة من تبادل القبل والعناق على الطريق ، في محطة القطار ، امام الالوف ، ولا تنكر الجماهير هذا الصنيع ... اولا تثور في مثل هذا المنظر الفاجر ...

كان هذا المشهد اول انطباع واقعي في ذهني عن باريس ، كاد يمحو كل ما كان يحفل به ذهني من اخبار باريس ... عاصمة النور والثقافـة والمدنية والعلم حتى ، والاخلاق .

كيف وصلت باريس

لم اكن احمل الى باريس ، وهي المدينة الكبرى التي يضيع فيها حتى الكبار ، توصية الى احد ، ولا ارشادات الى ما ينبغي للقادم الجديد ان

يتصرف في اختيار مأواه ومطعمه ومعشره ، ولا كيف ينبغي له ان يسلك ويعيش ويتنزه ويصل الى الجامعة . لذلك وقمت اول وصولي الى باريس على حيرة وارتباكٍ شديدين ، الى ان انتقى لي سائق السيارة التي اقلتني من المحطة ، الحيّ اللاتيني ، ثم انتقى لي في هذا الحي فندقاً يدعى « اوتيل اوروبا » ، وضعت فيه حقائبي ، وسجلت اسمي وهويتي ، ثم خرجت منه اطوف في الشوارع على غير هدى ، وانا احسب ان من اليسير عليّ ان اعود الى الفندق دون طويل عناء ، ما دمت قد رسمت في ذهني صورة الفندق ومدخله ، ولكن ها هي شوارع باريس تتعدد امامي وتتشعب وتتشابه ، وها هي الابنية على نظام واحد لا يتميز فيها فندقي من هذه الصور المتشابهة للابنية جميعها ، فكيف الخلاص ؟

لم اجد سبيلاً الا اللجوء الى دائرة الشرطـــة ، ولكن كيف ادل رجال الشرطة على الجهـة التي يقع فيها الفندق ، وانا كنت اجهل كل شيء من امرها ؟

.... واخيراً تذكرت ان قرب الفندق داراً للسينما تعرض فيلم « ابن الشيخ » لرودولف فالنتينو ، فاستطاع رجال الشرطة بهذه الاشارة ان يهتدوا الى الفندق فأعود اليـه وقد تعلمت ان احتاط لمثل هـــذا الامر دائماً ، فاقتنيت فوراً دليل باريس ، ودرسته درساً متقناً في دقة الشوارع والساحات والحدائق والمعابر والملاهي والفنادق ايضاً .

ابراهيم عـــازار

التقيت بعد يومين من وصولي باريس ، المرحوم ابراهيم عـــازار في معهد الحقوق ، فوجدت فيه الصديق الوفي الكريم ، وقام ـ رحمه الله ـ بما ينبغي للصديق ان يقوم به نحو صديقه ويسر لي امر التسجيل في المعهد وامر معاملاته ، وتعرفت بارشاده الى مطاعم الطلبة ، وعرفت كيف استأجر غرفة ممتازة في فندق شارع « السوربون » لا يبعد عن معهد الحقوق اكثر من

خطوات معدودة ، ثم اتصلت الاسباب بيني وبين جميع الطلبة اللبنانيين والسوريين هناك .

عقبة .. وامتحان !

فوجئت بعد ايام من تقديم طلب الانتساب الى معهد الحقوق ، ان ادارة المعهد ترفض طلبي ، لاني لا احمل شهادة « البكالوريا » ، فكان لا بد من التعويض عن البكالوريا بالامتحان ، فأديّت الامتحان باللغة العربية : الفصحى ، والعامية ، بوصفهما لغتين اثنتين ، وكان فاحصي تونسياً ضعيف العدة بالعربية ، فظهر تفوقي عليه ، حتى اضطر ان يمنحني اعلى العلامات ، وظفرت اخيراً بقبولي في المعهد ، ولكن بعد انتظار ثلاثة اشهر . وقررت ادارة المعهد ان اتابع الدراسة في صفوفه بوصفي طالباً لا مستحقاً واخذت احضر الدروس ، ولكني شعرت بضعفي عن متابعة دروس الاساتذة وزادني ضعفاً وتقصيراً انه كان بين من عاشرتهم من الطلبة ، رفاق ليس من همهم في باريس غير الملاهي والمقاصف واشباع اجسادهم دون مبالاة بامر عقولهم الجائعة الخاوية .

حياة الطالب في عاصمة النور

في باريس ألوان وطرق عديدة من المعيشة ، واحياء تختلف باختلاف السكان .

فهذا حي لا ترى فيه سوى من اتى خصيصاً من جميع اقطار العالم ، ليطلق العنان لملذاته وشهواته ، باذلاً لها الملايين .

وهذا حي لا ترى فيه الا الفرنسي العامل المقتصد الذي لا هم له سوى كسب معيشته ، فهو ينظر للغريب نظرة العدو ويتهمه بفساد محيطه ويسميه « Metek » اي المحتقر الدون .

وهذا حي لا ترى فيه غير الاناقة والتهذيب الرفيع والحياة الارستقراطية بكل معانيها .

... وحي لا ترى فيه الا الناسك الذي لا تسمع منه سوى حديث الاديان واللاهوت .

. . .

وهناك حي ، وهذا ما يهمنا البحث عنه ، يعرف بالحي اللاتيني ، هو عبارة عن مجمع من الشباب أتوا من ارجاء الارض كافة يطلبون العلم . انك لترى في هذا الحي مثلاً مائة وخمسين الف طالب يتابعون الدروس من حقوق وهندسة وعلوم وفنون .. الخ ، فلا ترى نفسك غريباً بينهم في جوهم ولا ترى من هو افضل منك ، او من يمتاز عنك بالحقوق والواجبات ، فتحس بأنك على قدم المساواة مع الجميع ، تطلق لارادتك العنان فتستبيح اي عمل ، ويظل مقامك مع ذلك موفوراً واحترامك محفوظاً ، لانك طالب علم ، وعليك يقوم المستقبل ولـك ، لا لسواك ، حرية القول والعمل والانتقاد واللهو . ترى الشرطي الباريسي في الحي اللاتيني غيره في الاحياء الاخرى ، يحفظ النظام بمرونة ولباقة وطول اناة ، وهو مجبر على التحلي بهذه السجايا الحميدة ، واما اذا سألته عن سبب اختلافه عن بقية رجال الشرطة في بقية الاحياء ، فانه يجيبك بابتسـامة وحبور : « ان الطالب هو نقطة استفهام لا يعرف من هو ولا الى اية بـلدة او اسرة ينتمي ، ومـاذا سيكون من امره بعد انهاء دراسته ، لذلك لا يستطيع الشرطي تطبيق القوانين باحكامها عليه أو معاملته كسواه ... وان رئيس الوزارة الفرنسية قد حدد مستقبله في هذا الحي .. امـا الطالب ، فلربما عاملته بعنف او تعسف وكان ابن ملك او ملك بعـد سنة او يومـين او ساعة ، والطلاب قوة لا تستطيع مجابهتها ، ...... ولربما احدث ذلك مشكلة دولية .... فعملنا في الحي اللاتيني يختلف عن عملنا في بقية الاحياء باختلاف هذا الحي عن غيره وباختلاف ساكنيـه وميزاتهم عن سكان بقية الاحياء ... »

لذلك كنا نشعر عند تخطي هذا الحي اننا ذهبنا الى مقاطعة تختلف عن حينا « الحي اللاتيني » باسلوب حياتها وكيفية معيشتها وتطبيق قوانينها .

قلت ان الطلاب في باريس يشكلون قوة لا تجابه ، واليك مثلاً على ذلك . في سنة ١٩٢٥ كان السيد هريو وزيرا للمعارف ، فاصدر قراراً بنقل مدير معهد الحقوق ، ثم عين آخر مكانه ، فما كان من الطلاب الا ان قرروا الاضراب حتى يعود الوزير عن قراره – ويجب ان تعلم ان عدد طلاب معهد الحقوق يقارب الاثني عشر الف طالب – وبعد ان قررنا الاضراب اقدمنا على تنظيم تظاهرات صاخبة ، فكسّرنا نوافذ المعهد ، وجابهنا رجال « البوليس » باستعمال انابيب الاطفاء ورش المياه ، فلم نشأ ان نعدل عن فكرتنا . وخشية ان تتسرب هذه الفكرة الى المعاهد الاخرى ، فقد قابل وزير المعارف رئيس الطلبة وعرض علينا الرجوع عن الاضراب واعداً بالغاء القرار الذي اتخذه ، بعد اسبوع من استئناف الدروس . فكان الجواب ان استمر الاضراب ، وكان شرطنا الوحيد لتعليقه ان يعود المدير ويعتذر الوزير . وتغلبت ارادة الطلبة ، وتمّ لهم مطلبهم ، ولا غرو فارادة الطلبة عند اتحادهم قوة لا تغلب .

الطلاب .. والاضراب ..

والطالب في باريس لا يكتفي بالعلم ، بل ينتسب الى الاحزاب ويشترك في تنظيم الجمعيات ويسير على مبادىء سياسية يناضل من اجلها جهراً وعلناً ، ويسعى لتقويتها بالدعاوة والنقاش والكتابة وشتى الطرق الممكنة ، حتى انك لترى الطلاب في معهد الحقوق عندما يجلسون في قاعة الدرس ، يجلسون على طريقة النواب في المجلس النيابي ، فمن كان من حزب اليمين جلس الى يمين الصف ، ومن كان من حزب اليسار جلس الى يساره ، وكثيراً ما كنا نرى جلسة نيابية في نفس القاعة قبل بدء الدرس . فهذا هو احد الطلاب الذين ينتمون الى حزب من الاحزاب يخطب

مدافعاً عن نظريات حزبه ، فيرد عليه طـــالب من حزب آخر ، حتى تخال قاعة الدرس قد استحالت ندوة نيابية بكل معنى الكلمـــة . وفي اغلب الاحيان كان يحتدم الجدال فلا يقف عند حده الا بعـد دخول الاستاذ ، اذ يقطع الحديث ويبتديء الدرس . واذكر مرة انه احتـدم الجدال بين طالبين ، كل منهما يفند مبدأ الآخر ، وفي هذه الاثناء دخل الاستاذ ، ولكن واحداً منهما لم يتوقف عن الكلام والنقاش بل بقيا في غمرة الجدال ، بينما وقف الاستاذ حائراً ينتظر دوره في الكلام . وبعد ان انتهى احد الطالبين من كلامه قال : « الكلام للاستاذ ، فاذا اراد ان ينصف بيني وبين زميلي كنت له من الشاكرين والا فسنعود بقاعة الدرس الى حالتها الطبيعية بعد ان حولناها الى مجلس نيابي ، وعند ذلك فليتفضل حضرة الاستاذ باعطائنا الدرس» فأجابه الاستاذ : «الا يكتفي المرء بان يخطب حتى يتعدى الى اعتبار نفسه كالنائب ، له ما له وعليه ما عليه ؟ ان صفات الطموح حميدة يجب ان يتحلى بهـــا كل انسان ، امّا ان يصور الانسان واقعه كما يطمح ان يكون ، ويصبغه بصبغة خيـــالاته ، فهذا شطط وخروج عن الواقع وهذيان في الوقت نفسه .. وما دام الطالب المحترم قد سمح بتحويل القاعة من ندوة نيابية الى قاعـة دروس فاني له من الشاكرين ، وانا انتهز هذه الفرصة السعيدة لاشرح لهـــذا الخطيب الدرس الذي تتوجب عليه معرفته قبل المناقشات السياسية ... » وهنا دوت في القاعة ضحكات عالية ، ثم ساد السكوت وأخذ الاستاذ يعطي الدرس .

صديق

ومن اطرف الحوادث انه كان لي صديق تعرفت اليه في المدرسة في بيروت – وهو الآن زميلي في القضاء – انه فؤاد بولس – فعندمـــا شاهدته في باريس قمت بواجبي نحوه ، بوصفي اقدم منه عهداً بالعاصمـــة الصاخبة وبوصفي معروفاً بين رفاقي بانني مدير شؤونهم الساهر على مصالحهم

العارف بخلايا باريس وخفاياها والوسائل التي يجب استعمالها حتى لا نكون ضحية المستثمرين والنصابين . كان رفيقي القادم الجديد مستخفاً بالدنيا مبذراً الى درجة كان يحصل من اهله على دراهم يعادل مبلغها ضعفي ما يحصل عليه اغنى رفاقه ، ولكنه كان ينفق هذه الاضعاف في الاسبوع الاول من الشهر ، وكان يقتر ، في المدة الباقية ، على نفسه من القلة الباقية له من الدراهم ، وقد ساءني منه هذا الامر ، وعبثاً كنت احاول نصحه ، ولم ار بداً عندئذ من ان اخطره ، انه اذا استمر على هذا النهج فلأقطعن علاقتي به ولن اوافقه ابداً ، واخذت ، حرصاً على رفقته ، اعين له في كل يوم وفي كل مناسبة مبلغاً من المال يصرفه . وفي احد الايام ذهبت واياه الى صالة رقص ، وقبل ان ندخل طلبت محفظة نقوده فدفعها اليّ فأخذت منها ورقة من فئة المائة فرنك واعطيته اياها ، ووضعت المحفظة في جيبي وقلت له : « يكفيك هذا المبلغ في هذه السهرة » . وكان هذا المبلغ باهظاً لأن احسن غداء كان يساوي عشرة فرنكات . فقبله ودخلنا القاعة ، وما ان جلسنا على الطاولة حتى طلب من الخادم ان يدعو راقصة لتجلس معه فلم امانع ، ما دمت قد حددت له مبلغ الانفاق . لقد جلس واياها يتناولان الشراب . وحين رأيت ان ثمنه اوشك ان يتعدى المبلغ الذي حددته ، التفت اليه وكلمته بالعربية قائلاً : « يا فؤاد ... والله .. والله اني مقرر ان لا ادفع لك درهماً اضافياً واحداً فاحـــذر والا تركتك بين يدي الخادم يحجز لك ثيابك حتى تسدد ما يطلبه » . التفت اليّ وقال : « موت يا رضا ... هذه ورقة المائة فرنك اخفيتها عنك » ومد يده الى حذائه وسحب منه ورقة من فئة المائة فرنك وقال : « على اذني ما بعلق تهديدك » .. فاخذت اضحك ، وقلت له : « اتخبيء في الحذاء دراهمك ؟ اصنع مـــا تشاء ، انت راشد ، وتعرف مصلحتك ، فأجابني : « منين راشد وانت على كتافي ، كأنّ والدي نظّم لك عليّ صك وصاية ... » وضحكنا وضحكت معنا مجالستنا ... حتى انها اخذت

تناديني بلقب الوصي ، وهكذا كنت مع رفاقي او بالاحرى مع اكثر رفاقي لا اسمح لهم باتيان اعمال تشذ عن المألوف ، او عن حيز الممكن .

بدء النهضة النسائية في العاصمة

كنت يوماً من الايام قاصداً معهد السوربون لاطالع في المكتبة ، وبينما انا اصعد الدرج وأهم بالدخول ، لاحظت خلفي آنسة تقصد المعهد ايضاً ففتحت لها الباب وقلت : « شرفي مدموازيـــل » ، وما ان لفظت هذه العبارة حتى اجابتني وعلائم الغضب بادية على وجهها : « تابع سيرك يا مسيو » فدخلت الباب واتممت سيري نحو المكتبة متسائلاً عما حدا بهذه الآنسة لتجيبني بهذه الصورة ، وقلت ربما اعتقدتْ اني اتودّد اليها للتعرف . وقبل ان ادخل قاعة المطالعة ، وانا افكر ، لمحتها تتبعني ، ثم قالت لي : « مسيو ! اريد منك موعداً . بودي ان اتحدث اليك خمس دقائق . » فسألتها ما اذا كنت قد اسأت الادب معها حتى تكون بهذه الفظاظة ، فافهمتني بان الحديث سيدور بيني وبينها حول هذا الموضوع ، فأخبرتها اني على استعداد لسماعها بعد ساعة في باحة السوربون ... ونزلت بالفعل في الوقت المحدد ، الى الباحة حيث وجدتها تذرع الرواق كأنها جندي يقوم بالحراسة . فتقدمت منها وحييتها ، وما ان اخبرتها اني عـــلى استعداد للتحدث اليها بما تريد حتى اقتادتني الى رواق وجلست معي على مقعد هناك ، وسألتني عن السبب الذي أردتُ من اجله ان ادخلها قبلي من الباب ، فاجبتها بان احترام المرأة امر واجب ، وان ما قمت به ليس الا من قبـــل الآداب المعمول بها في جميع انحاء الدنيـا . عندئذ تطلعت الي وقالت بجدة : « ان مثل هذ العمل ليس من قبيل الاداب والاحترام بل هو من قبيل احتقار المرأة والاعتقاد بأنها ضعيفة بالنسبة للرجل ، وهذه

امور تريدونها انتم الرجال وتعماون بها الآن . انانيتكم جعلتكم تنظرون الى المرأة بغير ما تستحق ، معتبرين انها لا تساوي الرجل بكل معاني الحياة » وتابعت كلامها بشبه تهكم ممزوج بالغضب : « وكنا قد بنينا أمنيات جساماً على تقدمكم الثقافي ولكننا رأينا أنكم كلما تقدمتم ، ازددتم تأخراً بالنسبة لقضية المرأة وبالنسبة لنواح عديدة » ... عندئذ قلت لها ببطء : « يا سيدتي نحن نبحث في حادث معيّنٍ قمت به انا كرجل فرد فاعتبرتِهِ عملًا شاذاً مع انني لا اقصد منه الا احترامك » فأجابتني على الفور : « هذا ليس احتراماً لي ولا لبنات جنسي ، بل هو احتقار واستضعاف » .

فقلت لها : « صدقي أنني اذا لم اكن اقصد الاحترام فقد قصدت الشفقة والحنان » ، فانتصبت واقفة وقالت : « انتم الرجال احق الناس بالشفقة » ، فقلت لها : « ان الشفقة تنبعث من الرجل لكونه اقوى من المرأة ولو جسدياً » ، فأجابت وكأنها تريد ان تقنعني بخطأ قولي : « ان البغل اقوى من رجال ونساء عدة مجتمعين » ... ففكرت قليلًا ثم قلت لها : « اذا ارادت المرأة المساواة مع الرجل ، فعليها ان تناصفه جميع الاعباء التي يضطلع بها » ، فقالت وقد ارتفع حاجباها : « ذلك ممكن . » فبادرت الى القول وكأنني اردت ان اتبين عجزها : « اذاً عليكن القيام بالخدمة العسكرية وحمل السلاح والمبيت في الخنادق . » فأجابت دون تردد : « ان الخدمة العسكرية لا تعني حمل السلاح وحده ، وفينا من يساوين الرجال مقدرة على ذلك ، فهناك اعمال الجاسوسية ، ونحن اقدر منكم عليها ، وهناك معاينة الجرحى ، ونحن اعلم منكم بها ، وهناك تنظيم الخرائط الحربية ، وانتم لا تفوقوننا في هذا المضمار ، وباستطاعتنا ان نساويكم في قيادة السيارات وقيادة الدبابات وجميع ما يؤول الى الميكانيك . » واستطردت في كلامها وكأنها تلقي محاضرة على جمهور ، فخطر ببالي ان انهي حديثي بنكتة لاذعة فقلت بتأنٍ : « في

الواقع ان كل مـــا اثبت على ذكره هو عين الحقيقة ، هـــذا اذا وضع قانون دولي او اتفاق عامّ بين جميع الدول بانه اذا نشبت الحرب بين دولتين يجب ان توقع هدنة ميكانيكية آخر كل شهـــر وتستمر اسبوعاً كاملاً حتى تتمكن النساء الميكانيكيات المحاربات من القيام بواجباتهن الشخصية » ثم استطردت بكلام اكثر ما يقال فيـه انه كلام طالب ... جعلها تثور وتغضب وتتركني بعد ان كالت لي من اوزان الكلام ما اسعفتها به ذاكرتها . وكان اقله اني طالب بدون تهذيب. وبعد اسبوع من هذه المناظرة الكلامية العنيفة بيني وبين هـذه الآنسة ، شاهدتها مع اربعين او خمسين سيدة مثلها يهجمن على احد الاساتـذة في ساحة السوربون بالضرب المتساقط ، ذلك لأنه القى محـاضرة شجب فيها حركتهن النسائية التي تبغي المساواة التامة بين الرجل والمرأة . فهرولت نحو المعركة ، وما شاهدتني صاحبتي أقترب حتى اخذت تكيل لي الشتائم فيضاً ، فدنوت منها وامسكتها من ذراعها ودفعت بهـا بعيداً لتشعر بنفسها بتفوّق القوة عند الرجل ، فما كان منهـــا الا ان افرغت عصارة غضبها وحنقها مرددة « يا بغل ... يا بغل » فلم اجب إلا ساخراً ثم اسرعت وبعض رفاقي الى الاستاذ وانتزعناه من صـــاعقة غضبهن ... وكلمة « يا بغل » تضجّ من الشفـــاه الغضبى في اذني كانها عنوان الفصل الأول في كتاب مساواة الرجل بالمرأة رغم ارادة الطبيعة ...

... وبعد ... فهذه بعض خواطر من اطرف ما حدث لي في باريس .

الجمعية السورية العربية

ما مضى زمن على استقراري في باريس ، حتى كنت في عداد العاملين في الجمعية السورية العربية التي تضم فريقاً من الشبان السوريين وغير السوريين العرب ، وكان رئيسها يومئذ السيد حيدر مردم بك خلفاً للاستاذين عبدالله

اليافي فحبيب أبي شهلا اللذين غادرا باريس بعد انتهاء دراستهما .

عرب وصهيونيون!

كنت يوماً في غرفتي بالفندق ، واذا بالسيد ماجد العمري من شباب الطلبة العراقيين ، يدخل عليّ ، وكان يومئذ امين سر الجمعية السورية العربية في باريس ، ثم يطلب ان اصحبه الى اجتماع صغير سيدور البحث فيه حول حفلة تريد الجمعية الصهيونية ان تقيمها بمناسبة مرور بلفور بسوريا ، وهو صاحب الوعد الصهيوني التاريخي المشؤوم ، لكي تستغل الجمعية الصهيونية حوادث التظاهرات التي قوبل بها في سوريا ، للدعاوة لاغراضها ، ولتشويه سمعة العرب في العواصم الغربية ، ولاقامة الدليل ، من هذه الحوادث ، على ان العرب قوم مشاغبون ... متوحشون ...

وذهبت مع السيد ماجد العمري الى مقهى « لاسورس » حيث كان مجتمعاً عدد من الطلبة العرب المنتسبين الى الجمعية السورية والجمعية اللبنانية ، وممن لا ينتسبون لاية منها ، ودار البحث فيما يمكن ان نعمل لمقاومة الجمعية الصهيونية ، وإفساد اجتماعها الذي تعتزم عقده في باريس ، وقررنا اخيراً ان نطلب الى امين سر الجمعية الصهيونية الموافقة على ان يكون احد الطلبة السوريين بين خطباء حفلتها ، فاذا رفض وقفنا بوجه الاجتماع نفسه حتى نقضي عليه .

وهكذا كان ، فقد رفض امين سر الجمعية الصهيونية ، طلبنا . ويوم انعقاد الحفلة ، كنا نحو اربعين شاباً عربياً نقصد الى القاعة ، وبيد كل منا عصا من الخيزران ، ومعنا شاب حلبي عملاق ، هو السيد هنري بليط ، بطل باريس بالملاكمة ومعلم ممتهن للرياضة الجسدية ، وكان هو وحده بيننا لا يحمل عصا ، فلما انتهينا الى مكان الحفلة ، دخلناه على دفعات متتالية ، وطلب اليّ هنري ان ارافقه لاحمي ظهره من الضربات التي يمكن ان يتلقاها من الوراء وتعهد ان « يكنّس » القاعة تكنيساً من الصهيونيين .

دخلت معه ، واذا بالقاعة تحتشد بمئات الوافدين ، واذ بهنري يتخذ مجلسه في آخر القاعة ، حتى اصبح بيننا وبين المدخل حشد كبير من الناس ، فسألت هنري :

– كيف نستطيع الخروج حين تحتدم المعركة ؟

فاجاب : ولكن ، كيف « اكنس » القوم الى الخارج ، اذا لم اكن في مواجهة الباب ؟

ثم هددني بأنه سيسدد لي ضربة قاضية اذا لم امنع عنه الضرب من الوراء ، فاصبحت من تهديده بين خطرين : خطر الجموع الصهيونية وخطر الضربة القاضية التي « وعدني » بها ..

وافتتح الجلسة رئيس الاجتماع ، ثم صعد الخطيب الاول ، واخذ يكيل الشتائم للعرب كيلاً ، وفجأة انتصب الاستاذ جبرائيـــل منسى المحامي والاقتصادي اللبناني المعروف ، وبدأ يقول :

« ايتها الحركة الصهيونية السافلة ... » فما كاد ينتهي من هذه الكلمة ، حتى سحب اليهود الكرسي من تحته ، وبدأت المعركة بيننا وبينهم ، اي بين اربعين شاباً عربياً ومئات عدة من الصهيونيين ، واخذنا نوسعهم ضرباً ونصيح بأعلى اصواتنا :

« لتحي فرنسا ولتسقط الصهيونية . »

اما هنري ، فقد حقق الظن ، واذا به يضرب الرجل منهم بالرجل ، ويلقي الثلاثة منهم والاربعة دفعة واحدة الى الارض ، حتى دب الذعر فيهم ، وحضر رجال الشرطة ، فأقفلوا ابواب القاعة ، وفرقوا الجموع ... وهذا ما اردناه .

ولم افترق عن هنري بعد المعركة ، وانضم الينا السيد ماجد العمري وهو يشكو ألماً من رفسة اصابته بهـــا رجل صهيوني وشقت سرواله الجديد ، فاخذنا نسخر منه اذ جاء المعركة ببزته الجديدة ، كأنه آت الى حفلة راقصة . وفي هذه اللحظة المرحة لاح لنا الصهيوني الذي بـدأ

الحفلة بشتم العرب ، ثم صار قريباً منا ، فقفز هنري اليه قفزة افزعته ، فصرخ صرخة المذعور : « اغيثوني ! اليّ ! اليّ ! »

فتقدم الينا شرطي سمع صراخ الصهيوني ، وقال :

ـ حقاً انكم مزعجون ، ايهـــا السوريون ، ألم يكفكم انكم افسدتم عليهم اجتماعهم واشبعتموهم ضرباً ، فجئتم تعبثون بالامن في الشوارع . هيا ، اذن ، الى المخفر ...

وسرنا مع الشرطي الى المخفر ، وبقينا هناك ننتظر على المقاعد الخشبية حتى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، فتقدمت حينذاك الى الخفير وقلت :

ـ اذا كنا موقوفين ، فاجعلونا في موضع التوقيـــف ، واذا كنتم تريدون استجوابنا فاستجوبوا اذن ، فلمَ الانتظار ؟

وبعد اخذ ورد ، قبلوا ان يستجوبونا ، وكان دوري اول الامر ، فكنت صريحاً في اجوبتي كل الصراحة ، وهكذا كان امر رفيقي ماجد العمري ، فلما كان دور هنري ، وعرف كاتب المخفر اسمه ، قال له :

ـ ألست انت « هنري » ؟

قال : بلى .

قال :

ـ اذن ، لن اتركـــك حتى تقص علي قصة معركتكم اليوم مع الصهيونيين ونتائجها ، وكنت انت لا شك « بطل » المعركة ، ولا بد ان تكون ضرباتك قد تركت ضحايا كثيرة ....

فقلنا للشرطي : كيف تتهم شخصاً لم يتقدم احد ضده بشكوى ، ولم تتهمه النيابة العامة بجرم ؟ ...

... ولكن لم يفرج عن هنري الا بعد ان ذهبنا مع احد رجال المخفر الى حيث يسكن هنري وسجلنا سند اقامة وقعه حاجب المنزل ، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد منتصف الليل .

من تاريخ الشيخ تاج

واذكر من اعمال الجمعية السورية العربية ، انه حين انشأت الحكومة الفرنسية جامع باريس برعاية سلطان مراكش : ودعت للاحتفال بتدشينه عدداً من الشخصيات الاسلامية ورجال الدين والقضاء الشرعي ، كان بينهم الشيخ محمد الكستي قاضي القضاة الشرعيين في لبنان ، والشيخ تاج الدين الحسني القاضي الشرعي يومئذ في سوريا ، ارادت الجمعية ان تنتهز هذه الفرصة لخدمـــة الحركة الوطنية في سوريا ولبنان ، فعقدنا اجتماعاً للتداول ، واستقر الرأي على ان نجتمع الى الشيخ محمد الكستي ، ونتخذ منه قائداً لحركتنا في باريس بوصفه من رجال الدين ، وننظم بقيادته صفوفنا ونطالب السلطات الفرنسية بحقوق سوريا ولبنان .

ولكن الشيخ الكستي – رحمه الله – لم يستجب لدعوتنا هذه ، فتحولنا الى الشيخ تاج الدين ، بوصفه نجل المحدّث الاكبر الشيخ بدر الدين الحسني صاحب المقام الديني الكبير في الاوساط الاسلامية وفي الشعب السوري . فذهبنا اليه – وكنا خمسة من اعضاء الجمعية – فألفينا لديه استجابة حسنة لرغبتنا فطلبنا اليه عندئذ ان يرفض الضيافـــة الفرنسية ، فرضي واتخذ فعلاً منزلاً على حسابه في شارع الاكاسيا ، وبدأنا ننظم حركتنا بالاجتماعات والخطب واذاعة المناشير ، ومقابلات كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية ، والشيخ تاج الدين على رأس الحركة ، حتى قدم الى باريس المرحوم رياض الصلح .

رياض الصلح

وكان مقدم رياض الصلح بركة زادت حركتنا نشاطـــاً وانتاجاً ، واخذ يبلورها باسلوبه الفعال ، حتى ملأنا باريس ضجة واشغلناها بمطالبنا ، وحتى كان تعيين المسيو « دي جوفنيل » مندوباً سامياً لفرنسا في سوريا ولبنان ، بدلاً من الجنرال « سراي »

فلما حان موعد سفر دي جوفنيل الى الشرق ، اتخـــذنا من هذه

المناسبة فرصة للعمل ايضاً ، وتقرر ان يسافر الشيخ تاج في القطار نفسه الذي يستقله المندوب السامي الجديد ، لتكون لنا من هـــذه المناسبة ضجة للتظاهر والتعبير عن امانينا الوطنية في مسمع دي جوفنيـل وهو ذاهب الى بلادنا ليحكم فيها سيداً مطلقاً .

حجزنا للشيخ تاج دائرة في القطار ذاته ، وجمعنا صفوفنا لنودعـــه بتظاهرة كبيرة ، وذهبنا الى المحطة في الوقت الذي علمنا ان المفوض السامي الجديد سيكون على اهبة السفر .

وصعد الشيخ الى مكانه في القطار ، وتعالى صوت من صفوفنا ، هو صوت السيد ماجد العمري ، يقول :

ـ نحن لا نرضى بأقل مما يريده شعب سوريا ولبنان ... سر على اسم الله يا استاذ (يقصد الشيخ تاج الدين) .

وتعالت بعد هذا الصوت ، اصواتنا جميعاً تهتف للاماني الوطنيـة ، وتحيي الشيخ تاج . فاجتمع حولنا الفرنسيون بالمئات يستمعون الى المعبر عن اهدافنا التحريرية ، فكانت مظاهرة ناجحة تسرب اثرها الى قـــلوب عدد كبير من الفرنسيين .

وغادر القطار المحطة ، وعدنا نحن الى المدينـة وفي صدورنا شيء من الغبطة والامل بان يكون الشيخ تاج رجل وطنية ، يعمل في صفوف القادة العاملين .

ولكن الاخبار ما لبثت ان جاءتنا عن الشيخ تاج ... فشعرنا بخيبة الامل ، وظهر ان الجو الذي خلقته الجمعية السورية العربية للشيخ تاج الدين في باريس كان خلقاً للشيخ تاج « السياسي » نفسه ، فقـد استغل هذه الضجة التي اقمناها حوله استغلالاً ، واتفق مع « المفـوض السامي » الجديد وهما على ظهر الباخرة في الطريق الى سوريا ولبنان ، وبدأت - منذ ذاك ـ حياة الشيخ تاج السياسية المعروفة .

ولما جاءتنا اخبار الشيخ تاج هـذه ، رحمه الله ، وعفا عنّا وعنـه وعن

القاريء الكريم ايضاً ، كان علينا ان نشجب انحرافه ، ونعلن غضب الوطنيين على تصرفه وبحثنا امر اصدار البيانات عنه واوصافا للوطن ، وفيها صور للشيخ في حياة باريس ، خالعاً عمته ، مجالساً الباريسيات يعاقرن الخمرة في المقاهي ، ولكن بعضنا رأى ان الوقت لم يكن قد حان بعد لمثل هذا التشهير بالرجل فتشويه سمعته ، وانه ينبغي لنا ان ننتظر لنرى ما يكون من امره .

فصل عن رياض الصلح

وتدعوني هذه المناسبة الى ان اذكر المرحوم رياض الصلح فصلاً من تاريخه شهدته بنفسي وعرفت حوادثه واشخاصه .

لقد احاط رياض الصلح حركتنا في باريس يومئذ بنشاطه المعهود ، وافاض عليها من اساليبه البارعة ما اكسبها روحاً جديدة ، وكان قد جاء باريس يومذاك ، مع عدد من رجال السياسة في سوريا ولبنان ، للعمل في سبيل رئاسة الامير لطف الله على سوريا ولبنان ، فكانت الحفلات في هذا السبيل تتلو الحفلات ، واندمج الكثيرون في هذه الحركة حتى افلتت قيادة الجمعية السورية العربية من ايدينا ، واصبحنا جميعاً نعمل ونتحرك وفق مشيئة رياض الصلح لا نناقش ولا نجادل مطلقاً ، وتوترت العلاقات بين الجمعية السورية العربية وبين الجمعية اللبنانية حتى كان يلتقي اعضاء احدى الجمعية اخوانهم من الجمعية الاخرى ، فلا يحيي بعضهم بعضاً ولو كانوا قبلاً من الأصدقاء .

ولقد شعرنا فجأة سوء هذه الحال ، فاجتمعنا يوماً في غرفتي ، وقر الرأي على أن ننشيء نادياً أدبياً محضاً ، يجمع ابناء الشرق الأدنى جميعاً في باريس على اختلاف آرائهم السياسية ونزعاتهم الوطنية ، ودون أي نظر للمسائل السياسية ، توطيداً لعرى الصداقة بين هؤلاء الشبان ، وتخفيفاً لوطأة التنابذ والتباغض بينهم بحيث لا يمنع ان ينتمي احدنا الى هذا النادي ،

وهو – في الوقت نفسه – من المنتسبين الى احدى الجمعيات السياسية .

وقد بدأنا تنفيذ الخطة سريعاً ، فذهبت انا الى القاعة المعروفة باسم قاعة العلماء فاستأجرت منها جانباً وتبرعت بالايجار ، ثم دعونا الى اجتماع يعقد فيها . وعقد الاجتماع بالفعل ، فكان الاقبال عليه عظيماً ، وترأسه الدكتور عاد وبحث المجتمعون فكرة النادي ، فاذا بهم جميعاً يحبذون الفكرة ، ويؤلفون لجنة من السادة : الدكتور عاد ، ابراهيم عازار ، كامل مزهر ، اسعد هارون ، وانا ، لوضع منهج النادي .

وعقد الاجتماع الثاني ، ثم الثالث ، ولم يعقد الرابع ، اذ اختلفنا في تسمية النادي ، فالمصريون لا يدخلون النادي اذا دخلت « العربية » في اسمه ، بحجة انهم قوم « فراعنة » لا عرب ، وكذلك شأن بعض اللبنانيين بحجة انهم غير عرب ، ولانخداع بعضهم بما كان يزينه لهم بعض الفرنسيين من ان العمل مع العناصر العربية ، مضر بمصلحة لبنان وكيانه .

وكان الدكتور عاد من هؤلاء المخدوعين . اما السوريون فكانوا يرون في تحقيق فكرة النادي ما يخفف من نشاط الجمعية العربية السورية ، كما اوحى اليهم به المرحوم رياض الصلح .

. . .

كان اخفاق الفكرة صدمة عنيفة لنا ، وكنت انا اكثر شعوراً بوطأة الصدمة ، لانني كنت في طليعة من فكروا بالامر وسعوا له وجهدوا لتحقيقه . وكان من نتائج هذا الحادث ، ان اصيب نشاط الجمعية العربية السورية ببعض الشلل ، فخمد نشاطها مما عرقل حركة رياض الصلح ، اذ كان يعتمد في معظم نشاطه على حركة الجمعية ، يعقد باسمها الاجتماعات والحفلات ، ويضع باسمها خطط الدعاوة والعمل .

ولكن فريقاً من الشباب رأى إنعاش هذه الجمعية واستعادة نشاطها ، فدُعينا الى اجتماع لهذا الغرض ، فلبينا الدعوة ، وفيما نحن نبحث جوانب الامر ، نهض احدنا واقترح ان يُهدى رياض الصلح قلم حبر من الذهب باسم الجمعية السورية العربية ، اعترافاً بفضله وجهاده في سبيل فكرتها ،

وكان في صندوق الجمعية يومذاك ثمانمئة فرنك لا تزيد ، فعـــارضت انا الاقتراح وقلت ان الجمعية تستطيع ان تكتفي بان تتوجـه بكتاب الى رياض الصلح تعرب فيه عن تقديرها لجهاده وفضله ، دون ان تتكلف ثمن الهدية ، وصندوقها متعب .

وقد اثارت معارضتي للاقتراح مشادة عنيفة بيني وبين صاحبـه انتهت بانسحابي من الاجتماع ، لان منافسي لجأ الى استغلال « الطائفيـة » في البحث استغلالاً مثيراً لا يتناسب والفكرة الوطنية التي نعمـــل لها ، وقد تضامن معي في الانسحاب طالبان هما : المهندس توفيق دليق من (عاليه) والاستاذ محمد علي عابدين حماده من (اللاذقيـــة) وكان يتخصص بالادب والفلسفة ، ووقفنا نحن الثلاثة بعد هـذا نعارض ان تكون ارادة رياض الصلح مفروضة فرضاً على الجمعية السورية العربيـــة دون مناقشة ولا جدال . ثم انضم الينا الاستاذ اسعد هارون ، ومن كان معه من طلبة اللاذقية ، وهم كثيرون ، فلما شعرنا اننا اصبحنا في الجمعية قوة لايستهان بها اقدمنا على المطالبة بانتخابات جديدة لهيئة الجمعية ، فاستولى امين السر السيد ماجد العمري على دفاتر الجمعية ونقلها الى منزله ممتنعاً هو والرئيس حيدر مردم بك عن تعيين موعد الانتخاب .

وذات يوم دعاني رياض الصلح الى حفلة شاي اقامها من اجـــلي في فندق « لوتاسيا » بوصفي من شباب منطقته « جبل عامل » بمناسبـــة خطبتي للآنسة بوليت الفرنسية .

« مناورة » جميل مردم بك !

ولكن هذه المجاملة الكريمـــة من رياض الصلح لم تردني عن موقفي ازاءه في الجمعية . ووصل باريس في تلك الاثناء جميل مردم بك ، فلما علم بالامر ، وايقن ان قوة المعارضة تنبعث من اسعد هارون واخوانـه طلبة اللاذقية ، اقام حفلة دعاهم جميعاً اليها واهملنا — انا والرفيقين توفيق

دليقان ومحمد علي عابدين حمادة — ، وفي اثناء الحفلة عرض السيد جميل مردم على الاستاذ اسعد هارون ان يتولى رئاسة الجمعية ، وكنا نحن قد رشحنا لها نجيب الارمنازي ، وكان الآخرون يرشحون محسن البرازي ، فرفض اسعد هارون ان يدخل في مثل هذا البحث ما دمنا ، انا ورفيقاي دليقان وحمادة ، غير حاضرين .

وبينما انا في الفندق انتظر عودة اسعد هارون من حفلة مردم بك ، وما يحمل من اخبارها ، اذا بالسيد العمري يدخل عليّ وفي وجهه امارات الغضب ، ثم يأخذ يلومني على ان يصل بي الامر فارفض دعوة جميل مردم بك ...

فقلت : — عجباً لادارة هذا الفندق ، كيف تخصني بهذا التحامل ، فتوصل دعوات جميل مردم الى عشرة من نزلاء الفندق وتهمل دعوتي وحدها .. ولكن ما ذنب ادارة الفندق ؟ ... لقد ادركت الان معنى مجيئك ولومك . لقد اردتم استدراك عملكم باهمال دعوتي الى الحفلة ، حين لم تستطيعوا التفاهم مع اسعد هارون .

واصررت على عدم قبول الدعوة بعد فوات الاوان ، وانفرط عقد المجتمعين يومئذ دون ان تنجح « مناورة » مردم بك ! .

. . . .

وبقيت الجمعية السورية العربية ، بعد هذا ، مشلولة لا تؤدي عملاً ، ودخل في خلافاتنا بعض اقطاب السياسة ممن كانوا في ظاهر الامر متفقين في الاهداف القومية العربية ، مختلفين في مطامحهم . فقد كان الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، رحمه الله ، يكتب لنا من مصر يشجعنا في تفكيرنا ، بينما يكتب الامير شكيب ارسلان ، رحمه الله ، من لوزان الى خصومنا يشجعهم في تفكيرهم وخصومتهم .

وظلت الحال هكذا ، حتى اضطررنا ، اسعد هارون وانا ، للعودة الى الوطن ذات صيف ، وفي غيابنا انتخبت الجمعية هيئتها الجديدة ، وانتخبت محسن البرازي رئيساً ، ولم يحضر الانتخاب مرشحنا الارمنازي

ومناصروه ، وانقطعنا نحن فيما بعد عن نشاط الجمعية ومسايرة خطواتها حتى انقضى امرها .

مغامرات .. واعترافات !

حرية باريس

وأعترف الان اننا لم نكن في باريس من « القديسين » ولم تكن الدروس ولا السياسة الوطنية ، كل همنا في باريس ، فقد كانت لنا « مغامرات » وكانت لنا ليالٍ فيها الليالي البيض وفيها الليالي الحمر ، وفيها الليالي السود ... السود ...

والشاب العربي حين يجد نفسه في باريس طليقاً حراً ليس ينجيه من العثرات والغوايات و « المغامرات » سوى ارادة فولاذية قلما تتاح لاحد ، ذلك بان الشاب العربي يعيش في اوطانه مكبوتاً مغلولاً محروماً ، ثم لا يلبث ان يصل باريس فيشعر انه متحرر فجأة من تلك القيود الاجتماعية التي كانت تقيد جميع تصرفاته ، وتضيق الخناق عليه تضييقاً شديداً .

ومن هنا تكون التجربة عنيفة شديدة الاثر في نفس الشاب العربي ، وقد تكون من عنفها وجموحها بحيث تغير وجهته في الحياة ، وتفسد عليه مواهبه وامكانياته .

كان ذلك في زماننا ، وقد تغيرت الحال اليوم كثيراً عندنا ، واصبح الشاب يجد في هذه الاوطان العربية بعض الفرح لحاجاته النفسية ، فلا يضنيه الكبت ، الحرمان النفسي ، كثيراً كما كان يضنينا يومذاك .

ومهما يكن ، فاني قد « غامرت » مع « المغامرين » من اخواني في ليالي باريس ، وحدثت لي حوادث عديدة ، لعل اطرفها حادثتان اثنتان تستحقان التسجيل في هذه المذكرات تفكهة للقارىء المغامر ، وايناساً للنفس ببعض الذكرى ...

لا يبدأ العهد بالليالي الحسان في باريس ، قبل ان تُستكمل له العدة الواجبة ، وعدته الاولى حذق الرقص واتقانه ، وهكـذا كان امري ، فقد تعلمت الرقص اولاً ، ثم حذقته حذقاً رضيت به نفسي ، ثم بدأت عهدي بباريس الساهرة التي تعرف كيف تستمتع استمتاعـها بالسهر في ملاهيها الانيقة الجميلة المغرية .

واتفق لي ذات يوم ، وكنا في آخر الشهر وايدينا صفر من المال والافلاس تنفخ ريحه في الجيوب ، ان ذهبت مـع صديق لي ، الياس النحاس من دمشق ، الى ملهى « اولمبيا » في حي « البولفار » ودخلنا قسم الكباريه وجلسنا على مقربة من ساحة الرقص . ولم تكن القاعـة ممتلئة بالرواد ، فلمحنا في آخر القاعة سيـدة على غاية من الجمال تجلس وحدها وهي تقرأ في مجـلة ، لا تلتفت الى احـد . فاثارت فضولنا واهتمامنا ، واخذنا نتساءل : ترى ما الذي جاء بهذه السيدة الى هـذا المكان ؟ . أتقصد الى الرقص ... اذن ما بالها تجلس بعيدة عن ساحة الرقص ؟ ام اتراهـا قصـدت الاستمتـاع بمنظر عجيب مـن المنـاظر ، وليس في هـذا المكان اي منظر يلفت النظر غـير مشاهد الرقص ؟

وانتهينا من طول التساؤل الى رأي ، هو ان السيدة على موعـد تنتظر فيه صاحبها .. ولكن طال الانتظار والسيدة ما تزال وحدها ، وما تزال في عزلة مع نفسها لا يثير اهتمامها في القاعة شيء ، ولا يحرك نظرها انسان .

وتحفز الفضول في انفسنا ، ونفد الصبر .. وجمال تلك السيدة يصرخ فينا بألوانه الملتهبة – فكيف نصنع ؟ !

هممت اكثر من مرة ان انهض فأقصد اليهـا وادعوهـا للرقص ، ثم

يردني عن ذلك خوفي ان ترفض دعوتي ، فأخجل امام العيون ، ولكني انتظرت حتى تعالت الموسيقى ونهض الراقصون والراقصات من هنا وهناك ، واختلط الحابل بالنابل ، فتشجعت وتقدمت اليها بوقار واحترام ادعوها الى رقصة « تانغو » ، فرفعت رأسها الى بكبرياء ، ثم نهضت بتثاقل ، حتى اشعرتني بالخجل كأنني جئتها متطفلاً ولكنها – على كل حال – اجابت دعوتي ورقصنا معاً ، فاذا هي ترقص بخفة نادرة المثال ، وانقضت الرقصة دون ان اقول لها كلمة واحدة من فرط شعوري بالتطفل ، غير اني اعتذرت اليها قبيل انتهاء الرقصة آسفاً لازعاجها . فقالت بكثير من الرصانة :

– لا بأس . لقد اعجبتني ، وسأرى موضعك حتى اذا راقني ان ارقص ثانية اشرت اليك .

وصحبت السيدة الى مجلسها ، ثم ودعتها بانحناءة وانا ما ازال خجلاً من تصرفي أنوفاً من ان اضع نفسي موضع المرأة انتظر ان تدعوني هي ، بدل ان اكون انا الداعي ، كما يجري العرف .

وعدت الى صديقي اقص عليه امري مع السيدة ، وكان هو ايضاً يرغب في ان يدعوها الى رقصة معه ، فلما رآها على هذه الخفة العجيبة ، وهي ترقص معي ، اعرض عن رغبته خشية ان لا يستطيع مجاراتها بالبراعة والرشاقة وخفة التنقل والدوران .

ولكن امر السيدة ، ما يزال لغزاً غامضاً عندنا ، ولا بد ان نحل « اسرار اللغز » ...

هكذا استولى علينا « هوس » يلح علينا لنعرف من تكون هذه السيدة ؟ وما جاء بها الى المرقص وهي – كما نرى – في عزلة عميقة عن الراقصين ؟

وزاد في الحاح الفضول علينا ، اننا رأينا نادل المرقص يتقدم اليها عدة مرات ، فيسألها عما تريد ، فتصرفه كل مرة باشارة من يدها دون

ان تلتفت اليه ، وهي غارقة في اكداس هذه المجلات عــلى مائدتها ، كأنّ الدنيا الصاخبة التي حولها لا تعنيها بشيء .

وكان النادل « مفتاح السر » فقد دعوناه اليـنـا نسأله عن امرها ، فدهش من سؤالنا ، وظن اننا نتجاهل امراً نعرفه كثيراً ، ثم قال :

ـ هذه سوزت .

قلنا : ومن تكون « سوزت » ؟

فازداد عجبه ، وظنّ اننا نسخر منه .

ـ هذه نجمة « الاولمبيا » .

قالها كلمة عابرة ، وانصرف ، كأنّ مجرد هذه الكلمة يكفي تعريفاً بها وتفصيلاً ، ولكن كلمته العابرة لم تخرجنا الا قليـلاً من سرداب « اللغز » الغامض ...

ودارت حلقة الرقص ، فتطلعت اليها ، فأشارت بالموافقة ، فرقصنا معاً ، وتكررت رقصاتنا في هـذه السهرة ، على هذا الاسلوب : تشير هي من بعيد ، فأذهب اليها كمن يدعوهـا للرقص ، فنرقص ، ونعود فرادى .

كانت غبطتي شديدة لهذه المصادفـة التي أتاحت لي ان اراقص نجمـة « الاولمبيا » دون ان يصاب « جيبي » بنكبة ... بل لقـد كنت فخوراً بأن نجمة « الاولمبيا » لم تراقص غيري ليلتئذ قط ... وكان ذلك مصدر فخر ومصدر اعتزاز لفتى مثلي من فتيان الشرق ، كما كنا نفهم الفخر والاعتزاز في مثل تلك المرحلة من العمر ، وفي مثل تلك « العقلية » التي كانت تسود كثيراً فتياتنا وشبابنا .

وبلغت الساعة الثانية والنصف ، بعد منتصف الليل ، وكنت قـد أشبعت كبريائي ، وملكت « كنزاً » من الحديث عن سهرتي الى الرفاق والاصحاب ، سوف يندفق عليهم اياماً طوالاً دون نفاد ، وقررت ان اراقصها الرقصة الاخيرة ، وهيأت عبارة رقيقة في ذهني اقولها ، فلما صرنا

معاً في حلقة الرقص ، استأذنتها بالانصراف ، وقلت :
- سعيد أنا ، بهذه المصادفة ارجو ان تسمح ظروف اخرى باللقاء .
فقالت :
- ... أنا أيضاً خارجة الان من الملهى ، ولنذهب معاً .
فأحرجني جداً جوابها ، وخشيت ان يضطرني الخروج معها الى دفع اجرة السيارة ، وكنت لا أملك ما يكفي ، ورأيت ان اتخلص فقلت :
- ولكن لي رفيق ينتظرني يجب ان أخرج معه .
فقالت : لا بأس ، اوصلك ، وصديقك الى حيث تريدان .
فعلمت حينئذ ان لها سيارة ، واطمأننت بعد الخوف والحذر ، بل ازددت غبطة ، وخرجنا نحن الثلاثة معاً واذا على باب الملهى سيارة فارهة تنتظر « نجمة الاولمبيا » الجميلة ، فامتطيناها على اسم الليل ، حتى وَصَلَتْ بصاحبي الى منزله ، ثم وصلت بي الى منزلي ، فلما اردت النزول شكرتها واعربت لها عن غبطتي وحظ المصادفة ، فطلبت الي اسمي وعنواني ، فدفعت اليها بطاقتي ، ومضت بها السيارة وانا واقف على الرصيف حتى توارت عن عيني ، فأويت الى سريري وانا في نشوة من السحر والعجب ، وحسن الزمن .

... وكانت ليلة !

ومضى اسبوع . واذا بدعوة تصلني من « سوزت » الى مرقص « البوف سير لا توا » ، مع رسالة تطلب فيها ان اوافيها الى حيث تسكن في شارع « ماربوف نمرو ١٨ » لنذهب معاً من هناك الى المرقص ، وتشترط علي ان البس البذلة الرسمية « السموكن » ..
مفاجأتان .. كان لهما في نفسي اثران متناقضان ... فقد اثارت الدعوة بي سروراً واغتباطاً ، ولكن هناك امراً آخر اثار بي الحيرة والتردد ، ذلك هو المال .. سهرة اقضيها مع « نجمة الاولمبيا » انفق فيها راتبي

الشهري كله ، وابقى سائر ايام الشهر في حرمان.

ما اصنع ؟ أأرفض الدعوة ؟ ثمّ كيف ارفضها والرفض خسارة فادحة .

فكرت طويلاً ثم عرضت الامر على صديقي الياس النحاس ، وكان بعض الاصدقاء يرى ان اوثّق علاقاتي بهذه المرأة لنستفيد جميعاً من سيارتها في باريس .

وانفرجت الازمة اخيراً .. فقد علمنا ان الحفلة التي دعتني اليها ، لا تكلف المدعوين شيئاً ، فهي حفلة للفنانات يعرضن فيها الجديد من الرقصات الموسمية المبتكرة ، لانتقاء الصالح ، واشاعته في مراقص باريس .

فلما اطمأننت بادرت فلبست « السموكن » وذهبت الى منزلها ، واذا هي في انتظاري ، واذا هو منزل انيق فاخر الاثاث والرياش . فلما استقبلتني في غرفة الاستقبال ، بسطت يدها البضة الرخصة لاقبلها ، فقبلت النعومة السحرية في يدها ، ثم انطلقنا بسيارتها الى المرقص ، ونعمت ليلتئذ بأطيب السهر بين باقة جميلة عطرة من الفنانات والفنانين . وفي خلال الحفلة ارادت ان نذهب معاً الى « الاولمبيا » فذهبنا ورقصت هناك بعض الرقصات ، ثم عدنا الى الحفلة نسهر حتى الساعة الثالثة والنصف صباحاً . ونخرج معاً من المرقص بسيارتها ، حتى انتهينا الى منزلها ، وانا اظن ان الامر ينتهي بنا عند هذا الحد ، تذهب هي الى دارها ، وتبعث بي في سيارتها الى منزلي .

ولكن « نجمة الاولمبيا » ما كادت تراني انزل من السيارة لاودعها حتى اغلقت باب السيارة خلفي وامرت السائق ان يذهب ، فعلمت انها تريدني ان اكون ضيفها بقية الليل .

وقضينا بقية الليل ، ثم جزءاً طويلاً عريضاً من النهار ، وما شاءت ان اترك منزلها الا بعد ان تناولنا الغداء معاً على مائدتها ، ثم انصرفت وبيني وبينها اسباب صداقة شهية طيبة .

احسست منذ تلك الليلة نحو هذه المرأة ، بشعور اشبه شيء بالحب ، واحسست انها تبادلني العاطفة . ولو لم تكن راقصة تعرض قلبها كل يوم مرة في فتحة المراقص وحلقات التمتع لتجرأت فقلت : انها تحبني حباً صادقـــاً .

غير ان هذا « الحب » الجديد ، اخذ يضايقني ، بما غيّر وبدل في نظام حياتي المدرسية ، وبما اوجبه عليّ من محالفة السهر الدائم ، ومجانبة العمل والنشاط ، عدا ان هذه الغانية احاطتني بنوع من الغيرة النسائية عجيب ، حتى كادت لو استطاعت ان تمنع عني الهواء .

ولكن ، رغم هذا الحفاظ ورغم هذا الشغف الشديد تبديـــه لي ، ورغم ان هذه العلاقة بيني وبينها عاشت مجنونة نحو اربعـــة اشهر ، لم اجد من اعماق نفسي ميلاً نحوها يعادل ميلها حباً وشغفاً وغيرة . بل لقد شعرت في اكثر ايامي معها ، انني اشبه بالسجين يعيش في باريس عاصمة الحرية ، . كانت هذه المرأة مالكة امري وراصدة طريقي ، فما اقصد مكاناً ألهو به حتى اراها في وجهي تنتظر لحظة خروجي ، ولا استقبل سيدة في منزلي حتى تكون على علم بالامر ، فاذا هي تتصل بالسيـــدة تحول بشدة وجرأة بينها وبيني .

... واشتقت الى الخلاص والانفلات من هذا الحب او هذا السجن المفروض عليّ فرضاً من غير ذنب ... او بذنب كبير تنهدّ امامه في الحياة ابواب السجون .

كيف الخلاص ؟

نعم ، كيف الخلاص ؟

... ولكن الامر يسير ، فقد عزمت والعزم سيف قاطع .. وها هي تجلس الى جانبي ذات يوم ، فأصارحها بجلية امري ، وارسم امام عينيها حقيقة موقفي ، واسرد على مسمعها دون تردد كل الاسباب التي تدعو

الى قطع ما اتصل بيننا .

فكانت مفاجأة كادت تصعق لها ، ثم اندفعت تصف لي مدى حبها ، وعمق الشغف في قلبها ، وتصوّر لي انها لن تقوى على العيش بعد ، اذا انقطع ما بيننا ، وانها عازمة على التضحية باعز ما بيدها في سبيل الاحتفاظ بي ، وانها راضية ان تنصرف عن حياتها الحاضرة بكل الوانها لتعيش ابسط العيش معي ، وانها قانعة من اللقاء بي مرة واحدة في الاسبوع لانصرف الى دروسي ، ويكفيها ان اعاملها معاملة اية فتاة اخرج معها في نزهة للتسلية .

... وافاضت تعرض مختلف الوجوه والحلول ، ولكن عزمي الصارم كان يدعوني الى القطيعة من غير تأخر .

وتواريت عنها ، واقمت سراً في فندق لا يعرف مقري فيه احد من اخواني سوى صديقي الدكتور انسطاس شاهين ، وقد كان هذا الصديق اشد الاخوان نصحاً لي بترك هذه الغانية ، حتى قال لي يوماً :

— « رضا .. انا اخشى عليك اذا دام امرك مع هذه المرأة ، ان تقتل » .

وقد نجحت الوسيلة وقتاً ، ولكن اتفق ان كنت اتنزه مع صديقي الدكتور شاهين ، واذا بـ « سوزت » نفسها تمر في سيارة فتراني ، واذا بها تقف السيارة ، وتنزل منها ، ثم تتقدم اليّ بخطوات عنيفة وهي في هياج شديد تطلب ان اصحبها في سيارتها ، فلم اجد سبيلاً للخلاص ، وصحبتها ، وحاول الصديق ان يكون معنا خشية منه ان تقع لي كارثة ، ولكنها ابت عليه بعنف شديد .... فوعدت صديقي ان اتجنب كل ما يمكن ان يؤدي الى كارثة .

امام الموت !

وانطلقت بنا السيارة الى منزلها ، دون ان ينطق احد منا بكلمة ، فلما دخلنا المنزل انفجرت كالبركان ، واخذت تنزع مزقاً ملابسها الخارجية وتقذف

بها من كل جانب ، ثم امسكت شعرها بكلتا يديها تشده بقسوة وجنون ، وهي تشهق بالبكاء ثم انتفضت فجأة كمن صحا من غفلة واسرعت الى درج مكتبها تفتحه ، واخرجت منه مسدساً ، ونظرت الي ، وقالت :

ـ انت الان بين اثنتين : اما ان تتزوجني ، واما ، ان اقتلك واقتل نفسي . فتمالكت شعوري امام هذا الموقف المفاجيء وابتسمت ، ثم خطوت اليها وقلت :

ـ سوزت ! . ليس هذا حباً ، الحب لا يهدد بالقتل ، الحب سلاحه الاوحد هذا القلب . فاجلسي نتكلم .

ومددت يدي على مهل الى يدها ، حتى استطعت ان أنتزع منها المسدس بلطف واحتراس ، وقد تركته هي دون امتناع ، ووضعت المسدس في جيب سروالي ، واخذت ابادلها الحديث هادئاً ، محاولاً اقناعها ان تتركني اتابع دروسي محتفظاً بحبها اميناً على عهدها ، وان تدعني اوفق بين ظروفي الدراسية والعائلية وبين عواطفي نحوها ، فعادت تعرض علي الواناً من التضحية هي مستعدة لها اذا اتخذتها لي زوجاً .

فهدأت نفسها قليلاً ، ثم سألتني عن موضع اقامتي ، فأعلمتها ، فلم تصدق حتى نهضت الى التلفون واتصلت بالفندق تستخبره . وعادت بيننا الصلة بعد هذا اللقاء ، ولكني استطعت هذه المرة ان اباعد بين مواعيد اللقاء ، وان احبك لها الحيل أشكالاً ، حتى دخل في روعها انني خائف حقاً من اهلي ، وان مصيري الى فاجعة ساعةَ يعلم اهلي انني منحرف قيد شعرة عن خطة الطالب في باريس .

« شرقي » صغير !

وانقضى شهران ، واذا بسوزت تفاجئني فتقول :

ـ رضا ! هنا ... هنا .... « شرقي » صغير !

وفهمت ان « سوزت » حامل ، وان ذلك يثير فيها الغبطة

والسرور ، وانها ترجو ان تلد صبياً تسميه « رضا » .

وحاولت اقناعها ، ان لا حاجة بها الى ولد . فقالت : انها على يقين بانني لست لها ، فليكن لديها ، اذن ، ولد يحمل اسمي تذكاراً عزيزاً .

حينئذٍ لم أجد بُداً من افهامها أن هذا الولد قد لا يكون مني ، وانها اتبعت هذه الخطة لاكراهي على الاستمرار في صداقتها .

رسائل ... من صيدا !

واخذت منذ ذلك اليوم ، اشعر بأن حبها يتحول الى صداقة عميقة هادئة . واتفق اثناء هذا الدور ، ان كان صديقي علي برمده ، وهو من حلب ، يريد العودة الى الوطن ، فرجوته ان يكون لي عوناً على الخلاص من « سوزت » ، فأعانني ونجحت الحيلة :

لقد سافر علي برمده الى الوطن ، فلما وصل مارسيليا ، بعث الى « سوزت » ببطاقة تحمل اسمي ، وقد كتب عليها انني اضطررت للسفر الى لبنان ، اضطراراً ، اجابةً لدعوة اهلي المستعجلة . واتفق يومئذ ان كانت سوزت خارج باريس في مسقط رأسها « شاتودان » ، فلما وصلتها البطاقة صدقت الامر ، ثم بعث اليها الصديق علي برمده ، بطاقة ثانية من الاسكندرية وثالثة من بيروت ، فازدادت يقيناً بانني قد سافرت دون ما ريب .

ولكي تكون الحيلة محكمة ، غادرت فندقي الى بلدة « توجان سيرمارن » أستعد لامتحان السنة الاولى بمعهد الحقوق ، في دورة تشرين . ثم كتبت الى اهلي اقص عليهم حكايتي مع « سوزت » بصراحة وتفصيل ، وكتبت لصديقي الاستاذ امين خضر ، وكان يومئذ مدير « مصرف جنبلاط وخضر » في صيدا ، ورجوته ان يساعدني في إحكام الحيلة مع « سوزت » وذلك بأن اكتب لها الرسائل ثم ابعث بها اليه في صيدا فيبعثها اليها من صيدا الى باريس ، لكي تظل « سوزت » على يقين

بأنني في ارض لبنان .

وكان لي ما اردت ، واستمرت رسائلي الى « سوزت » تذهب من باريس الى صيدا ثم يرسلها الصديق خضر الى « سوزت » في باريس ، فتجيب عنها هي الى صيدا ، وتعود اجوبتها من صيدا اليّ في باريس ، ولا شك ان الاستاذ امين خضر كان يجد متعة فريدة في ان يقرأ هذه الرسائل بين متحابّين ، ويجد في هذه الرسائل الواناً مختلفة من العواطف المتشابكة ، المتهاربة ، بين ذكاء الحيلة ووفاء المودة .

وانقضت شهور ، حتى وصلتها رسالة مني تقول لها ان والديّ منعاني من اتمام دراستي في باريس ، وانني اصبحت موظفاً في « بنك جنبلاط – خضر » ، وان هذه الرسالة هي الوداع الاخير .

ووصلتها الرسالة ، فاذا هي الصاعقة على نفسها . وتأتي صديقي الدكتور انسطاس شاهين ، وكان ما يزال في باريس ، منتحبة حزينة شاكية ، فيحسن الصديق مؤاساتها ، ويخشى ان تلقاني عنده مصادفة ، فينبئها انني ذهبت الى لندن لاتمام دراستي هناك ، فأقنعت نفسها ان الامر قد انقطع بيننا الى الابد ، وارسلت اليّ آخر رسالة ووضعت فيها صورتها وصورة الانثى التي وضعتها وسمتها « رضا » ، وانتهت هنا ، المأساة .

مع « بوليت » و« بوليت »!

اخفقت في امتحان دورة تشرين ، ولم ينفعني الاستعداد في اسابيع معدودة . وعزمت ان اكون الطالب النشيط ، وان لا احفل بغير الدرس . وبدأت الدروس في المعهد ، وانقضى على ذلك اسبوع ، وفي صباح يوم وانا في القطار الكهربائي الى المعهد جلست سيدة الى جانبي ، واخذت تقرأ في كتاب « الشرع المدني » المقرر للسنة الاولى في الحقوق ، فالتفت اليها اسألها : أهي طالبة حقوق ؟ فقالت : نعم .

فقلت : وانا كذلك ، واني لأعيد السنة الاولى ، بعد اخفاق في امتحان الدورتين .

وانعطفت الطالبة نحوي تسألني عن الاساتذة ، وممن هو بينهم اكثر ايضاحاً في شرحه ، وتسألني عن مؤلفي كتب الحقوق للدراسة ، واي هذه الكتب اكثر فائدة وتبسيطاً .

وظلت رفيقتي الطالبة تسألني عن هذه الشؤون ، حتى وصلنا احدى المحطات ، فنزلت مودعة ، ومشت بخطوات رشيقة الى المعهد .

وكانت هذه المصادفة ، فاتحة تعارف ، فصرنا نلتقي احياناً في المعهد او الترامواي ، فنتبادل التحية . ودخلت المعهد يوماً فالتقتني سيدة ، وطلبت الي ان احتفظ لها في قاعة الدرس بمقعد ، حتى لا تضطر ان تقف طوال مدة الدرس اذا تأخرت عن الموعد قليلاً ، لان عدد الطلاب كان يربي على عدد المقاعد .

واحتفظت للسيدة « بوليت ريكو » بمقعد حتى عادت فجلست الى جانبي ، واستمعنا معاً الى الدرس ، فلما انتهى خرجنا معاً كذلك نمشي في الرواق ، وفجأة التقتنا السيدة الطالبة التي عرفتها في الترامواي ، فتقدمت الينا وسلمت على « بوليت ريكو » فأرادت « بوليت » ان تقدمني اليها ، فقلنا لها : « متعارفان من قبل » وظهر لي ساعتئذ ان رفيقتنا الثانية تدعى « بوليت امسلان »

وجاء موعد الدرس الثاني فدخلنا اليه نحن الثلاثة ، وجلسنا جانب بعض ، فلما خرجنا اقترحت « بوليت ريكو » ان نكون على اتفاق في ان من يحضر منا قبل الآخرين ، يحتجز لرفيقيه مقعديهما ، فوافقنا على الاقتراح . ومضت بنا الحال على هذا المنوال اكثر من شهر ، وكنت انا مغتبطاً بذلك لعاملين اثنين : اولهما انني كنت اضمن مقعدي في القاعة دون اضطرار الى الوقوف ، وثانيهما انني اشبعت كبريائي برفقتي لفتاتين من الطالبات ، على قلة عددهن بمعهد الحقوق ، وعلى أن غيري من

الطلاب كان يحلم ان ينال منهن ولو تحية .

اصطدام ...

كنت اسير ذات يوم في شارع المدارس بباريس ، واذا دراجة بخارية تصدمني ، فأقع مغشياً علي ، وانقل الى المستشفى ، ويأمرني الطبيب ان لا ابرح فراشي اسبوعاً كاملاً ، وان لم أصب باي اثر في جسدي . وفي يومي الثالث قرع باب غرفتي ، واذا برفيقتيّ : بوليت ريكو ، وبوليت امسلان ، تدخلان عليّ مع ثلاثة من رفاقي الفرنسيين ، وتقول لي الاولى : ان بوليت امسلان اقلقتنا وهي تلح علينا ان نبحث عنك وقد تواريت ثلاثة ايام لا نعرف شيئاً من امرك ....

وذهب الرفاق ، وخلوت الى نفسي اسائلها : ترى ، ما الذي يدفع بوليت امسلان وحدها ان تقلق علي ، وان تلح على رفاقها هذا الالحاح في ان يفتقدوني ؟

وجاءني الجواب سريعاً ، فقد اخذت بوليت امسلان تسأل عن حالي بالهاتف كل صباح ، وتسألني عما احتاج اليه من امر أو معونة ، حتى خرجت معافى ، واستأنفت الدراسة .

وكانت غبطة !

وصرت ، منذ ذاك ، أحس في نفسي بغبطة كلما لقيت « بوليت امسلان » لا احسها حين القى صاحبتها بوليت ريكو . وتضاعف هذا الاحساس رويداً رويداً . وكانت بوليت امسلان فتاة رشيقة اليد في الكتابة تتابع كلمات الاستاذ بدقة بالغة ، وتختزل ما تسمعه بسرعة وامانة ، فصرت بفضل هذه الموهبة ، وبفضل هذا الاحساس الذي اجده لها في نفسي ، اعتمد عليها حين اضطر للتغيب عن بعض الدروس ، فتهيء لي الدرس باتقان ونظام ، ثم صرت اتعمد الغياب عن الدروس اعتماداً على

بوليت ، وكدت اعتاد ذلك ، ولكن بوليت نفسها ادركت امري ، وسارعت الى تداركه فوراً .

... ثم كانت نصيحة !

فقد جلست اليّ مرة ، واخذت تنصحني ، وتذكرني بانني أُعيدُ السنة الاولى ، وان اخفاقي في امتحان العام السابق كان من آثار الاهمال ، وانه اذا كان لي قبلًا من اعذار لدى والدي ، فليست بمقبولة في العام الدراسي الجديد ، وانه ينبغي ان اواظب على حضور الدروس بنفسي دون الاعتماد الى سماعها وفهمها واختزالها ، هي . ثم قالت انها لن تعيرني دفاترها بعد ، اذا غبت عن الدرس وإنْ مرة واحدة .

فسألتها مازحاً ، او متظاهراً بالمزاح : ترى ألأنت تنصحينني رغبة في نجاحي ، ام رغبة في اللقاء دون انقطاع ؟

... فاحمرّ وجه بوليت ، وقالت : « ما كنت اظنك عقيم التفكير ... »

فخجلت وعزمت على ان اعمل بنصيحتها مهما يكن القصد من نصحي ، واخذت أدأب على حضور الدروس دون انقطاع .

... وكان ... اخيراً ... حب !

وكان صباح ... ودخلت قاعة الدرس ، واحتجزت مقعدين لرفيقتيّ كلتيهما كالعادة . وبعد قليل حضرت بوليت ريكو وحدها ، فأحسست حينذاك ان في نفسي انتظاراً ، وان هذا الانتظار يثير قلقاً في ذاتي . وانصرفت عن الدرس من حيث لا اشعر ، وتعلقتْ عيناي بمدخل القاعة . ومنذ تلك الدقيقة ، منذ تلك اللحظة ، عرفت ان شيئاً في نفسي ينتظر بوليت امسلان ، وان غيابها هو الذي يحدث الانتظار والقلق ، وهـو الذي يحدث ، أيضاً ، الانصراف عن الدرس ، حتى انتهاء الدرس ....

وخرجت من القاعة وانا سائر في شوق وغربة ، واذا بصديقي الاستاذ

كاظم الداغستاني من طلبة دمشق يتقدم ، فطلبت اليه بلهفة ان يرافقني بالسيارة ، فدهش لمظهري واخذ يسألني عما بي ، فثرت بـــه وقلت : سأقص عليك الامر في الطريق .

وركبنا السيارة الى بيت بوليت امسلان .

وفي الطريق قصصت عـــلى صديقي كل امري ، فقال :

— اذن ، انت تحبها .

قلت : لست اعرف انني احبها .. لست احبها ....

ولكن الصديق ضحك من جوابي ، وقال :

« ان لم يكن هذا حباً ، فكيف يكون الحب ؟ ! »

غير ممكن ...

ووصلنا الى بيت « بوليت » فطرقنا الباب ، وفتحت لنا الخادم ، فقلت لها : اين بوليت ؟ نحن رفاقها في المعهد وقد اخذت دفاترنا مع حاجتنا اليها ؟

فقالت : لقد ذهبت بوليت الى بيت جدها « شارتر » وهو على نحو مئة كيلو متر ، لان جدتها مريضة .

. . .

فلما علمت سبب غيابها ، اطمأننت كل الاطمئنـــان ، ورجعت الى نفسي اسألها مرة ثانية : ما بالي احس ان هـــذه الفتاة في ذاتي صورة تختلف عن سواها من الفتيات اللواتي عرفتهن وأعرفهن ؟

ثم تحوّل السؤال ، فقلت لنفسي : او تراه حبـــاً ؟ او تراه ينتهي بنا الى الزواج ؟!

كلا ... ذلك غير ممكن ... ثم قلت : ولكن ، ايمكن ان تكون لي خليلة ؟ فانتفضت النفس وثارت : « كلا ، وهذا ايضاً غير ممكن ... » فما دام الامر كذلك ، فما بالي اتعلق هذه الفتاة ؟

وانقضت ايام ثلاثة تابعت الدروس في اثنائها باهتمام وجـد ، وعنيت

كل العناية بأن اختزل الدروس على طريقة بوليت امسلان ، لكي اريها عملي حين تعود ، معتزاً بانني استطيع ان اوفيها بعض خدمتها .

ولكن هذا الجد والاهتمام بالدروس ، لم يصرفاني عن التفكير بامر هذه العلاقة الجديدة التي اتصلت بيني وبين بوليت اتصالاً يقوى ويشتد يوماً فيوماً . .

. . . .

....وعادت بوليت من بيت جدتها ، فما كدت اراها في رواق المعهد ، حتى احسست انني اعود الى شيء كثير من الطمأنينة والاستقرار . واستعدتُ حالتي الطبيعية الى ان كان يوم – وليس بيننا وبين عيد الفصح الا يومان او ثلاثة ايام – واذا ببوليت تقدم لي بطاقة حفلة متخرجي مدرسة « فكتور دروي » وهي منهم ، وتطلب ان اشتري البطاقة مساعدة للمتخرجين .

شرط

...فاشتريت البطاقة ، ولكن مشترطاً ان لا ارقص مع غيرها ولا ترقص مع غيري . فابتسمت بوليت ، وقالت : لو لم اكن اقصد ذلك بالضبط لما عرضت عليك البطاقة .

وما ازال اذكر ، حتى هذه اللحظة ، ان جوابها بعث في نفسي شعوراً لذيذاً عميقاً لا حدود لعمقه ، وصرت ارقب موعد الحفلة ، بشوق ولهفة عجيبين ، حتى أني لم استطع الانتظار ، فذهبت الى الاحتفال قبل الموعد .

فلما وصلت وصلت المكان ، أجلتُ نظري في نواحيه ، فلم اجد بوليت فانتحيت احدى الزوايا ، والقيت ظهري الى الحائط ، وارسلت عينيّ الى المدخل ترمقان كل داخلة وداخل ، حتى ازف موعد الحفلة ، فاذا بها تطل وقد ارتدت ثوباً احمر والى جانبها والدتها وفتاة لم أر وجهها من قبل .

فتقدمت اليهن منحنياً بالتحية أمام الوالدة ، وانبأت بوليت انـه لم يمض على وصولي أكثر من خمس دقائق ، فقدمت لي رفيقتها فاذا هي ابنة خالتها ، « اوديت كوزن » .

لم يكن من حظي ان اجلس في الحفـــلة الى مائدة قرب بوليت ، ولكن ما كادت الموسيقى تبدأ العزف ، حتى تقدمت الى بوليت اريـد دعوتها للرقص ، وقبل ان اخطو اليها كانت هي تتحفز للاقاتي ، فاخذتها الى صدري ، واذا بقلبي يخفق خفقاناً سريعاً عميقاً ، فادركت انني اصبحت فعلاً فريسة حب جديدٍ .

مفاجأة ..!

ودارت حفلة الرقص ، ودرنا معهـا صامتين ، ورأيت لساني ينعقـد فلا يقوى على الكلام ، ولكنها حلت العقدة فجأة ، إذ بادرتني تقول :

— انتم ، الشرقيين ، لكم عادات غريبة ...

— ماذا تعنين ؟

قالت : تلبسـون « المحبس » في حين تقصدون ان تلبسوا « الخاتم » .

. . . .

لقد عرفت قصد « بوليت » فقد كنت انا البس « محبس » الزواج يومئذ ، وقد ذكرت بعيداً في مطلع هذه المذكرات ان اهلي عقدوا قراني على ابنـة خالي قبيل سفري الى باريس . وظنت « بوليت » انني البس هذا « المحبس » للزينة كما يلبس « خاتم » الزينـة ، وارادت ان تطمئن الى هذا الظن دون غيره ، ولكني اسرعت فأنبأتها بواقع الامر ، فاذا بالنبأ يقع على نفسها مفاجأة ثقيلة ، فتنفلت مني انفلاتاً ، ثم تأخـذ تشهق ببكاء عال ، فاضطررت الى ان أنتحي بها عن الاعين .

وجلسنا على مقعد في الزاوية ، وانتظرتُ قليلاً حتى هدأت ثورة نفسها ، ثم قالت :

– مجرم انت ، ولكني ساسامحك ، شرط ان تختار احد امرين : اما ان تغادر باريس تكمل دراستك في معهد آخر ، او تدعني انا اغادرها الى معهد آخر .

فقلت لها : لست بمجرم يا بوليت ، فهل اخفيت عنك امراً ؟ وهل وعدتك بشيء ، وهل خدعتك إغراء وغشاً ؟ !

. . .

كنت اتكلم وانا شديد الانفعال ، ولكني كنت كثير التجلد .

ثم رفعت اليّ رأسها وقالت بلهجة هادئة :

– « سامحك الله ، يا رضا ، سابقى على حبك ما حييت ، وسأكون سعيدة بهذا الحب ، وسأضحي ما استطعت التضحية من اجل هذا الحب ، ولن أطلب منك على ذلك جزاء ولا شكوراً ، لن تراني ، بعد ، منذ هذه الليلة ، سأباحث والدتي بالامر بكل صراحة فاطلب منها ان تمكنني من اكمال دراستي خارج باريس ، ولا بد وأن تفهم معنى هذا فتجيبني اليه » .

قالت بوليت ذلك ، ونهضت لتغسل وجهها ، فأحسست بالألم يقبض على صدري ، ورأيت الدمع ينبجس فجأة من عيني ، وامسكت بيدها ، واخذت اقبلها :

– بوليت ! لن أدعك تضحين من أجلي اكثر مما اريد ان اضحي من اجلك ، فليس حبك لي بأشد من حبي لك . انني، منذ هذه الساعة ، لك لن يفرقني عنك سوى الموت .

وانتزعت « المحبس » من اصبعي ، والقيته في جيبي .

ثم قلت : سأتزوجك ، وسيكون زواجنا مصدر سعادة لي ولك .

بين العقل والعاطفة

...ثم جلسنا ، وعادت بوليت تبكي واذا بابنة خالتها ، تدخل علينا تقول : ان والدتها تسأل عنها . ووقفت دهشة لما يبدو عليها من مظاهر

الكآبة والبكاء ، فاعلمناها جلية الخبر .

...ودار الرقص ثانية ، فلم نرقص ، فقد انصرفت افكر في امري ، وانا موزع حينذاك ، بين عاملين اثنين : بين هذا الذي ملك عليّ كل عواطفي ، وبين واجبي نحو والدي ونحو ابنـــة خالي تلك التي قرنوا مصيرها بي وليس لها من الامر شيء ، ولا ذنب لهـــا حتى اجزيها بما امتحنت به في باريس .

وفيما انا مشرد الفكر بين هذين العاملين ، اذا بصديق لي من هؤلاء الفرنسيين الذين وهبهم الله خفة الروح وحلاوة النكتة ، يجلس الى جانبي ثم يأخذ باطراف الحديث معي حتى يكاد ينسيني ما كنت فيـه من همّ شديد ، وحتى انقضت السهرة بين مرح « جان كلفه » وملحه — وبين الرقص مع بوليت ، وكانت تتناوب على نفسي خلال هـــذا كله الخواطر والافكار مختلفة الالوان .

رقصت في الساعة الواحدة ، بعد منتصف الليل ، مع « بوليت » وقلت لها اثناء هذه الرقصة الاخيرة :

— « اطمئني ، يا بوليت . ثقي بي ... »

وتفرق السمّار ، وذهبت الى منزلي ، وقضيتها ليلة مضطربة قلقة لم اذق فيها النوم قط ، وخرجت في الصباح الباكر اسير الى معهد الحقوق راجلاً . فلما حان موعد الدرس ، لم تحضر بوليت فخيل الي انها قررت ترك المعهد في باريس ، لتبتعد عني ، ولكن ما كاد يبدأ الدرس حتى حضرت ، وجلست في المقعد الذي احتجزته لها جانبي ، ورأيت اسارير وجهها تنطق بالراحة والطمأنينة ورأيت لهجة حديثها تتبـــدّل ، فاذا هي لهجة الخطيبة لا الطالبة الرفيقة .

وجلسنا بعد الدرس ، في مقهى هناك ، فاخذت تسألني : هـل انا مرتاح الى القرار الذي قررته في الليل الماضي . واخذت اجيبهـا اجوبة مختلفة تدور كلها على امر واحد ، هو انني ارتاح لما ترتاح هي اليه .

وحان موعد الدرس الثاني في المعهد ، فنهضت بوليت ، وقالت ::
ادفع حساب القهوة .

وهذه اول مرة ترضى فيها بوليت ان ادفع عنها شيئاً ، فقد اصبحت تنظر اليّ نظرة بعيدة عن الكلفة والمجاملة .

وانقضى علي اسبوع ونيف ، وانا دائم التفكير بهذا الامر الجديد المفاجيء الذي تعرضت له من غير ان احسب له حساباً قط ، وبما افعله تجاه والدي واهلي بعد ان قررت موقفي .

ورأيت ، اخيراً ، ان اصارح اهلي بحقيقة الموقف دون مواربة . وكتبت رسالة صريحة الى والدي اطلعته فيها على التفاصيل وعلى ما قررته ، عازماً ان اواجه كل ما ينتج عن هذه المصارحة من نتائج ، ثم وضعت الرسالة في صندوق البريد ، وتنفست الصعداء شاعراً بانني القيت عن نفسي حملاً ثقيلاً كان يملأني هماً وغماً وحيرة وترددا .

طيب الحياة

ورأيتني ، بعد هذا ، اتذوق الدروس ، واستطيب الحياة ، واثابر على نشاطي الدراسي بهدوء وطمأنينة ، واشعر بانني اصبحت احمل تبعة الرجل الذي سيبني لنفسه بيتاً وحياة مستقلين ، وصرت اجد موقفي مع بوليت قد تغير ، فقد اصبحت لي خطيبة ، وليس يليق بي ان تنجح خطيبتي واخفق انا في الامتحان ، فواجبي ان انشط للدرس والجد والتفهم ، حتى اكون الى جانبها بين الناجحين ، وحتى لا تشعر هي بخيبة او انكسار اذا ما وجدت نفسها خيراً من رجلها الذي تركن اليه .

حدث كل ذلك في تفكيري وفي شعوري ، منذ اتخذت موقفي الحاسم مع بوليت ، وقررت الزواج بها قراراً جازماً .

هدوء ... فعاصفة !

ولكن ما زال في الموقف امر آخر ... هناك جواب والدي . ماذا سيكون في هذا الجواب المنتظر ؟ ماذا يحمل لي هذا الجواب من

رضا او غضب ، من طمأنينة او قلق ، من سرور او الم ؟

واخذت اقلب وجوه القضية ، واحسب لكل مفاجأة حساباً . واقدر ما انا صانع اذا لم يجئني الجواب : أأترك الدرس واذهب الى افريقيا مهاجراً ، او اسافر الى الهند الصينية الفرنسية مع الفرنسيين ؟ أأعدل عن قرار الزواج ببوليت واحل نفسي من العهد الذي ارتبطت به ؟

الف خيال وخيال ، الف وجه ووجه ، تواردت في ذهني وانا انتظر جواب والدي .

الجواب

واخيراً ... جاء الجواب ، فاذا هو يحسم الامر كله بخمسة اسطر لا تزيد ... انه يعد ولده قد اصيب بكارثة وان امره وامر ولده الى الله ... وان العلاقة بينه وبيني يجب ان اعدها منقطعة منذ الآن ...

لم يكن الجواب على هذا النحو مفاجأة لي ، فقد كنت اتوقع جواباً اشد منه واعنف ، فلم يداخلني اليأس ، ولكن كيف السبيل الى ارضاء الوالد ؟

مرّ في خاطري اول الامر ، ان اجعل احد اصدقاء والدي وسيطاً بينه وبيني ، ولكن ابت نفسي وعزمت على ان اقطع الرسائل عن جميع اهلي واصدقائي ومعارفي في لبنان . وانقضى شهران واضطررت ان ابيع كل ما لدي من كتب واشياء ذات قيمة ، لانفق على نفسي . وكرهت ان استدين من احد قليلاً او كثيراً فقد اعتدت ان اكون دائناً لرفاقي لا مديناً ، اذ كنت انفق بتدبير وتنظيم دون تقتير .

وضاقت الدنيا في عيني آخر الامر ، فانقطعت عن رفاقي ، وعن سهراتي ونزهاتي ، واختصرت حتى من طعامي ، فقصرت حاجتي للغذاء على وجبة واحدة في اليوم كله .

صديق كريم

ولم تزدني الحاجة والفاقة ، الا تصلباً وعناداً في موقفي ، حتى كان مساء فاذا بعض الرفاق يدخل عليّ غرفتي ، وفيهم صديقي اسعد هارون ، ثم يطلبون اليّ ان اذهب معهم الى سهرة يقصدونها ، فزعمت انني متعب لا استطيع السهر . ولما اعياهم اقناعي ، صرفهم اسعد هارون ، وبقي هو معي في الغرفة ، فالتفت الي قائلاً :

— رضا ! أنت محتاج للمال دون ريب !

فلم انكر عليه ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ودسّ يده في جيبه ، ثم اخرجها بستمائة فرنك كانت كل ما يملك يومئذ ، ودفعها اليّ ، فأبيت ان اقبلها ، فلما اصر ، قلت له : اذن ، فلنتقاسمها . فرفض ، وقال :

— انا اعرفك يا رضا .. ان نفسك تأبى عليك ان تستدين حتى من اقرب اصحابك ، وانت في حال تعتقد أنك لا تستطيع فيه وفاء دينك اذا رضيت الدين .

فلم يكن من حيلة الا ان اقبل عرض هذا الصديق الكريم ، ثم خرجنا معاً الى السهرة في محل « الكوليزيوم » فقضيناها سهرة طيبة امتدت حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

بعد القطيعة ...

ولما اصبح صباح تلك السهرة ، شعرت ان كبرياء نفسي تكاد تتحطم ، وسرعان ما رأيتني اتناول القلم واكتب الى والدي اصف له حالي ، وابالغ في الوصف ، لكي استثير عطفه وحنانه ، واهبط عن العنفوان ، وقوة التصبر والتمرد . وقلت لوالدي ان فصل الصيف قريب ، وانني أنتظر جوابه عشرين يوماً يأتيني فيها المال لانقاذي ، والا لجأت الى الانتحار ...

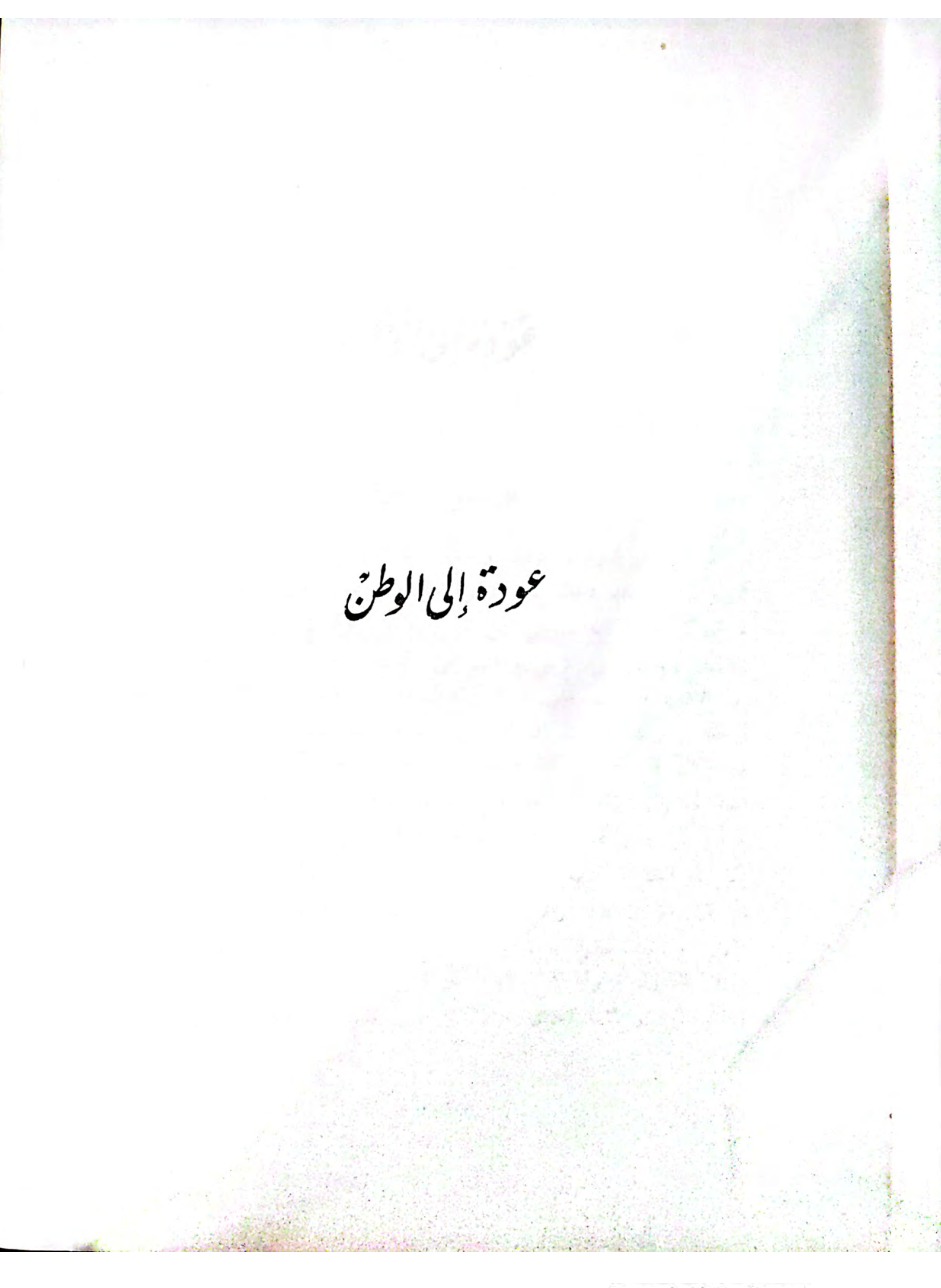
وشاءت المصادفة ان يصل كتابي الى صيدا ، في حين كان ابي غائباً

في بعض مزارعه بالجنوب ، فقرأه اخي وعلمت به والدتي - رحمها الله - فاخذت تعول وتصيح ، فهب اخي واستلف ما قدره ستة الاف فرنك وابرق بتحويلها فوراً الي بواسطة بنك سوريا ولبنان ، وتسلمت المبلغ بعد اثني عشر يوماً من ارسال الكتاب .

حينذاك هدأ بالي ، واخذت استعيد حالتي الطبيعية تدريجياً . وتلقيت بعد اسبوع كتاباً من والدي يقول لي فيه انه ينبغي ان لا اقدم على امر الزواج قبل ان يراني ، وانه سيرسل لي مبلغاً من المال اعود به الى لبنان ، فأجبته فوراً انني على استعداد للعودة الى الوطن .

ثم تقدمت الى الامتحان ، ونجحت ، فابرقت الى والدي ابلغه ذلك ، فما مضى غير اسبوعين حتى جاءتني بطاقة سفر (ذهاباً واياباً) الى بيروت من مكتب شركة (كوك) ، فاخذت اتأهب للسفر . وفي اثناء ذلك ، جاءني من والدي - يرحمه الله - كتاب فيه حوالة مالية لاجل السفر .

وكان صديقي اسعد هارون يريد ان يسافر ، ولكن ما كاد يتلقى بعض المال حتى انفقه في بعض المصايف ، وعاد الى باريس قبل يومين من سفري ، وقال انه لا بد له من السفر الى الوطن ، فاضطررنا ان نستدين ما نشتري به بطاقة سفره ولم يبق معنا - هو وانا - سوى خمسمئة فرنك تكفي لنفقات الباخرة والنزهة في الاسكندرية واجور نقلنا من مرسى الباخرة في بيروت الى بهو المرفأ .



عودة إلى الوطن



عَوْدَة إلى الوطن

•

على سطح الباخرة

لم نأت في اليومين الأول والثاني ، من سفرنا عملاً يذكر ، اما في اليوم الثالث فقد دخلنا بهو الباخرة حيث وجدنا بعض المسافرين يلعبون « البوكر » ، وكان صديقي ممن يحبون هذه اللعبة ولعاً بها ، فاقترب من اللاعبين وجلس على كرسي يراقبهم عن كثب ، واذا به بعد برهة يجذبني الى الزاوية ويطلب مني دراهم ليشترك معهم في معركة الحذاقة والاحتراف والحظ . وقد حاولت ان اقنعه بأن هذه اللعبة ليست لنا وبان ما لدينا من المال لا يكفي لجلسة واحدة من جلساتها ، ولكنه اصر واخذ ينفخ في بوق خطه فاذا هو ، كما صور نفسه طبعاً ، امهر من لعب « البوكر » وانه اذا جلس مع هؤلاء « السذج » يستطيع ان يستعيد كل ما انفقه في المصايف قبل سفرنا ، وحتى ثمن البطاقة الذي استدانه من الرفاق . فنزلت عند ارادته ونقدته مائة فرنك وجلست قربه اراقب سير اللعب ، وبعد مضي ساعة كان الحظ قد ضرب ضربته ، فأوقع بصديقي . تركنا الطاولة ، وانا لا املك أكثر من خمسة فرنكات ورحت اعاتب رفيقي تارة واشتمه اخرى ، ولكن ... طارت المائة فرنك وطارت ثروتنا .

وصيف الاسكندرية

... وصلنا الى الاسكندرية فغادرنا الباخرة لنتمشى على ارصفة المرفأ . وماذا نستطيع ان نفعل غير ذلك ونحن لا نملك اجرة السيارة اذا اردنا الانتقال من مكان الى مكان . ومما زاد الطين بلة ، انه عندما تركنا الباخرة لحق بنا فتى مصري طالباً الينا ان يرافقنا دليلاً اثناء تجوالنا في المدينة ، واخذ يعدد ما فيها من محلات واحياء تستحق الزيارة ، فلم نشأ ان نجيبه ، واكملنا سيرنا مسافة قصيرة وهو ما زال في اثرنا يردد محفوظاته : « عاوزين افرجيكم البلد ؟ انا عندي عيال ... انا عندي اطفال » فلم ار بداً من مصارحته باننا تلاميذ ، ونصحته بان يذهب الى الباخرة لعله يصطاد سائحاً غيرنا يرافقه . فلما ايقن ان لا فائدة من تزلفه واستعطافه ، وقف بوجهي وطلب مني دراهم مدعياً انه قضى برفقتنا مدة ساعتين يطوف بنا المدينة ، فثار ثائري ولم اتمالك نفسي فصفعته جزاء هذه الوقاحة في النصب والاحتيال . فاخذ يصيح باعلى صوته حتى جاء شرطي ، وقد تجمع علينا بعض المارة ، فابتدرت الامر وعرضت للشرطي ما حدث وكيف ادعى هذا الفتى الوقح انه رافقنا ساعتين والباخرة لم تكد تلقي بمرساتها بعد . فاراد الشرطي ان ينهي المشكل ، وطلب الي بكلمة ناعمة « يا خواجا معلهش اعطيه كم قرش تعريفة » . فما كان مني الا ان مددت يدي الى جيبي وانا اعرف اني لا املك سوى بعض الفرنكات الفرنسية ، فدفعتها للفتى « الدليل » ، صاحب الهمة ، فطلب المزيد ، ولكن الشرطي انتهره شاتماً فانصرف يعدو وانفض الجمع ... اما نحن فقد تابعنا سيرنا راجلين الى ان اخذ التعب منا مأخذه فعدنا ادراجنا الى الباخرة حيث تناولنا طعام الغداء ... واذ بصديقي تنفتح اسارير وجهه ويتطلع اليّ وكأنه حلم بانفراج الازمة فقال : « يا رضا .. ما رأيك بزيارة صديقنا الدكتور جوزيف أبي شعر ، وجوزيف أبي شعر هذا

وفيق لنا في باريس ، ونال شهادة طب الاسنــــان وافتتح عيادة له في الاسكندرية ، فلاقى رأي الزيارة استحساني وأثنيت على ذاكرة صديقي ولم امانع لسببين : اولهما والاهم منهما اننا سنحصل منه على دراهم نسدد بها ديوننا على ظهر الباخرة من قهوة وبخشيش للخدم، وثانيهما اننا نكون بهذه الزيارة العرضية قد ادينا واجباً نحو صديق قديم ، وكان هذا الصديق قريباً الى نفوسنا قرب الاخوة . واخذ صديقي اسعد يقلب اوراقه : « ها هو .. لقد وجدته » اجل لقد عثر على عنوان الدكتور ابي شعر . وسرنا على الاقدام ولا رأسمال لنا ولا آمال لنا سوى هذا العنوان ، فحملنـاه واخذنا نجري .. ونجري . ولم نجرأ ان نأخذ سيارة خشية ان لا نجده فنرتكب جريمة نصب تساوي اضعاف جريمة « الدليل » المصري . اخذنا نطوي الشوارع والممرات ونحن نسأل ، فذهبنا يميناً وشمالاً وقدّامـــاً وخلفـــاً حسب تعليمات الاشخاص الذين نسألهم ، ويظهر ان صديقنا الدكتور ، قد استأجر نظراً لحالته المادية ، عيادة في محلة نائية بعيدة عن وسط البلد ، فكان ان سرنا اكثر من ساعتين حتى بلغنا العيادة بعد جهد جهيد ... تنفسنا الصعداء وطرقنا الباب ، وكان حظنا كبيراً اذ وجدنا الدكتور في العيادة ، ففرح فرحاً عظيماً عندما شاهدنا وتبادلنـا القبل الحارة . وقال صديقي للدكتور فوراً وقد تهللت ملامح وجهه : « لو لا الطفر يا جوزيف لما شاهدتنا . ولولا الضيق لما تذكرناك ، حتى ولو مررنا قرب العيادة » ثم طلب منه خمسة جنيهات مصرية ... فدفعها في الحال ، ولما همّ اسعد بتناول المبلغ صرخت بجوزيف على مدى صوتي وحذرته من ان يعطي المبلغ اسعد وقصصت عليه ما جرى من اسباب الطفر بعد التبذير والمقامرة . وتناولت انا المبلغ ، واسعد ينظر الي تارة والى الجنيهات تدخل محفظتي تارة اخرى وكأني به يبلع ريقه على الغصة .

يافطة ... وكازينو سان ستيفانو

ثم اتفقنا مع جوزيف على ان نلتقي في مقهى كتبت اسمه على ورقة وان نتعشى على حسابه ونسهر معاً ... قال لنا ان المبلغ يكفينا للتنزه في الاسكندرية ولمصاريف السفر الى لبنان ... فانصرفنا شاكرين ... وما ان مرت بنا اولى السيارات حتى صاح صديقي بالسائق ، وكأنه يريد ان يبين رهبته ومقدرته ، وكان صوته يدل على تكلفه التكبر فوقفت السيارة وصعدنا اليها بخيلاء وصلف ، ونحن اللذان كنا منذ برهة نتشاجر مع ذاك الوقح من اجل دراهم معدودة . اخذت السيارة تنهب بنا انحاء البلد لنأخذ لانفسنا فكرة سريعة عن المدينة ، ثم توجهنا نحو القهوة حيث تواعدنا وصديقنا الدكتور . وصلنا المقهى فلفتت نظرنا ونحن جالسان ، يافطة كبيرة معلقة على احدى الحافلات الكهربائية كتب عليها بالاحرف الكبيرة البارزة « كازينو سان ستيفانو » وكانت الاعلام تزدحم حول اليافطة المزركشة ، فاسترعى هذا المنظر اهتمامنا وسألنا الخادم عن هذه اليافطة فاخبرنا ان الكازينو يعد حفلة كبيرة احتفاء بالملك ، وهنا التمعت الافكار وجالت في ذهن صديقي وأبدع من بنات خياله فكرة شيطانية ولكنها تحققت ، ذلك انه عرض علي الذهاب لزيارة هذا الكازينو واخذ بطلاوة الحديث والبهرجة يشوقني قائلاً : « هل يجوز يا رضا ان لا نرى هذا « الكازينو » ولو من الخارج ، وهو اعظم « كازينو » في الشرق . نذهب لنراه ثم نعود قبل الوقت المحدد لملاقاة الدكتور . واخذ يحدثني بجمال هذا الكازينو وعظمته وسهولة الذهاب والرجوع وكأنه يعرفه تماماً منذ زمن بعيد ... فنزلت مرغماً عند رغبته ، وخرجنا من المقهى وركبنا القطار الكهربائي . سرنا طويلاً حتى اشرفنا على « الكازينو » الفخم العظيم : تحفة قابعة في ضواحي الاسكندرية ، على الدقة والذوق في الهندسة والزينة ، واخذنا نذرع باحاته الفسيحة ، ثم لاحظت على ملامح صديقي بعض الحيرة والارتباك

وكأنه يريد ان يقول لي شيئاً ، فخطر ببالي انه يريد ولا شك اكمال لعبته وتحقيق باقي خطته ، فالتفت قائلا : « يا رضا ... ما رأيك بحضور هذه الحفلة ؟ »

وعندما حاولت الكلام بادرني بقوله ان صديقنا يعذرنا لعدم موافاتنا اياه في الموعد المعين ، ثم استطرد قائلا اننا ولا شك سنكتب له من لبنان ونرد له ما اقترضناه ونعتذر لتخلفنا عن الموعد ، وعندما نعود من البلاد نمر به ونشرح له الامر . واخذ صديقي يسهل الأمور ويدفعها بيسر في مجرى تفكيره وخياله حتى لم يعد هناك من امر مستحيل او صعب ، وعاد الى الكلام عن عظمة الحفلة وانه سيحضرها رجال من جميع اقطار العالم ، وانها لفرصة لا يجب ان نضيعها . وكان يسبقني كلما حاولت الكلام كأنه لا يريد ان يسمع رأيي في هذا المشروع لانه يعرف اني ساعارض ، فيستطرد محاولاً اقناعي : « انترك هذه الحفلة الفخمة ونحن في باب الكازينو من اجل موعد مع صديق او من اجل فيلم سينما » ، وكانت روحه قد تعلقت بمشاهدة الاستقبال ، فرأيت حضوره اوجب من الواجب وضربنا بصديقنا وموعده عرض الحائط . وكان وقت الابتداء قد قرب فاقتربنا من المدخل محاولين الدخول دون اكتراث ، فاعترض الحاجب سبيلنا عند الرتاج الكبير ، لاننا لا نرتدي الالبسة الرسمية ، وطال الجدال بيننا ، فكنا تارة نحاول ان نقنعه بوجوب دخولنا وعدم التعرض لنـا وتارة نعمد الى رقـة الاستعطـــاف . وقد نفعت هذه اللغة قليلا فسمح لنا بالدخول على ان نجلس في محل منزوٍ ، بعيد عن النقطة الرئيسية في القاعة ، فاسلمنـــا امرنا الى الله وجلسنا الى طاولة في الركن القصي من القاعة وكأننا غنمنا الكثير اذ اننا كنا نصف منتصرين ، وامضينا برهة وجيزة كانت عيوننا أثناءها معلقة بالسقف الوهاج والجدران المزخرفة المزينة والاثاث البراق ، واخـذت تنتقل من حسن الى احسن ، ومن جميل الى اجمل ، ولم نتنبه من رحلتنا الخيالية في عالم

الجمالات والاحلام الا ساعة آن الوقت ، وأخذت الموسيقى تعزف انغاماً راقصة جذبت الحضور الى حلبات الرقص فتهافتوا جماعات وازواجاً ... وبينما نحن مستغرقون في هذه البهجة ، اذ بخادم القاعة يتقدم منا ويسألنا بكل احترام واجلال عما نريد من المشروبات ، فطلبنا زجاجة البيرة ، فابتدرنا بان شرب الشمبانيا اجباري لانها حفلة فوق العادة ، وبدأ عقلي يحدثني باننا سنقع في ورطة لا طائل تحتها ، خاصة اذا لم تغطّ دراهمنا ثمن المشروبات ، وخطرت ببالي فكرة للتخلص فطلبت من الخادم ان يأتيني بدفتر المشروبات ، وقصدت بذلك ان تنفسح لنا فرصة الانسحاب بانتظام ودون فضيحة . ولكن الخادم لم يتحرك ، بل مدّ يـــده الى الطاولة وضغط على زر كان هناك وامر خادماً آخر بجلب دفتر المشروبات والتزم موقفه بتقدير واحترام وخشوع . تناولت الدفتر واخـذت عيناي تبحث عن صنف تتحمله ميزانيتنا الهزيلة فوفقت الى وجود هذا النوع ، واي نوع من المشروب الرديء ... ورغم كل ذلك ، ورغم المشادة التي حصلت بيني وبـــين صديقي اسعد لانه صاحب الفكرة بحضور هذه الحفلة ورغم اننا سنعود الى الباخرة كما خرجنا منها صفر اليدين فاني اعترف بان هذا الاحتفال كان من اروع ما شاهدته من الاجتماعات والحفلات .

بطاقات ... وشتيمة

وفي صبيحة اليوم الثاني وعلى ظهر الباخرة التي تهم بالخروج من المرفأ الى عرض البحر نحو لبنان ، كنت افكر في ما يجب ان افعله بمسألة دفع المصاريف لنتمكن من ترك الباخرة عند وصولنا ، واذ ببائـــع يحمل العصي والسبحات والبطاقات البريدية يتقدم مني ويعرضها عليّ بلهجته المصرية قائلا : « كرت بوستال » « كرت بوستال » وخشية ان اقـــع بما وقع لنا قبلا مع الدليل ، خطر ببالي ان اوهمـــه بانني افرنسي فقلت بالفرنسية : ان اذهب في سبيلك انا لا اريد شيئـاً ... فسنحت له الفرصة

لينتقم انتقاماً اشد من انتقام الفتى النصاب . صرّ على اسنانه وحياني تحية عسكرية واردف : « يلعن ابو امك » اعتقاداً منه اني لا اعرف العربية . فتحملت الشتيمة على المضض واشحت بوجهي لاخفي عنه امارات التأثر والحنق فانصرف عني واخذ يتجول على ظهر الباخرة ببضائعه حاملاً معها شتائمه لكل غريب لا يفهم العربية وخاصة لمن لا يشتري منه شيئاً . ولما شاهدني للمرة الثانية من بعيد وحياني تحيته المعهودة واردفها بكتلة ثانية من معين كرهه وبغضه قال لي : « يا ابن الكلب » فابتعدت عن وجهه تجنباً لشتائمه وتحياته الهازئة .

توكتْ الباخرة مرفأ الاسكندرية وانا ما زلت غارقاً في لجة تفكير عميق بما سأفعله اذا لم يلاقني احد من اهلي عند وصولنا الى مرفأ بيروت . واشركت صديقي اسعد لعله يحل المشكلة ، او لعله يوهمني بان حلها يسير ولو بطلاوة الحديث والاخذ والرد كعادته في تسيير الامور ولو كذباً . وفعلاً لقد نجح في ابعاد الحيرة والاضطراب عني وانتشلني من تلك اللجة العميقة : اذ قال لي هكذا بكل استخفاف : « لا تخف يا رضا ، اني اعرف رجلاً يخصني كثيراً من اللاذقية وهو يملك « فلوكة » كبيرة وسيضع عندما نصل الى بيروت فلوكته الكبيرة وماله تحت تصرفنا . ارتحت قليلاً رغم ايماني بأنه اذا لم يكن كل هذا القول كاذباً فانه حتماً مبالغ به كثيراً . وفي فجر اليوم التالي اطلت الباخرة على مرفأ بيروت ، وبدلاً من ان اكرس تفكيري لذاك الخفقان الذي يعاود قلبي والذي يراودني ككل مسافر عاد الى بلده واهله واصدقائه الى مسقط رأسه ، اخذت افكر بكيفية النزول الى اليابسة ، ولكني تذكرت ان صديقي اسعد اخذ المهمة على عاتقه ، فناديته وطلبت اليه ان يفتش عن صاحبه بين اصحاب الزوارق التي اخذت تحوم حول الباخرة . اخذ اسعد يشرئب بعنقه ليتميز صديقه صاحب الزورق ولكن عبثاً . وقال لي بعد برهة انه نسي وجه هذا الرجل ، ويكاد يكون كل واحد من هؤلاء البحارة

صديقه المعيّن ، فعلمت بعد المجادلة والمداولة انه كان يعرف هذا الرجل منذ عشر سنوات فقط ، وقد انقطعت عنه اخباره ... ولما لم يعد لي من أمل بوعد صديقي عــــدت الى سابق تفكيري وهممت بالاقتراب مـــن قائد الباخرة لأطلب منه دراهم تمكنني من النزول الى اليابسة فأحصل على دراهم لي ولأسعد واعود فاسدد ما اخذته منه ، وما هي الا لحظة حتى رأيت زورقاً بحارياً يشق سطح الماء ، وداخله شاهدت والدي واقاربي ، فانقشعت عني الهموم .صعد من في المركب الى ظهر الباخرة فنزلت أرحب بهم واخذوا يرحبون بي وغرقنا في بحر من القبلات والترحيبات والتهاني . اما اسعد فقد ذهب الى غرفته واخذ طربوشه ، وبعد ان سلم على والدي طلب منه في الحال ، بعض الدراهم ، والتفت الي ملياً « وقال انا ذاهب الى حيث القت ...... فعليك بحقائبي واياك ان تنسى ألبرنيطة على التعليقة في « الكابين » . ولما قلت له انني ذاهب مباشرة الى صيدا قال ضعها في فندق السنترال لاني لا اريد ان اتعرف الى متاعب ومشاكل جديدة ... ثم انصرف في طريقه ...

في صيدا

نزلت من الباخرة مع المرحوم والدي برفقة الاقارب والاصدقـــاء وتوجهنا تواً الى صيدا حيث أعدت لي حفلة رائعة اشترك فيها جميع وجهاء صيدا على اختلاف ميولهم ومذاهبهم وقضيت بينهم سهرة ممتعة .. كنت خلالها محور الاجتماع ، لا اكاد افرغ من الاجابة عن سؤال حتى يُطرح علي سؤال آخر ، وجميع هذه الاسئلة تدور حول باريس وطرق المعيشة فيها من الوجهات كافة .. وما شاهدته فيها وما اتفق لي وما اعجبني من عادات وازياء ....

وفي صباح اليوم التالي .. وبعد عناء السفر وابتعاد همومه عن الذهن ولو لمدة وجيزة ، وبعد ان يعود المرء الى نفسه ليسألها عما يشغلها وعما يختلج في دخيلتها ، رجعت الى ذاتي وكرست تفكيري بما سيفعـــله والدي ليحول بيني وبين الزواج الذي صممت عليه .. وكنت كلما فكرت

وتخيلت انه سيكون قاسياً ، تميزت وجهه وملامحه فلا اجد ما يدل على ظني فأطمئن قليلاً .

... الزواج

وفي اليوم الثالث اخذ بعض الخاصة من اصدقاء والدي ، يفدون الى غرفة الاستقبال الداخلية وكنت انا مع بعض المهنئين في باحة الاستقبال الخارجية فاذ . بي ادعى لاقابل اصدقاء والدي ، وفجأة قفزت مخيلتي وذاكرتي الى قضية الزواج لا سيا عندما شاهدت والدي خارجاً من عندهم وهو ينظر اليّ . انه اوصاهم ان يبحثوا معي قضية زواجي وان يبذلوا المستطاع لحملي على الرجوع عنها ، وقد اراد ان يكون الحديث في هذا الشأن في غيابه حتى لا يبيّن لي جهراً انه لا يريد هذا الزواج ... دخلت على هؤلاء القوم وانا اعرف ان كلاً منهم قد حضّر في جعبته ، في قلبه ولسانه ، ما يظن انه سيقنعني به بالعدول عن فكرتي . وما ان اصبحت داخل الغرفة حتى ابتدر امين بك خضر بالكلام وهو على احسن ما يمكن من فنون التنميق اللفظي وترتيب العبارات وقوة الحجة وسهولة التعبير ، وكأنه كان يلقي محاضرة عن عادات الاوروبيين مقارناً بينها وبين عادات العرب . ثم عرّج على اوضاعي الخاصة وحالتي البيتية ، ثم عاد بعد ذلك يؤنبني ذاكراً علاقتي بهذه الابنة التي لم تقترف ذنباً حتى تجازى عليه . وكان يقصد بهذا الجزاء سوء الحياة وشقاوتها معي في هذه الظروف والاحوال . ثم عرج على مستقبلي والخطر الذي يحدق به اذا تزوجت وما سيصيبني في هذا المستقبل . وبعد ان افرغ كل كنانته وكأني به اعتقد اني اقتنعت او سأقتنع بكلامه هو دون غيره ، التفتُ اليهم جميعاً وقلت : إن التفكير شيء والعاطفة شيء آخر ، وقد يجتمعان كما انهما قد يفترقان وانا لا يمكنني ان احلل ما اشعر به ، وكل ما اريد أن اقوله هو انني حاولت بما لدي من الوسائل اختبار امكانية العيش دون ان اربط روحي بهذ الزواج ، فلم اجد بداً من مشاركة الحياة مع هذه الفتاة ثم تابعت قائلاً : انه ربما كان في حديثهم كثير من الحقيقة ولا اريد

ان افنده بالبراهين والحجج وليس لي سوى القول اني احب هـذه الفتاة حباً قد تخطى حدود البساطـة والشعور السطحي واصبحت احس بفراغ في حياتي اذا ما حاولت التفكير بالحياة بعيداً عنها او عن التفكير بها ، فقد تأصّل هذا الشعور النبيل في نفسي حتى لكأنه من مقومات روحي وكأنه قدر متصل اتصالاً وثيقاً باطوار حياتي ومتطلباتها في هـذه الفترة من العمر . ثم اخذت اقص عليهم ما حدث لي معهـــا منذ تعرفت عليها وبينت لهم كيف تمكّن هذا الحب من نفسي حتى سادها وملأها ارادة وقوة ... اطلت الحديث حتى استغرق اجتماعنا ما ينيف عـــلى الثلاث ساعات ، وانفض الاجتماع وخرج اصدقـــاء والدي بنتيجة توصلت بالجهد والاجهاد الى اقناعهم بانها واقعية حقيقية لا يمكن ان اتجـرد منها هكذا فجأة ودون مبرر . وهذه النتيجة هي انني لا استطيع ان افـارق هذه الفتاة ابداً . ويمكنهم ان يتأكدوا من ذلك وانا اساعدهم عليـــه فاني سامكث في لبنان مدة شهرين او اكثر ، فاذا رأيت ان حبي لها اخذ يتضاءل بعامل البعد عنها ، فانني أعدهم بالعودة الى بحث الموضوع مرة ثانية .

مضى عليّ في لبنان اكثر من شهر كنت ارى نفسي خلالها بحاجـة للاقتراب ممن احب ولكني لم اكن لأملك الجرأة للتحدث بمثل هـــذه المواضيع ، خاصة وان والدي لم يكلمني مباشرة بالموضوع وهـــذا كافٍ لابلاغي انه لا يرغب فيه هذه الايام . وقبل موعد عودتي باسبوعين او اكثر قليلاً ، دعاني امين بك خضر الى تنـــاول العشاء في بيته ، فلبيت الدعوة شاكراً وقضيت معه مدة من الزمن بعد العشاء ، واذا به يردد على مسمعي ما قاله لي اثناء الاجتماع في دارنا محاولاً اقناعي بالعدول عن فكرة الزواج ، فما كان مـني إلا ان رددت ايضاً ما قلته سابقـــاً ، وكانت كلماتي تتصاعد هذه المرة ممزوجة بكثير من الحرارة والاندفاع ، واذا به يتغير فجأة فينهض عن مقعده ، وكمن يريـد ان يهنئني قـال :

اتمنى لك السعادة والعيش الرغيد . ثم خرجت وإياه من البيت شاكراً له دعوته وتمنياته . وقصدنا منزلنا حيث وجدنا والدي فتقدم منه امين بك قائلاً :

عليك ان تقدم التهاني لولدك . عندها نظر اليّ والدي نظرة عادية طبيعية وفتح فـــاه وفتحت نفسي معه ، مصغيــاً بانتباه غريب الى كلمة يقولها فيها خيط مستقبلي ونهج مصيري . قال : « الله يهنيك يا ابني ». تقدمت ولثمت يـده ساكباً كل مـا جال بخاطري في تلك اللحظة من معاني الغبطة والفرح والامتنان والشكر والعاطفة البنوية . ورددت بعض عبارات الشكر لوالدي ولكنه لم يجبني عنها بشيء .

وقبل موعد عودتي باسبوع طلبت من والدي ان يتكرم فيعطيني اذناً خطياً بالزواج لان القـانون يحرم على من هم في العشرين من العمر ان يتزوجوا بدون اذن من اولياء امورهم ، ورفض والدي هذا الطلب واردف : « يكفي انني وافقت على زواجك ، ولن اتدخـل زيادة في امر لا ارى فيه مصلحتك » . وتقدمت عندئذ بدعوى امـام المحكمة وزدت بها من سني اربع سنوات بحيث تخولني الزواج دون اذن من والدي .

عودة الى فرنسا

وفي شهر تشرين اول كنت على ظهر الباخرة « تيوفيل غوتيه » في طريقي الى فرنسا ... تركت بيروت تاركاً معها جزءاً عزيزاً من مشاعر سامية واحساسات نبيلة . وقد منعني عن التفكير بذلك ذكرى عزيزة علي ايضاً هي ذكرى تلك التي تركتها هناك الى حيث اقصد انا وفي جوانحي الشوق وحنين البعاد ... وازداد فرحي عندما تصورت فرحها ساعة تعلم أن والدي سمح لي بالزواج . لقد غابت بيروت عن انظاري وكأني شبه حالم بكل ما كان يجول في الذهن من خوالج نحو اولئك الذين ودعتهم

ونحو هؤلاء الذين اقصد اليهم ...

في اثينا

واتفق ان مرت الباخرة عن طريق اليونان ورست مدة يومين في مرفأ « البيرة » فما كان مني الا ان انتهزت هذه الفرصة ونزلت قاصداً زيارة البيرة واثينا والاكروبول وغيرها من الآثار اليونانية العجيبة الرائعة . كنت فرحاً كثيراً بما اشاهد وبما استوحي مما اشاهد يخالط ذلك طيف من ذكريات عزيزة ... ومما استرعى انتباهي في اثينـــا ان اهلها لا يتكلمون سوى اللغة اليونانية ، حتى انني طفت مطاعم عدة فلم اعثر فيها على شخص واحد يتكلم الفرنسية او الانكليزية ، مما اضطرني الى الدخول الى المطبخ لاشير الى الخادم عن نوع المأكولات التي اريدها ، وكذلك عندما قصدت الى ادارة البريد لارسل رسالات من هناك الى حيث اريد فانني لم اجد من استطيع ان اتفاهم معه في اللغات التي اعرفها عندمـا سألت عن قيمة ورقة التمغة . وعدنا بعد جولات متعددة الى الباخرة .

مضيق ...

أكملت الباخرة سيرها بعد مدة وجيزة وسارت بنا نحو مضيق « كورنت ». حقاً انه لمنظر رائع ... ذلك المضيق الذي يدل دلالة واضحة على عظمة اثينا الاغريقية حيث كانت راسيات السفن تمخر فيه زمن كانت سيـــدة البحار ... لقد توقفت الباخرة قبل ان تدخل عتبته ، واذا بزورق بخاري يقطرها من الامام ويجرها عبر المضيق رويداً رويداً ... ذلك لان ارضه صخرية ولا يكاد يبلغ عرضه الاربعين متراً مما يـكاد لا يكفي لمرور الباخرة ، ولكن عمقه هائل جداً والمنخفض الذي يمر بـه سحيق الى درجة ان قطاراً يمر فوقه على جسر حديدي يصل بين الضفتين الشاهقتين. دخلت الباخرة في مياه المضيق يتقدمها الزورق البخاري فخفت السرعـة

كثيراً وشعر الركاب وكأن حادثاً قد حدث للباخرة فتجمهروا على ظهرها وهم لا يتلفظون بحرف واحد وكأني بهم يتساءلون عن سبب هـــذا الابطاء لانهم يعرفون سرعة الباخرة الحقيقية عندما تكون عـــبر البحر وامامها آلاف السفن وكيف انها تشق العباب مسرعـــة جداً . وقد تناهى الى ذهن البعض ان السفينة تكاد تغرق وانها تلفظ انفاسها الاخيرة . وكان الركاب كمن ينتظرون انفراج ازمة نفسية عظيمة سيطرت عـــلى اعصابهم وافقدتهم وعيهم فكل منهم يتصور الامر متشائماً اكثر من الآخر .. ولكن الباخرة ما لبثت ان خرجت من المضيق وفك رباطها من الزورق ، فأحسسنا في الحال انها تسير بسرعة فائقة كالاسير يستعيد حريته بكسر قيوده فينطلق من عالم الاسر والقيد الى عالم الحرية ، وهل هناك حرية اوسع مجالاً واكبر مدى من عباب البحر ؟ ...

لقاء في مرسيليا

اطلت الباخرة بعد مضي اسبوع على ميناء مرسيليا فتزاحمت الاحساسات في دخيلتي وتسابقت الافكار تنبئني بأن بوليت تنتظرني على اليابسة ، وما ان اقتربت الباخرة من البر حتى شاهدتها وقد اخذت تشير الي ... وكم كان فرحي عظيماً وقد احسست ان المدة التي قضيتها في معـــاملات التأشير على جوازات السفر والنزول من الباخرة هي اطول من سفري بكامله ، واما كيف قابلت بوليت وماذا قلت لها بعد غياب تعدى الثلاثة اشهر فهذا امر عسيرٌ حصره في كلمات . لقد كانت خلجات لا يحسها ولا يدركها سوى من يقفون موقفي ويكون لهم هذا الاخلاص الذي اكنه نحو من احببت ، وشعرت اثناء هذه الخلجات انني في عالم آخر غير هذا الصاخب المحيط بنا مليء بالدفء اسعى الى جمالاته مع هذه المخلوقة القائمة في اعماق ذاتي .

في باريس

لقد أمضينا معاً فترة ملائكية . وعند المساء ركبنا القطار فبلغنا باريس ضحى اليوم الثاني وقصدنا تواً نحو فندق « اورليان بالاس اوتيل » فاستعدت الغرفة التي كنت اقطنها ، وما ان استقر بنا المجلس حتى اخذت بوليت تفتح محافظ السفر وترتب اثوابي كأنة ربة منزل ، وهذه اول مرة ألمحها تقوم بعمل ما داخل غرفتي الخاصة وكأنها صاحبة المنزل او شريكتي فيه .

زواج

وفي اليوم التالي لوصولي اخذت بانجاز معاملات الزواج ، وصبرنا ما ينيف على الشهر حتى عين موعد زفافنا في بلدية « الحي العاشر » من باريس ، ودخلت في الوقت المحدود هذه البلدية وكان شاهدي صديقي اسعد هرون . وبعد ان وقعنا على عقد الزواج واخذتْ شهادة الشهود ، تقدمنا من رئيس البلدية فطرح علي السؤال التقليدي في مراسيم الزواج وهو اذا كنت ارضى ان تكون بوليت امسلان زوجة لي ، فأجبته دهشاً من هذا السؤال . فضحك رئيس البلدية وضحك الحضور وقد استرعينا الانظار دون الستة او السبعة عرسان الذين عينت لهم الساعة نفسها في نفس القاعة . خرجت من البلدية تواً الى بيت والدة زوجتي حيث الفيتها تذرف الدمع ولما سألتها عن السبب ارسلت الي نظرة ملؤها الحنان وقالت : « انا جد سعيدة ان ارى ابنتي يعقد قرانها من شاب يدل الواقع على انه من خيرة الشباب ، ولكني اخاف ان يكون حبكما الآن يغطي كل ما في عاداتكما وعقليتكما من تباين في طرق الحياة ، وانا اخاف ان تنقلب الحقيقة الى عكسها فتفترقا بعد ان تقضيا مدة وجيزة .. اجل هذا ما اخافه ، وانا ادعو الى الله راجية الا يحدث » . ثم تابعت كلامها بلهفة وهي

ما زالت تنظر الي : « اما انت يا ولدي فانك ملء عيني لقد وهبتك حب الأمومة منذ الساعة التي عرفتني عليك بها ابنتي » واردفت بصراحة لا توازيها صراحة وامانة لا تتخطاها امانة منهية كلامها قائلة : « اسأل الله تعالى ان يسعدكما » وامتزج كلامها بالبكاء وتابعت : « عسى ان تكون ابنتي احسن حالاً مني فتشملها السعادة التي حرمتها انا » ويظهر ان هذه المرأة كانت اشقى النساء في حياتها الزوجية من جراء معاملة زوجها الذي لم يشأ ان يحضر عقد قران ابنته ، وهو يعيش بعيداً عن بيته ... وقد علمت انه توفي بعد زواجي من ابنته بخمسة اشهر . أما انا فلم اره ولم اعرفه الا بواسطة الصورة ، فلم اشأ ان اتداخل في تفاصيل هذه المأساة خشية ان اكون فضولياً .

مرض .. وعودة الى لبنان

لقد امضيت سنة كاملة كنت خلالها مثال الطالب النشيط الساهر على مصلحته . وبعد هذه المدة كتب لي المرحوم والدي كتاباً يدعوني فيه وزوجتي للحضور الى البلاد ، وعلمت انه اصيب بمرض عضال . فأخذت استعد للسفر وخاصة بعد ان انهيت مع زوجتي الامتحانات النهائية بنجاح لا بأس به .

— وفي اليوم المحدود للسفر ركبنا الباخرة انا وزوجتي قاصدين بيروت، وكنت شخصياً جد مسرور لأن الباخرة ستمر بتركيا حيث يتاح لي ان اشاهد الآستانة . وكم كانت المفاجأة قاسية عندما سمح لجميع ركاب الدرجة الاولى بالنزول الى اليابسة وقضاء اربع وعشرين ساعة ، ولكن حرم من هذه المهلة المسافرون اللبنانيون والسوريون وكانوا اربعة اشخاص انا منهم ، وقد عزت السلطة المسؤولة هذا التدبير الى ان بين العرب عامة واللبنانين والسوريين خاصة وبين الاتراك بعض التوتر حول مشكلة لواء الاسكندرونة .

في المستشفى

تركت الباخرة ارض تركيا وفي نفسي حسرة ... ولما وصلت الى ميناء بيروت كان اخي رياض مع بعض افراد العائلة قد حضروا لاستقبالي. سألت عن صحة والدي ... فشاهدت اخي رياضاً قد اغرورقت عيناه بالدمع ، واخبرني ان والدي ملازم الفراش منذ ستة اشهر ، وهو الآن في مستشفى «قلب يسوع» في بيروت ، فقصدت في الحال الى المستشفى ، ولما دخلت الغرفة كدت لا اصدق أنه والدي لكثرة ما بدل به المرض والضعف ، فسالت عواطفي حبات من الدمع الحار وكان صدى هذا الدمع سيل آخر انحدر من عيني والدي . ولاول مرة في حياتي اشاهد هذا الجبّار القوي يذرف الدمع رغم ما مر عليه من الاهوال والمصائب ، وكانت زوجتي الى جانبي تشاركني البكاء. ولكن والدي اشار اليها بان تقترب منه فاخذ يقبلها بحنان وحب كأنه يريد ان يعبر عن شعوره نحو هذا الزواج ... وبعد قليل دخل علينا الدكتور بعقليني ، ولاول مرة أجتمع بهذا الجراح الذي علمت انه حصل على شهرة فائقة ثم خرجت معه وطلبت منه ان يطمئنني عن النتيجة فعلمت من جراء حديثه ان والدي مصاب بداء الخراج وهو مرض داخلي من الامراض التي لا يبرأ منها المرء بالسرعة الهينة ... نزلت وزوجتي من المستشفى قاصدين فندق « ناسيونال » ، وكنت اذهب كل صباح الى المستشفى واعود عند الظهر لاتناول طعام الغداء ثم اعود حوالى الساعة الثالثة الى المستشفى ولا اغادره الا حوالى الساعة الثامنة مساء ، قضيت مدة شهر تقريباً ، نراجع الاطباء في كل شيء وكانوا في اكثرهم متشائين . وارتأى احدهم ان يذهب والدي الى صيدا فوصف له الادوية التي يجب ان يستعملها والوسائل التي يجب ان يتبعها من حمامات شمسية وغيرها .

تطور الحوادث .. جبل عامل

غادرنا بيروت الى صيدا حيث يجب ان يرتاح والدي ، بعد ان

استقر بي الحال وعدت الى نفسي والى ما حولي اخذت استطلع سر الحوادث في جبل عامل وكيف تطورت الاحداث فيه فاخذت علماً بكثير من الدسائس والخيانات والوشايات ، واستنتجت في النهاية ان الاجانب استطاعوا -- بوسائل التشريد والضغط والارهاب – ان يحطموا جميع العائلات والاسر القوية في الجنوب وانه استتب النفوذ بمعونتهم طبعاً لرجل واحد هو « يوسف بك الزين » ، فقد اصبح هذا الرجل ، الزعيم الاوحد في الجنوب لا تسقط شعرة من رأس رجل في هذه المحافظة الا بامره وبعلمه ، وكنت اذا طفت لا تسمع الا الكلام عن يوسف بك الزين والاعمال التي يقوم بها ، ومن الناس المبالغ بذكر مآثره ومناقبه . ومنهم – وهم القلة – المبالغ بتعسفه واضطهاده . وتكاد في بعض الاحيان لا تجد لهذا الرجل عدواً يخاصمه يؤثر على مركزه ، ولكن كان هناك ثلاثة رجال ناصبوه العداوة بشدة وعنف وهم والدي وراشد عسيران والحاج اسماعيل الخليل . واما باقي الناس فكانوا لا يرون الا بعين هذا الآمر الناهي ولا يسمعون الا بأذنه ولا يقدمون على عمل الا بوحي منه ، حتى اذا سألت مثلاً عن سبب هياج البحر اجابك بعضُهم بانها ارادة يوسف بك ، وان هياج البحر يفيد المصلحة العامة ... واجابك بعضهم من اخصامه : « انه يحاول اغراق كل قوي ، ليحافظ على قوته » .

استرسال

اخذ المرحوم والدي يشكو استرسال بعض الفرنسيين في اهواء يوسف بك الزين ، فافسحوا له المجالات كافة حتى امتد نفوذه وشمل انحاء المنطقة كافة واضعف جميع العائلات في الجنوب وقادهم قيادة عمياء ، وكانت الصحف اللبنانية على كثرتها وتعدد نزعاتها لا ترى عدداً منها والا فيه كلمة او مقال عن يوسف بك الزين اما قدحاً واما مدحاً .

مناهضة ..

بدأت اجتمع ببعض الاصدقاء واخذت اتحدث اليهم عن الحالة فكان الجميع يتأججون حماسة ويبدون رغبتهم في مناهضة هذه الاعمال الارهابية التي يقوم بها الاجانب وخاصة كيف انهم جعلوا جميع المنطقة تحت تصرف رجل واحد تنقاد اليه في السراء والضراء ... وكأن هذه الاحاديث التي كنت اسمعها باستمرار عن هـــذا الرجل في كل مجتمع ولدت في نفسي حب الاجتماع به للتعرف الى مواهبه والاطـلاع على مزاياه التي مكنته من بلوغ هذا المركز المرموق . وسألت مرة والدي ما اذا كان بينـه وبين يوسف بك من زيارات ، فما كان من والدي الا ان هز برأسه ولم يجبني ، وكان ذلك كافياً لاستنتج الجواب . واتفق مرة أني كنت بزيارة المستشار الفرنسي الذي زارني عند وصولي الى بيروت فالتقيت رجـــلاً ضعيف البنية طويل القامة دخل القاعة حيث اجلس مع المستشار فوقفنـا فصافحه مضيفي ثم قدمني اليه فصافحته ، واسترعى انتباهي كفـه النحيفة ويده اللينة فخطر لي اني اصافح فتاة بنت عشر سنوات . وبعد ان استقر بنا الجلوس اخذ يوجه الي عبارات الترحيب واعتذر لعـدم حضوره يوم عدت الى الوطن ناسباً ذلك الى كثرة مسؤولياته ، فدهشت من عباراته الركيكة ولهجته الصيداوية الثقيلة . ثم اخـــذ يتحدث مع المستشار باللغة الافرنسية ، وكانت دهشتي عظيمة جداً ساعة سمعته يتكلم بهـــا . وبعـــد ذلك خرجت من القاعـة مذهولاً بما شاهدت مفكراً فـيما اذا كان حقاً لا يوجد في الجنوب غـــير يوسف بك الزين ؟! اتراني لم اتمكن من ادراك جميع مواهبه ام ان رجالات الجنوب قد تطوروا سلبياً لدرجة ان هذا الرجل قد اصبح الرأس وهم خلفه . ولكن لم اجرؤ على الاجابة عن هذا السؤال ولم اجرؤ على البوح برأيي الخاص في هـذا الرجل الذي لم اتلمس منه جميع مظاهر الزعامة ومؤهلاتها خشية ان اتهم

بالكبرياء والتغطرس ، هذا اذا لم اتهم بعدم الفهم وعدم ادراك الخفايا الحميدة . ولكن سألت والدي مرة عن هذا الرجل فاجابني بقول سائر مأثور : « اذا اقبلت الدنيا على احد اعارته محاسن غيره وان ادبرت عنه سلبته محاسن نفسه . » هذا وان ابناء الجنوب لا يدينون على ما يظهر الا بدين القوة والسلطة حتى ولو كانت غاشمة . واخذ والدي يشرح لي اشياء واشياء بالنسبة لاوضاع جبل عامل وعما يحصل فيه من اعمال ويمثل على اوضه من فظائع ، وكيف ان اهله استسلموا للسلطة والقوة . وكدت اشك في بعض اقواله وظننت انه يغالي بذكر الاشياء لان خصمه متفوق عليه ، ولأنه ناقم على المجتمع ، كل ذلك لانني لم اشأ ان اصدق ولا يمكن ان اصدق ان جبل عامل ، الذي ثار ثورته وابلى بلاء حسناً في المقاومـة يخنع ويستسلم بالصورة التي ذكرها لي والدي .

يوسف الزين ... وآل الاسعد

لقد علمت في جملة ما علمت ان يوسف بك الزين قد توصل في اعماله الى تشريد عائلتي آل الاسعد واقامة الدعاوى عليهم واصدر أحكام توقيف وقرارات بحق خالي المرحوم عبد اللطيف بك الاسعد وولده احمد بك الاسعد ، ولكن الاول هرب الى قرية هونين حيث التجأ الى اهلها ، واما الثاني فقد التجأ الى مستعمرة صهيونية تدعى التخشيبة ، فما كان من يوسف بك الا ان طرح بعض املاكهما في المزاد العلني ، وقد استعمل وسائل عديدة لارهاق اعدائه الثلاثة الكبار وتحطيمهم . وقد قال لي راشد بك عسيران ان يوسف بك اختلق بحقه دعوى تهريب شحنة من التنباك ، فكان الجزاء الحكم عليه بدفع مبلغ عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً . وعمد يوسف بك بشأن والدي والحاج اسماعيل الخليل الى اثارة الفلاحين في الاراضي التي يملكانها ، حاثاً اياهم على الاستيلاء عليها بالقوة ، حاملاً بعضهم على هضم حقوق المالكين والتمرد عليها ، وكانت الحكومة الادارية

تشجعه في كل ذلك ، فاخذت افكر بما يجب عمـــله اثناء مرض والدي خاصة وان حالتنا المادية قد تدنت لدرجة يرثى لهـــا فالديون تراكمت والواردات قد انعدمت لان فلاحي قرانا قد تمردوا على ادارتنا وحقوقنا وخطر ببالهم انهم يستطيعون بمساعدة يوسف بك الزين ونفوذه الاستيلاء على املاكنا رغم انها مسجلة باسمائنا في سجلات الطابو الرسمية . وقد استطاع الفلاحون طرد وكلائنا ،ثم انه لم يمر يوم واحد دون وقوع حوادث بين الفلاحين والوكلاء ولكن والدي لم يكن ليعلم بهذه الفوضى ، وان ادرك ، فالشيء البسيط ، نظراً لحالته الصحية التي لا تتحمل مثل هـذه الهزات والاخبار التي تولد اتعاباً نفسية لا نريد ان تضاعف امراضه .

درس ...

واخذت ادرس الحالة عن كثب ، فرأيت انه لا يمكن لفلاح بسيط ان يقوم بمثل هذه التعديات وان يظهر هذا التمرد علينا خاصة الا بسبب ضغط شديد من قبل من ننتدبه للاشراف على الاملاك . وكان من واجبي ان اعالج هذه القضية بنفسي ، فقصدت تواً الى قريتنا تولين ، وما ان تناهى خبر وصولي عند المساء الى اسماع اهل القرية حتى اخذوا يهزجون ويحيون يوسف بك الزين وخالي المرحوم عبد اللطيف بك الذي كان في ذلك الوقت مستسلماً كل الاستسلام ليوسف بك يسير بركابـه ويأتمر بما يمليه عليه ضارباً عرض الحائط بتراث آبائه واجداده وبتاريخـــه وما فطر عليه من الانفة والكبرياء والكرامة والحق ، فسخرت بهذه المظاهر . وفي صباح اليوم التالي ارسلت الى اهل البلدة رسولاً يخبرهم اني اريد مقابلتهم فاما ان يأتوا الى المنزل واما ان يتجمعوا في الساحة فعاد الرسول يخبرني ان اهل القرية جميعهم قد اتوا الى الساحـــة وهم ينتظرون قدومي ، فركبت جوادي ، وكان منزلنا بعيداً قليلاً عن مكان الاجتماع ، ولما وصلت بادرتهم بالسلام واخذت اسأل كلّاً منهم على حدة عن سبب تمرده

وعصيانه للمرحوم والدي وما هو سبب كل هذه الاعمال التي سمعت بها فمنهم من ادعى ان له حقاً عند المرحوم والدي ومنهم من ادعى ان والدي اغتصب قطعة ارض منه، ومنهم من قال: انه اشترى منه قطعة ارض بثمن بخس ، ومنهم من ادعى انه سجل القطعة الفلانية باسمه اثناء غياب والد المدعي في الخدمة العسكرية. واخذت انا اسجل جميع هذه الادعاءات واسماء الاراضي التي تناولها ، فوجدت ان مساحة جميع هذه الاراضي تبلغ مائة وخمسين دونماً ، ففكرت عندئذ ان اتنازل عن هذه الاراضي وان لم يكن للفلاحين حق قانوني بها ، وأنّ علي ان انزل عند ارادتهم وانهي هذه القضية فنرتاح من المشاكل وما تجره علينا من ابواب المصاريف التي تفوق اثمان هذه الاراضي اضعافاً اضعافاً . فوجهت الكلام الى الفلاحين قائلاً : « انا مستعد للتنازل عن هذه الاراضي في صباح الغد » وطلبت اليهم ان يستعدوا للذهاب معي الى جديدة مرجعيون لاحقق لهم مطالبهم بصورة رسمية ودعوتهم للحضور الى البيت فلبوا الدعوة وجاؤوا جميعاً وتناولوا الطعام هناك وقضينا سهرة رائعة . ولما ذهبوا احسست بسرور عميق وشعور مريح لانني تمكنت من القيام بحل هذه المشكلة ولو انها تعود علينا بالخسارة المادية ، ذلك لاننا سنرتاح من المتاعب وسيرتاح والدي نفسياً وسنكون على اتم وفاق مع فلاحينا وسيسود الوئام بينهم وبين الوكلاء . ولكن اتاني عند الصباح فلاح من القرية نقل الي خبراً مفاده ان يوسف بك الزين احيط علماً بما دبرته من دلائل التفاهم مع الفلاحين ، فلم يرقه ذلك ، فارسل الى القرية ساعياً من قبله يطلب « باسمه وباسم الحكومة طبعاً » من الفلاحين ان لا يقبلوا باية عروض مني . فلم اشأ ان اصدق هذا الخبر في بادىء الامر اعتقاداً مني بانها خدعة ... فارسلت الناطور ليخبر اهل القرية باستعدادي للذهاب وليطلب منهم الاستعداد لمرافقتي ، وجلست اتناول طعام الصباح .

لعلعة الرصاص ....

وما هي إلا دقائق معدودة واذا بي اسمع لعلعات طلقات نارية

فخرجت فوراً من الغرفة وشاهدت جمعاً غفيراً يقارب الثلاثين رجلاً يطلقون النار على الناطور وهو يركض أمامهم ويبادلهم بالمثل وهم يتبعونه محاولين الامساك به واستمرت المطاردة والطلقات النارية حتى وصل الناطور الى منزلنا، فتوقف هناك وتوقف الجمع واخذت أنا أهدىء من غلوائهم، وقد اصيب بعضهم اصابات طفيفة بحبات من الخردق من اسلحة الصيد التي استعملت في المعركة وتابعت كلامي معهم بالتي هي أحسن. وبعد ان رجعوا من حيث اتوا سألت الناطور عن سبب الحادث، فاخبرني انه عندما ذهب للامر الذي ارسلته فيه تصدى له فلان واخذ يكيل له الشتائم ولمن ارسله ثم صفعه، فما كان من الناطور الا ان ثار لنفسه وصفع المعتدي فخرج من بيت فلان آخر نحو من عشرين رجلاً ولحقوا به فاضطر للتراجع هارباً فتبعوه واخذوا يطلقون عليه النار، فبادلهم هو ذلك من «جفت صيد» حتى لا يمكنهم من ادراكه. وبعد برهة اخذت اتلقى المعلومات والاخبار فعلمت ان المؤامرة قد دبرت ليلاً باشراف جماعة من قبل الحكومة حتى لا يتم الاتفاق بيني وبين فلاحي قريتنا ... وبت تلك الليلة وانا مضطرب ... وعند الصباح جاء بيتنا جندي يحمل ورقة دعوى اقيمت علي، تتهمني باطلاق النار على اشخاص ذكرت اسماؤهم في الورقة، فقصدت تواً الى مرجعيون ودخلت قصر العدل، وهناك شاهدت يوسف بك الزين يصعد السلم متوجهاً نحو غرفة القائمقام، فلم آبه للامر وقصدت غرفة قاضي التحقيق بالوكالة (ولست ادري ما اذا كانت هذه الوكالة مقصودة أم هي مجرد صدفة ؟) وبعد ان حييته قدمت له نفسي وقدّم لي نفسه فاذا هو القاضي المرحوم حسن افندي علوية من بلدة قرنون قرب النبطية وكان قد جرى تعيينه بواسطة يوسف بك الزين، فاخذ يستجوبني ويسألني عن الحادث، فسردت له الواقعة من الفها الى يائها دون إهمال صغيرة او كبيرة، وكان ان استدعى بعض الفلاحين من القرية فطلب الي الخروج والانتظار، فغادرت الغرفة وبقيت في الخارج مع المحامي كامل افندي ابو شقرا وهو وكيل المرحوم والدي، وقد اوجد في نفسي

بعض الخوف من جراء التحامل علي وان القاضي « زلة » يوسف بك الزين ، على حد تعبيره ، وان يوسف بك اتى خصيصاً ليقابل القائمقام ويدبّر الامور ... واكد لي ان هذه المقابلة كانت للبحث بما يوجب عمله ازائي لادانتي بالتهمة ، فقلت له وكأنني اشك بصحة ما اقول : « لا اظن ان هذا القاضي يستطيع ان يأتي عملًا فيه مساس بالقانون والحق ، وخاصة اذا كان يتعلق بمستقبل رجل مثلي ، وانا بريء ، فالسياسة لا يمكن ان تسيطر على القضاء وتسيره الى هذا الحد .

جندي ... وسجن

وبينما انا في هذا الحديث اذ بالمباشر يأمرني بالدخول الى غرفة قاضي التحقيق ، وما كدت ادخل حتى طرح عليّ السؤال الاتي : « انت متهم باطلاق النار من جفت صيد على فلان وفلان فماذا تجيب ؟ » فأجبته وقد علت شفتي ابتسامة عريضة : « ان الذي اطلق العيارات النارية يا حضرة القاضي موجود وهو لا ينكر ما اقدم عليه والادعاء وحده لا يكفي للادانة ، ولا يكفي لالصاق مثل هذه التهمة بشاب مثلي ، فهل لك ان تجمعني بالمدعين والشهود ؟ » فقال : « لي انك الآن لست في معرض الدفاع ، وكل ما عليك ان تجيبني عن التهمة الموجهة اليك » فرددت على مسامعه ما قلته قبلًا ، فقال : ان ذلك ليس بكافٍ ... ثم سكت . واما انا فلم افه بكلمة . وبعد دقائق دخل علينا جندي وقال لي شرف . فقلت له : الى اين ، فأجابني : الى السجن ، فقلت له اني حاضر لتلبية ما يريد ، وخرجت من القاعة وفي الخارج صادفت ضابطاً هو فؤاد بك صوايا فطلب من الجندي ان يدخلني الى غرفته ، فلما دخلت سألني عن الحادثة فاجبته بكل ما جدّ معي من حديث مع قاضي التحقيق وسردت له الاسباب على حقيقتها . تركني ، وبعد هنيهة توجه الى غرفة قاضي التحقيق ثم الى غرفة المدعي العام فعلمت انه وقعت بينه وبينهما مشادة عنيفة فهو

يريد ابقائي في غرفته معتبراً ان السجن تحت اشراف الجند وهو يريـــد تنفيذ مذكرة التوقيف بابقائي ضمن نطاق قصر العدل ، واما هما ، القاضيان المذكوران ، وخاصة قاضي التحقيق ، رحمنا ورحمه الله ، فهما يريدان ادخالي الى السجن ووضعي في الغرفة الضيقة الطول والعمق . وفازا ودخلت الغرفة حيث كان اكثر من عشرين موقوفاً لما عرفوني اخذ كل منهم يكيل الشتائم ليوسف بك الزين وخالي عبد اللطيف بك الاسعد وكأنهم يتألمون من توقيفي ، وكان بينهم رجل من الخيام اخذ يبكي وهو يقول : « الظلم عاقبته وخيمة وربنا سبحانه وتعالى سيوقع بالمفسدين في هاوية سحيقة . » واوقف معي بعد ذلك اربعة اشخاص من الفلاحين والناطور الذي اطلق النار ، اما اولئك الذين اعتدوا على الناطور وابتدأوا باطلاق النار فـــلم يوقف منهم احد ... قضيت تلك الليلة جالساً على فراش اتاني به خنجر افندي عبدالله ، صديق والدي الحميم .

عدل فرنسي

كلّمت عند الصباح حارس السجن وسألته : « هـــل يحق يا اخي ، للموقوف في بلدكم هذا ان يرفع ظلامته ويعرضها للمراجع العليا لتنصفه ؟ » ولما اجابني بالايجاب ، طلبت منه ورقة وكتبت عليها تفصيلاً مطولاً للامر وعرضت ظلامتي وطلبت التحقيق ، وبعثت بها الى مفتش العدلية العام في بيروت وهو افرنسي يدعى المسيو « افييه » وظهرَ هذا اليوم نفسه دخل علي شاب انيق اللباس ، قدم نفسه بكل تهذيب ولباقة قائلاً : « رضا بك .. انا قاضي تحقيق مرجعيون وقد كنت غائباً ثلاثة ايام ، وقـــد تلقيت الآن مخابرة هاتفية من دائرة التفتيش تطلب اليّ اعادة النظر في قضيتك واعطاءها الجواب حالاً » فقلت له ساعتئذ : لن اجد شيئـــاً اقوله زيادة على اوراق الدعوى واظن ان ما قلته كافٍ لتبيان الحقيقة ، فاذا كنت بريئاً كان عليك ان تطلق سراحي والا فليس لي وسيـــلة ثانية وليس

عندي ما اقوله ، فأخبرني انه اطلع على اوراق الدعوى واستنتج اني بريء ، ولكنه طلب مني ان أقدّم اليه طلب اخلاء سبيل ، فرفضت وقلت : « لا اريد ان اقدم شيئاً ، فاما ان اخرج دون طلب واما ان ابقى في السجن » عندئذ طلب الي ان اتبعه الى غرفته وفتح اوراق دعواي واخذ يطرح عليّ اسئلة جديدة ، وكانت دهشتي عظيمة عندما سألني عن عدم طلبي مقابلة الشهود والمدعين ، فقلت له : لقد طلبت ذلك ، فما هو ذنبي اذا لم يدون الطلب ، وعلى كل حال كان يجب ان تتمّ المقابلة دون طلبي » فالتفت قاضي التحقيق الى الكاتب ، وسأله عن سبب عدم تدوينه طلبي عندما كان يستجوبني حسن افندي ، فأجابه الكاتب بأنه لا يدون إلا ما يمليه عليه قاضي التحقيق ، واردف معترفاً : « اذكر ان رضا بك تشبث بمقابلة الشهود والمدعين ، ولكنهم قالوا لحسن افندي انهم سيرجعون عن افاداتهم اذا سمح لهم بمقابلته ، لانه سينتقم منهم — حسب زعمهم — في المستقبل » وبعد ان استجوبني مدة من الزمن قرر اخلاء سبيلي .

.. مقابلة جوزف ملحمة

وبينما كنت على اهبة الخروج من السجن اذا بجندي يدعوني الى غرفة المحقق فدخلتها وقابلت هذا المحقق الذي سبق واخلى سبيلي ، فاستقبلني استقبالاً ينم عن طيب خلقه وقدم اليّ نفسه وقال انه جوزيف ملحمه ثم قدم لي فنجاناً من القهوة واخبرني بأن مفتش العدلية العام يريد مقابلتي في بيروت الساعة الرابعة من بعد ظهر الغد ، والح علي ان لا اتخلف عن هذا الموعد ، فأخبرته اني قد كنت سأطلب مقابلة المفتش العام دون ان يطلبني هو ، لاشرح له الحق وأبين براءتي ، رسمياً ، وأنا طالب حقوق القيت في السجن لا لجرم ارتكبته بل كوني ابن محمد التامر خصم يوسف الزين ، ابن رجل على خصام مع الانتداب ولكنه ليس على خصام مع العدالة الانسانية التي يشرف على نزاهتها ذاك المفتش الفرنسي الذي لا بد وان يكون بمكان في النزاهة سامٍ رفيع .

تركت مرجعيون ، وكان كثيرون من اهلها ينتظرون خارج قصر العدل كأن على رؤوسهم الطير ، وكأني بهم ينتظرون حكماً عظيماً على احدهم ، وكانوا يشيرون الي بالاصابع وقد علت وجوههم امارات الغضب والالم ، في آن واحد ، من جراء هذا الحادث الذي ان دل على شيء ، فانما يدل على ظلم هو عنوان للاضطهاد الذي كانت تنوء تحته المنطقة بأسرها . ركبت السيارة وتوجهت نحو صيدا ، واعترضني في الطريق قرب دكان حلاق ، وانا ما زلت في البلدة ، شاب ، لم تكد تقف السيارة حتى قال : « يا رضا .. الله اكبر ، اكبر من كل انسان ، والظالم نهايته اقبح النهايات » ثم انصرف وهو ينظر ، واستأنفت السيارة سيرها حتى وصلت الى صيدا ، فقصدت تواً الى المنزل حيث كان والدي مستلقياً في فراشه وزوجتي عنده تسهر عليه ، فما دخلت حتى اخذت تبكي ويتساقط الدمع من عينيها وهي تقول : « ما هذه البلاد ؟ ما هؤلاء و ... وا ... الخ ... » وكل ما كان يشغل بالي هو ما اذا كان والدي يعرف خبر سجني فسألت بوليت فاجابتني بانه لا يعلم شيئاً ، والا لقضي عليه من الصدمة .. بتّ ليلتي تلك وانا على اشد مما كنته ليلة سجنت من التعب والارهاق والحيرة ، ولم يغمض لي من كثرة التفكير جفن .

في قصر العدل ...

القضاء الفرنسي فوق الاهواء

وفي صبيحة اليوم الثاني ، قصدت بيروت ، وتوجهت الى قصر العدل حيث دخلت على مفتش العدلية في الموعد المضروب ، وعندما شاهدني ، وقف ورد تحيتي قائلاً : « يا شاب .. لقد احطت علماً بقضيتك ، وكل ما اريده منك هو ان تحيطني علماً صحيحاً بما اذا كان يوسف بك الزين قد قابل المحقق ام لا » فاخبرته : اني لست بمتأكد وكل ما استطيع قوله هو انني شاهدته يصعد الدرج متوجهاً نحو غرفة القائمقام ... فما كان منه الا ان نظر الي نظرة ارتياح ، وقال : « ثق بان القضاء يترفع عن كل

هذه الاهواء السياسية ، وان القاضي الذي لا يحكم وجدانه اثناء القيام بمهمته بكل تجرد وحياد ، يُفصل حتماً من الخدمة لانها خدمة تتطلب النزاهة واعطاء الحق اصحابه ومن لم يكن كذلك لا يستحق ان يقوم بمهام قضائية ولا يستحق ان يحمل لقب قاضٍ ، فالقضاء شيء والسياسة شيء آخر ، ولا تؤخر او تقدم في شيء نزعة والدك العدائية للانتداب »
وعلمت بعد مضي اسبوع ان قاضي التحقيق بالوكالة المرحوم حسن علوية قد نقل فعلاً من مركزه في مرجعيون الى حاكم صلح في دير الاحمر في البقاع ، تأديباً له ، رحمه الله ، عما اتاه اثناء التحقيق .

تجلّد يا ولدي ...

وبعد ان عدت من بيروت دخلت مساء على والدي ورويت له القصة بالتفصيل ، فقال متألماً : « يا ولدي .. هذا امر من امور عدة تتكرر في مثل هذه الايام وعليك ان تقابلها برحابة الصدر وبسعة الشجاعة ، وكل حال تزول إن شاء الله . فتجلد يا ولدي ، لانني اعتقد بأن احوال البلاد قد انقلبت رأساً على عقب »

انفاس اخيرة

كانت هذه آخر انفاس والدي ، فساءت حالته وقطع الامل من نجاته وضرب القدر ضربته القاضية التي مهد لها بالاحداث والمشاكل . توفي والدي تاركاً وراءه من الديون ما يبلغ الأربعة الاف ليرة عثمانية ذهباً الى اليهود في صيدا ، عدا الفائدة التي تربي على الثلاثين في المائة .

شكاوى زور

اخذت افكر في ما يجب عمله للخلاص من هذه الضربات المتعاقبة . لم يمكني ان اجد بسهولة من يشتري املاكنا من الوطنيين ، لان جميع

املاك والدي لا تشترى نظراً لاوضاعها وحالة الفلاحين فيها . فكرت بالتخلي عنها جميعها وتقسيمها بين الدائنين اليهود الذين ينتظرون مثل هذه الفرصة ليمكنوا اقدامهم في الجنوب،ولكن اصطدمت هذه الفكرة بكبريائي ووطنيتي، بل زادتني كبرياء ووطنية ، خاصة وقد الفيت حولي جميع اقاربي ينظرون الي والى بيتي نظرة التشفي بما حل بنا ، حتى ان زوج شقيقتي علي نصرت بك الذي كنا واياه على الوفاق ، قد قلب لنا ظهر المجن دونما ذنب منا او تقصير . وتخلى عنا جهراً وعلناً ساعة توفي والدي ، واخذ ينصب شباك الدسائس للايقاع بنا ، فبدأ اول مـا بدأ باستجلاب شقيقته زوجة اخي رياض اليه ليستولي على ارثها وليوهمها باننا قد نتصرف بهذا الارث ما دمنا في الحضيض ، على حد زعمه ، وكانت الشكاوى تتهـــافت علينا زوراً من كل حدب وصوب ، واليك احداها ... عدت يوماً مع اخي رياض الى البيت وسأل عن زوجته فقالت له شقيقتي انها ذهبت الى بيت اخيها علي نصرت بك وهو مريض وانها ستعود عند المساء ، ولكنهـا لم تعد ، فما كان من اخي الا ان ذهب ليعود واياها ، ولما وصل الى بيت علي نصرت بك وطرق الباب اقفل في وجهه ، فما كان منه الا أن ثار بالشتم كيف يقفل الباب في وجهه ، فاستغـــل زوج شقيقتي هذه الحادثة وزور ضدنا دعوى فحواها « اننا ذهبنا الى بيته عند المساء وهددناه بالقتل واشهرنا عليه السلاح ، وان اخي حاول ان يلقي قذيفة يدوية على بيته » والحقيقة هي ان زوج شقيقتي وجدها فرصة يستغل بها ضعفنا ويظهر قوته كنائب في المجلس فيرمي باخي في عتمة السجن فتتـاح له فرصة السيطرة على شقيقته وانتزاع الثروة من يدها .

امام قاضي التحقيق

وكان ان دعينا الى صيدا للمثول امام قاضي التحقيق امين بك نوفل في ذلك الوقت ، وهو رجل طيب القلب يحترم العدالة ويحس بالانصاف

فأخذ يستجوبني بكل لطف واحترام . وبعد انتهاء الاستجواب نظر اليّ نظرة صادقة وقال : يا اخي لم يعد لك خبز في هذا البلد ، اذهب من حيث اتيت ... انت رجل طيب الروح ، ولكنّ حولك ذئاباً تريـــد افتراسك واهلـَك ، وهي ، اي هذه الذئاب القريبة ، تفكر في الايقاع بك قبل الايقاع بالغريب . فاجبته وقد علا ملامحي شيء من التأسف : اني لا اقدر على مغادرة لبنان، واكدت له بأنه لو كانت عائلتي مؤلفة مني ومن زوجتي لهان الأمر في تحقيق نصيحته ولكن لي والدةً وشقيقتين ، وخاصة شقيقتي زينب ، زوجة علي نصرت بك، التي تركها زوجها يوم توفي والدي ، والتي اوصاني بها والدي قبل وفاته قائلاً : « اعتنِ يا رضا بشقيقتك زينب لانني على يقين من ان زوجها سيتركها ، فوراً ، بعد وفاتي ، لان علي نصرت بك قد تزوجني ولم يتزوجها هي ... إنه اقترن بها لاخلصه من مشاكله وديونه والدعاوى التي يقيمها او تقام عليه وما ... الخ ... ولما بدأت اضعف راح ينتظرني يوماً بعد يوم حتى يتخلص من زينب . »

توقيف اخي

...ما كدت انهي كلامي حتى قال لي قاضي التحقيق : « انت طليق ، ولكن التلغراف الذي وردني وكيفية سرد الدعوى يجبرني على اصدار مذكرة توقيف بحق اخيك رياض مدةً ، مفعولها لا يتعدى الخمسة أيام » فرجوته ان يتدبر القضية في الحق والوجدان وشكرته وانصرفت . وهكذا أُوقف أخي خمسة أيام ثم اطلق سراحه بمنع المحاكمة لعدم وجود اساس للشكوى .

حقد ... وعطف

واصبحت بعد وفاة والدي لا ارى رجلاً واحداً إلا وأحس انـــه ينظر اليّ ، اما بعين الحقد واماً بعين العطف والشفقة ، وكنت اجد من الرفاق الذين قضيت وإياهم حياتي الدراسية والذين عاشرتهم في صيدا ، وجميعهم ليسوا من اقاربي ، وفي طليعتهم شفيق لطفي الاستاذ الصديق ، أجل كنت اجد من هؤلاء من يمدون الي يد المعونة معنوياً فألقاهم قربي دائماً يشجعونني على

تحمل المصائب المحيطة بنا وكنت ابادلهم الرأي واستشيرهم باخلاص متبادل .

مساعدة من باريس

اشارت علي زوجتي في احد الايام ، ونحن نتنزه مساء على الشاطيء ، بأنه قد يكون لدى والدتها في باريس بعض الدراهم ، وطلبت الي ان اكتب اليها شارحاً اوضاعنا بالتفصيل ، وهكذا كان . وبعد مضي عشرين يوماً وصلني انها مستعدة لتسليفنا مبلغ مائة الف فرنك . فكان فرحي عظيماً لان هذا المبلغ كان كافياً لرفع مستوانا المادي الى درجة مقبولة ، ولما علم بعض افراد عائلتي بالامر تحول جفاؤهم والتشفي الى التردد علينا والتودد ، ولم يكن ذلك غريباً عندي خاصة وقد عرفت ما يرمون اليه من زرع الشقاق والخلاف بيني وبين اخي . قال لي احمد بك الناصيف وكان بمنزلة الاخ في بيتنا ، « يا رضا ... لقد استحصلت على مبلغ من المال فما عليك الا ان تسدد ديونك الخاصة بك وان لا تهتم بما على اخيك من الديون فليسددها وحده لان زوجته غنية تستطيع ان تدفعها عنه ، وتدبر انت امرك بنفسك ولا تلتفت الى غيرك في الوقت الحاضر . » فقلت : « يا ابن الخالة ... لقد وصلت واخي الى هوة سحيقة ، فاما ان نبقى ، نحن الاثنين ، في هذا الحضيض واما ان ننتشل بعضنا بعضاً فننجو ، نحن الاثنين ، من هذه الهوة ولا يمكن لاحدنا في الوقت الحاضر ان يستكمل شروط نهوضه دون مساعدة الآخر ، لذلك لا اقدر ان اتخلى عن اخي وكذلك لا يمكن لاخي ان يتخلى عني . » واخبرته اني سأبذل هذا المبلغ في سبيل تسديد الديون عنا جميعاً . وفعلاً فقد دفعت هذا المبلغ فور استلامه لبعض الدائنين الملحين الذين يتقاضون على دينهم فائدة باهظة ، وتركت البعض الآخر ، ورتّبت اوضاعنا بقدر ما تسمح لنا الظروف ، وبدأت استعد للرجوع الى باريس وعهدت الى صديقي الاستاذ شفيق لطفي ان يقوم مقامي اثناء غيابي

واعطيته عني وكالة عامة .

عودة الى باريس ... وفشل

عدت مع زوجتي الى باريس لنتمم السنة الثالثة في الحقوق ، وكانت حياتي هناك اثناء هذه السنة غيرها قبلاً ، مملوءة بالذكريات والتفكير في ما يجب القيام به يوم اعود الى البلاد . والى جانب هذا كله كان علي ان اهتم بشؤوني الدراسية .

وفي آخر السنة المدرسية تقدمت وزوجتي للامتحانات النهائية فوفقت ، هي ، ولم اوفق أنا. وخوفاً من ان اخفق في دورة تشرين واضطر لاعادة السنة بكاملها مرة ثانية مما لا يمكنني تحمله وخاصة وان ظروفي لا تسمح ، ذهبت الى لوزان بعد ان استعددت للدرس قليلاً ، وهناك قدمت امتحاناً استثنائياً بين الدورتين فنجحت نجاحاً مقبولاً وهكذا انهيت السنة الثالثة ونلت شهادة الليسانس في الحقوق .

مولود جديد

وفي هذه الاثناء كنت قد رزقت مولوداً ذكراً سميته « ماجداً » واخذت افكر حيال ذلك كيف يمكنني ان اعود الى البلاد مع هذا الطفل وانا غارق في هذه الحالة من صعوبة الظروف وقساوتها . ولكن والدة زوجتي انتشلتني من هذه الورطة وهي المرأة الطيبة الحنون الفاضلة ، فقالت لنا : انتما ذاهبان الآن الى مصير مجهول وربما قضت عليكما الظروف بالعودة او التنقل فلا مانع من ان يبقي طفلكما ماجد عندي وهو مني وانا له . وهكذا كان ...

نقابة المحامين ببيروت

تركت وزوجتي باريس قاصدين بيروت .. ولم يحدث خلال السفرة شيء

يستحق الذكر .. وكانت رحلتي كلها عبارة عن تفكير بالمستقبل وتذكر الماضي ، ولما وصلنا الى بيروت بتنا ليلتنا في فندق « بيروت الكبير » ، واخذت افكر .. وبدأتُ اعمالي بأن اتصلتُ ببعض المحامين ، وقدمتْ زوجتي طلب قيد اسمينا في النقابة ، فكانت ضجة واسعة حـــول قيد اسم زوجتي ، وكان القانون مبهماً لا يوضح امكانية دخول المرأة في المحاماة ، وحاول بعض افراد النقابة استغلال هذا الابهام فرفضوا وعارضوا قيد اسمها ، واخذت الجرائد تتناول اسم زوجتي لانها كانت اول محامية في الشرق الاوسط ، وبعد اخذ ورد قررت نقابة المحامين الموافقة على قيد اسم زوجتي في جملة المحامين ، ودخلت واياها في مكتب الاستاذين الشيخ ابراهيم المنذر والنقيب فؤاد بك الخوري .

استغلال...وتضحية

وقد حاول بعض اصحاب المصالح ان يستغلوا ظروف زوجـتي نظراً لانها فرنسية ولانّ الفرنسيين هم الذين يديرون في الحقيقة شؤون هـذا البلد . ولكني رفضت واياها عروضاً مادية مغرية ، رغم حاجتنا الماسة للمال. وانتحيت وزوجتي ناحية بعيدة عن الوساطات والمداخلات الشخصية ، بعيدةً عن تأثير الغير ، ناحية المحاماة التي كان خارجها خلاباً وداخلهـا صفراً لا يجدي شيئاً ، بمعنى ان دعاوى كثيرة كانت توكل الي وعندما انهيهـــا لا احصل على شيء ، وان حصلت فعلى القليل الذي لا يذكر . ذلك لان اصحاب هذه الدعاوى ان لم تربطنا بهم رابطة المعرفة ، فرابطة التاريـخ والجهاد والعادات والبيئة تجبرني على ان لا اكون معهم مادياً ابداً ... وكانت عقليتي من هذه الناحية عقلية محام مثالي ، فكنت احس تجـــاه من يوكل اليّ امره ، ان من الواجب علي القيام بمهام الوكالة دون اي تأخير اوتقصير ، فاذا اعطاني شيئاً قبلته والا فلا اطالبه بشيء واستمر في العمل له بكل اخلاص . وكنت كثيراً ما ارى نفسي مضطراً للترفع عن اخذ

تكاليف الدعاوى من بعض الموكلين رغم انهم يعرضون علي ان آخذ القدر الذي تتطلبه الدعوى ، وذلك عائد الى اوضاعي الخاصة التي اضفتها علي نفسيتي وظروفي العائلية والبيتية والتي تأثرت بها كثيراً وحرصت على التمسك بها ، وكانت من الناحية الانسانية المثالية من خيرة الخصال التي يمكن لانسان ان يتحلى بها ، واما من الناحية المادية فلا يمكن لاي محام ان يعمل بها والا فانه يترك المهنة فيستريح على الاقل من المتاعب والمشاكل اللامجدية .

عادل عسيران ... معارضة ونضال

وفي هذه الغمرة من الاحداث والظروف اخذت اتصل ببعض الشباب من اصدقائي وممن يتذمرون من الاوضاع في الجنوب ، وكان في طليعتهم عادل بك عسيران الذي لمست فيه الصراحة وقوة النفس وعزتها ، وعقلية الشاب المتجرد عن كل مصلحة خاصة والذي يهدف الى رفع مستوى المنطقة والى السير بها على اسس جديدة تناقض الاسس التي تسير عليها باشراف يوسف بك الزين ومن خلفه خالي المرحوم عبد اللطيف بك الاسعد ونجيب بك عسيران عم عادل بك عسيران . ثم هناك في الحظيرة ذاتها ايضاً فضل بك الفضل . واخذت اقوم بجولات واسعة في حقل السياسة ، وما هي الا برهة حتى اصبحت وعادل بك عسيران ممن يحملون لواء المعارضة ... ولم تكن كلمة المعارضة بالنسبة لابن الجنوب لتعني غير معارضة يوسف الزين ومن عارض هذا الرجل فمعناه انه يعارض الانتداب ، ومع ذلك بدأنا النضال رغم ان وسائلنا لا تذكر لانها لا تؤلف شيئاً بالنسبة لوسائل خصمنا ، واخذت بعد ذلك اتردد على صيدا حيث يقيم رفاق لي من الشباب المتحمس ورحت أبثّ فيهم روح الحماسة وانفث روح التضحية والنضال في سبيل مستقبلهم ومستقبل الجنوب ، مستقبل ارضهم وعائلاتهم . وكنت اراهم بعد ذلك يتأففون من اوضاع صيدا

ومن مشكلة الطائفية فيها ، وادركت انه لا تجانس او انسجام بين هؤلاء الشباب وبين عادل بك عسيران ، وسبب ذلك ان عادل بك كان يتصف بطابع الانكماش والعزلة وعدم المرونة الاجتماعية ، اما الشباب فيطلبون من رفيقهم ان يكون اجتماعياً يحب المعاشرة ويأنس الى الاجتماعات الشعبية الكبيرة . فما كان مني الا ان اعددت عدة اجتماعات في هذا السبيل وفي سبيل تنوير الرأي العام الى حقيقة الامور التي تجري في هذه المنطقة وما يجب عليهم عمله ازاء ذلك من ضروب المساعدات لنا وعدم الانجذاب التام وراء مسببي هذه الاوضاع المحتكرين للحكم والسلطة .

جمعية ادبية

وقمنا بتأليف جمعيه ادبية في صيدا ، فما كان من الحكومة الا ان قاومتنا بكل ما تملكه من قوة حتى رجعنا عن فكرة انشاء الجمعية واعرضنا عنها ، ولكن بعد ان حققنا شيئين عظيمين مهمين بالنسبة لنا : اولاً ، انه توثقت عرى الصداقة ووحدة النضال والعمل بيننا ولم يعد هناك مجال للافتراق والخصام ، وثانياً ، اننا وفقنا الى ازالة التباين الذي كان بين عادل بك وباقي الشباب من حيث الاجتماع والمعاشرة والاختلاط بالناس والخروج من تلك العزلة الموحشة .

استخفاف

...واسترسل ازاء ذلك يوسف بك الزين ببسط نفوذه وكان يتعمد اظهار عدم اكتراثه بأية شخصية او عائلة من عائلات الجنوب ، وكان ظاهرياً يحافظ على اللياقات التقليدية المعتادة مع خالي عبد اللطيف بك الاسعد بان يضعه في الصدارة ، في الموضع الاول ، ولو على سبيل المجاملة. واما البقية الباقية فقد اعرض عنها واخذ يسوق جميع الناس بعصا واحدة ... واخذ المرحوم خالي عبد اللطيف بك مسترسلاً باهوائه التي تمليها ارادة يوسف بك ورضاه ، وكان ان نشب خلاف بينه وبين

ابنه احمد بك الاسعد ... وبينه وبين شقيقة محمود بك الاسعد .. وهكذا فقد بدت علائم الانحطاط وامارات الانهيار بين عائلة آل الاسعد وخاصة من الناحية المعنوية ، ووصلت الى درجة غدت معها العائلة وكأنها لم تكن ، وكأنه ليس لها منزل عامر في الجنوب . توارى ذلك البيت العميد فكأنه لم يكن له تاريخ ... فقد تراكمت الديون على افـــراده وأصدر قرار الحبس بحق المرحوم خالي عبد اللطيف بك ولكنـه هرب الى هونين ، وكذلك صدر نفس القرار بحق ابنه احمد بك الاسعد ، وفر هـــذا ايضاً الى مستعمرة صهيونية « التخشيبة » الواقعة على الحدود اللبنانية الفلسطينية ، وكذلك صدر قرار بسجن محمود بك الاسعد وولده محمد بك فتم توقيفهما ، ولكن الاول لم يمكث طويلاً في السجن وافرج عنه بسند كفالة مع بعض الوجوه في صيدا ومنهم نجيب بك عسيران ، واما ولده محمد بك الاسعد فقد بقي مسجوناً مدة ثلاثة اشهر وهي المدة التي حددها القانون بحق الذين لا يدفعون ما يترتب عليهم دفعه من الديون .

دعاوى يوسف الزين . . . .

واقام يوسف بك الزين دعاوى عديدة على ورثة المرحوم كامـل بك الاسعد ، واصدر بحقهم عدة احكام . ولم يكتف بذلك بل تعـــداه الى طرح املاكه في المزاد العلني مما اضطرهم لبيع قسم صغير منها ليتمكنوا من تسديد الديون المترتبة عليهم . ومما زاد الطين بلة ان فـلاحي قرية الطيبة قد ثاروا عليهم حتى توصلت بهم الحال الى ان اهينوا من بعض الفلاحين ، الخدم في بيتهم ، وتوسعت شقة المناوأة والعـــداوة لهذا البيت حتى شملت بعض الاصدقاء اذ ان احد افراد عائلة آل العبـــدالله (الحاج محمد عبدالله) ، رغم الروابط التقليدية التي تربط بين العائلتين ورغم روابط المصاهرة بينهما فقد حدا بافراد عائلته الى مخاصمة آل الاسعـد ومناصبتهم العداء ... وفي هذه الاثناء طرحت املاك خالي المرحوم عبد اللطيف بك

الاسعد بالمزاد العلني وسجلت باسم عبود بك عبد الرزاق الذي كان قد اسلف خالي مبلغاً من المال .

مسرحيات

جمع الشمل ... الكابتن بشكوف

وهكذا مثلت جميع هذه المسرحيات تحت بصري ورأيت بام عيني ما حاق بعائلتي من ضروب الاضطهاد والضغط والشدة ، ففكرت بعمل استطيع به ان اعيد لهذه العائلة شيئاً من كرامتها فاستعيد انا بدوري شيئاً من كرامتي ، او ان احافظ على البقية الباقية من هذه الكرامة . فاخذت اجتمع مع بعض الافراد من عائلتي لنتشاور في هذا السبيل . ولم يكن في الجنوب رجل نافذ واحد يكف عن مهاجمتنا بل اصبح ذلك واجباً بالنسبة للمهاجمة هكذا دون مسوغ . فما كان منا الا ان انشأنا جمعية عائلية تجمع الشمل ، وكان ان انتخبت مديراً مسؤولاً عن اعمالها .. واخذنا ننشر هذا الخبر في الانحاء كافة ، وعمدت الى الصحف لتنشر هذا الامر في اعدادها .. وفعلاً فقد اذاع كثير من الصحف بعد قليل خبر تأليف الجمعية الوائلية التي تضم آل الاسعد وبطونها المتفرعة وذكرتْ ايضاً شيئاً من تاريخ هذه العائلة .. مما استلفت الانظار في حسب الحساب وخاصة انظار الفرنسيين اذ علموا اني انا القائم بالعمل والمشرف عليه .. وحدث ان استدعيت لمقابلة الكابتن بشكوف المستشار الفرنسي وهو من اصل روسي ومركز عمله في صور .. فحدّثتُ نفسي بان استدعائي هذا ناتج عن خلاف بين وكلائي في قريتنا « تولين » وبين فلاحي هذه القرية ، اذ ان يوسف بك الزين كان قد سن في الجنوب شريعة عمادها الاستفادة من سذاجة الفلاح ، خاصة وان الكابتن المذكور يعرف مقدرة يوسف بك وطول باعه فلا يتورع ان يصدقه، وكأن كلامه الاياتُ المنزلات ذلك لان الحكومة تسانده في كل ما يريد ، فلا سلطة تعترض هواه .. وقد استغل يوسف بك

الزين هذه السذاجة وهذه الخواطر الساذجة في مخيلة الفلاحين ، فاثارهم على مالكي الاراضي التي يشتغلون فيها ، وخص ، طبعاً ، بهذه المعاملة جميع العائلات التي لا تخضع لسلطانه .

في صور ... صراحة فرنسية واضطهاد تركي

وقصدت الى مدينة صور ، فلما بلغتها توجهت نحـو شاطيء البحر حيث يقيم الكابتن بشكوف ، وهناك التقيت رجلاً صغير الجثـة مبتور اليد ، واستقبلني هذا الرجل استقبالاً حافلاً فأخذت اتكلم معه عـن حالة الجنوب من ناحيته الاقتصادية ومن ناحية المشاريع العمرانية فيه ، الى ان توصلنا في الحديث الى الناحية السياسية فأخذ يقارن بـين حالة جبل عامل زمن الاتراك العثمانيين وزمن الفرنسيين ، مبيناً في مقارنته هذه البون الشاسع بين الحالتين ، وانتهى بحقيقة الى ان قال : بأنه يجب عـلى سكان جبل عامل ان يقبلوا بهذه الحرية الكلية التي منحهم اياها هـذا العهد . واراد ان يكمل حديثه ولكني أنبريت له قائلا : « يا سيدي لقد تلقيت علومي في فرنسا حيث قال لي احد الاساتذة بأن كلمة فرنسا مشتقة من كلمة « فران » Franc اي الصريح ، وانتم قد عرفتم بالصراحة ، واني لن اسلك في حديثي معك غير هذا المسلك ، بـل ساجيبك بكل صراحة بما اشعر به ، وثق بان هذا الشعور هو شعور المنطقة بأسرها ، او بالاحرى باكثريتها ، وان لم يكن منها فرد واحد يصارحك به وجهـاً لوجه ، وهذا الخوف هو ثمرة لاضطهاد الاتراك وتضييقهم الخناق على كل من كان يتفوه بكلمة شكوى او اعتراض على أي أمر تأتيه الحكومة او او رجالها او مأموروها ، وعدا كل شيء فالعاملي لم يكن ليستطيع ان يؤدي فريضة الصلاة بمقتضى مذهبه وخاصة الشيعي . »

اقطاعية جهلاء

«كان العامليون ينوؤون تحت نير قاس تجره عليهم مشاكل الطائفية والاقطاعية واعني من جملتها اقطاعية عائلتنا ... تلك الاقطاعية الجهلاء التي لا تمت إلى التقدم والتوجيه الصحيح بأية صلة .. بل انها كانت تنحصر بارضاء الشعب بامور تافهة لا تمت بشيء الى عزة النفس وحرية الفرد واحترام الانسان لدرجة انه كان من المستحسن ان يجلس ابن الشعب في « صالون البيك » بل وكان هذا الشيء محظراً على الفلاح ولا يجرؤ على تخطي هذه الحرمة الا إذا سمح له بعد اذن خاص ، وصاحب الحظ الذي يحظى بهذا الاذن ويسمح له بالدخول ليلثم يد البيك يصبح بعد مدة من الزمن وجيهاً في قريته ومنطقته محترماً من افرادها تشير اليه الاصابع كرجل محظوظ محترم يدخل بيوت البكوات ... ان مجتمعاً هذه حاله لا يمكن له ان يتكلم عن احساساته بمثل هذه الصراحة وخاصة لرجل مثلك يا حضرة الكابتن بصفتك صاحب الامر في هذه المنطقة خاصة وانت المعنيُّ رسمياً بجميع هذه الشكاوى والتأففات وتلك الاحساسات والانطباعات . »

فصول من الفوضى

واخذت بعد ذلك اروي للكابتن بشكوف فصولاً عن حقيقة هذه الفوضى الضاربة اطنابها في الجنوب من جراء استرسال الحكومة الادارية وراء تنفيذ رغبات المتنفذين الاقطاعيين واهوائهم دون الالتفات الى الشعب والاهتمام به ؛ كأنَّ هؤلاء الاقطاعين هم كل شيء في تاريخ جبل عامل وكأنه لا وجود لهذا الكادح المضطهد المعذب ، وهو يقيم للدول وزناً يساوي جزءاً صغيراً من ضربات معوله المتواصلة في الارض يسألها الحياة والعيش وهو الذي اذا شاء واعياً ان يهدم جبروت الطغاة لما ثناه

شيء عن امره ... اجل كأن هذا الفلاح لا وجود له ... ثم تابعت قائلاً : «انه قد حكم على والدي زمن العثمانيين ، خمس عشرة سنة حبساً ، حكماً غيابياً ، ولكنه ظل فاراً من طريق الحكومة مـــدة خمس سنوات ، ومع هذا فقد ظل موفور الكرامة تتمتع عائلته بـــكامل حريتها ، فلا يتعدى عليها احد ولا تشكو جور احد أو ظلم آخر ، واذا كان له حق في شيء فهو واثق بانه سيحصل عليـــه رغم سلطان خصمه فيه » وقصصت عليه الى جانب ذلك حادثة استشهدت بها فقلت :

جل ضاهر

يا سيدي اليك رواية حصلت لي شخصياً وشاهـــدها حاكم الصلح في مرجعيون . فمنذ اسبوعين تقدمت بدعوى ضد احد فلاحي قريتنا لانه حرث قطعة ارض ، املكها ، دون مسوغ قانوني ودون اتفاق بيـني وبينه . وكان ان عينت له جلسة فحضرتها انا ايضاً ، ولما سأل حضرة الحـــاكم المدعى عليه عما اذا كان فعلاً قد حرث قطعة الارض اجـــاب الفلاح بالايجاب ، فبادره الحاكم بقوله : ان هذه القطعة مسجلة وممسوحة باسم محمد بك التامر وابرز للمدعى عليه من ملف الاوراق ورقة السجل والمساحة ، فما كان من المدعى عليه الا ان قال للحاكم بكل برودة وساطة : هل لك يا سيدي ان تذكر لي اسم هذه القطعة ? .

فأجابه بانها تسمى جل ضاهر . عندها انفتحت اسارير الفلاح وقـال للحاكم كمن يثق تمام الثقة بصحة ما سيقوله « وما نفع هذا التسجيل مادمت انا ابن ضاهر ، وهذه القطعة لم تزل تحمل اسم جـدي . لذلـــك لي الحق بحراثتها » وازاء هذا المنطق القهار الذي تكلم بلسانه المدعى عليه اصدر الحاكم قراراً بسجنه شهراً كاملاً ، وما ان صدر القرار حتى صاح الفلاح باعلى صوته : « الله ينتقم منـك يا يوسف بك ! » فسأله حضرة القاضي عن سبب هذا الكلام فما كان من المدعى عليه الا ان اجابه بان



يوسف بك الزين اوهمه كما اوهم جميع الفلاحين بان كل قطعة ارض تحمل اسم آبائنا واجدادنا في قرية محمد بك نستطيع ان نحرثها وان تكن مسجلة باسمه ، وان القانون معنا في هــذا الامر ينصفنا ولا عـــبرة للتسجيل والمساحة ، وهكذا فقد فلحنا معظم الاراضي التي تحمل بالصدفة اسماء آبائنا واجدادنا . وانهيت هذه الرواية ضاحكاً هازئاً من سوء التصرف ومن سذاجة هذا الفلاح الذي لا يستحق العقاب لانه ليس مصدر العلة .

وما ان انهيت كلامي حتى نهض الكابتن بشكوف عن كرسيه وجلس خلف مكتبه واخذ مذكرة بهذه القضية ، وطلب الي اسم المدعى عليـــه فأعطيته اياه وكذلك ذكرت له اسم حاكم الصلح الذي اطلع مفصلاً على هذه القضية وحكم فيها .

حديث دفاع

وبعد حديث مطول ، حاول الكابتن بشكوف الايقاع بي ، فسألني قائلاً : « اراك ناقماً على الاقطاعية من جهة ساعياً لانماء حرية الفرد ، شاجباً اعمال عائلتك التي لم تنهج بجبل عامل نهج الحرية والانسانية ، ومن جهة ثانية اراك تقوم بجمع شتات آل الاسعد » واردف قائلاً وهو يهز رأسه : « لقد علمت بأنك شكلت جمعية عائلية ، وانك أقمتَ انت مسؤولاً عنها ، فما معنى ذلك التناقض » فما كان مني الا ان اجبته في الحال مزيلاً شكوكه : « ان الشيء الذي ارمي اليه من تأليف هذه الجمعية ليس مصدره الامل بان تعود عائلتي الى سابق عهدها من السيطرة والاقطاعية ، انما هدفه المحافظة على حقوقنا والسهر على البقية الباقية من كرامتنا » واستمررت في الكلام وقد خالطه شيء من الحدة : « ويجب ان تعلم يا حضرة الكابتن انه اذا كان لعائلتي من اعمال تتنافى مع مبادىء التوجيه الفردي والاجتماعي الصحيح ، فهي على الاقل لم تصل الى حدود كرامات الناس فلم تهضم حقوقهم ، ولم تسيّر السلطة لأهوائها ولارهاق الشعب وتحطيم الفلاحين واولاد

العائلات ، واستطيع القول . ان عائلتي لم تأت من هذه الناحية ، ابداً ، عملاً ينقص من قيمتها ، وكل ما اخطيء عائلتي فيه هو تلك النزعة الانانية العشائرية المتمثلة باهمال الفرد وعدم السعي لرفع مستواه الاجتماعي والعلمي ... وخطر ببالي ان اضرب له مثلاً على ذلك الظلم والارهاق اللذين تنوء تحتهما عائلتي بل جميع العائلات المعارضة ليوسف بك الزين فقلت : « اليك مثلاً على ذلك ، فخالي المرحوم عبد اللطيف بك الاسعد قد اصبح مشرداً طريداً ، وكذلك ولده احمد بك وقد التجأ الى فلسطين ، وليس هذا فحسب بل ان خالي المرحوم عبد اللطيف بك قد غادر بلدته بعد ان جرحت كرامته واهانه احد الفلاحين ، والى الآن لم يستطع هذا الشريد الوصول الى حقه الشرعي باستثمار املاكه ولو كفلاح نشيط » . وتابعت قولي بعد ذلك موضحاً له هدف الجمعية باختصار ، وهو من اجل السهر على درء مثل هذه التدابير وغيرها من حجز لحريتنا واستخفاف بكرامتنا ... اجل لهذا السبيل وله وحده انشأت الجمعيةَ الوائلية ولتبيان مصدر هذا الظلم والجور ، ولِتَسْتَتِب مهمة اخلاد الامن والسكينة اليكم انتم الفرنسيين ، فانكم انتم بسكوتكم عن مثل هذه الاعمال ، وباستجاباتكم لاهواء من ترونه خادماً للانتداب بنفوذه واقطاعيته دون النظر الى الكيفية التي يحتكرها هذا الرجل من اذلال للمواطنين وارهاق لصغار الملاكين وتحطيم لارباب العائلات الكبيرة ، كل ما يهمكم انتم على ما يظهر من نهجه هذا ان يخدم مصالحكم مهما كانت طرق السير . مما يحدو بنا وبجميع الناقمين على هذا النهج ان نعتبركم المسؤولين الاولين عن هذه الأضطرابات والفوضى . فكيف تريدني يا سيدي بعد ذلك ان لا اهتم بجمع اشلاء عائلتي ، خاصة واني كفلاح لم استطع ان استثمر اراضيّ بيدي ، وكمحامٍ لم اجد من يوكلني باية دعوى خوف ان يخسرها لان اخصامي اقوياء وانتم تسندونهم . وما دمت مواطناً حياً قادراً على العمل فلي الحق بالحياة ، ولا يدخل ذلك ضمن نزعاتي واهوائي وعقيدتي ،

فسيان عندي بالنسبة للانسانية ايضاً أكنت عدواً لفــلان أم صديقاً له ، عدواً للانتداب ام محباً له ، فانا قبل كل شيء كائن عمليٌ استحق الحيــاة ما دمت اطلبها ثمناً لجهدي وبدلاً لاتعابي وانا لا أطلبها سخرة للناس او اغتصاباً منهم ... وهكذا استمررت في كلامي وقد بلغت الحدة عندي اشدها فانهيت كلامي قائلا : ان الاكثرية من سكان الجنوب بعيدون عن السياسة العليا ، وعليكم ان تعلموا ان صديق الانتداب او عــدوه ليس صديق المقربين اليه او عدوهم وبالعكس .

الكابتن ماي

ولما اردت ان استمر في حديثي لابين له ببراهــين واقعية صدق ما اقول قاطعني الكابتن بشكوف قائلا : « يا استاذ اريد منك ان تذهب الى مرجعيون وتتصل بالمستشــار « ماي » وحاول ان تكون عــلى صلة معه وهناك تستطيع ان تعرض له جميع القضايا الخاصة والعامــة التي تتعلق بعائلتك وبالجنوب وكن صريحــاً في ذلك صراحتك معي . وانا واثق بانك ستغيّر رأيك بعد مقابلته » .

ودّعت هذا الضابط وانا مرتاح الضمير لاني لم اترك في ذاكرتي شيئاً يتعلق بالمصلحة العامة او مصلحتي العائلية الا وذكرته له ، وعنـد الباب الح عليّ بمقابلة المستشار « ماي » فوعدته قائلًا : اني اذهب الى مرجعيون باستمرار وسأقابله بعد مدة » .

في مرجعيون

وبعد اسبوع قصدت مرجعيون وتوجهت تواً صوب مركز الكابـتن « ماي » ودخلت على شاب جميل الطلعة قاسي المظهر استقبلني وكأنـه يعرفني معرفة سابقة وبادرني : ان الكابتن بشكوف معجب بــك كل الاعجاب لصراحتك الكاملة ، وانا اريد منك ان لا تتردد في مصارحتي

بكل ما يجول في خاطرك واحب ان تتردد علي بصورة غير منقطعة »
فما كان مني الا ان اجبته باني تعوّدت الصراحة معكم ولن اسلك غير سبيلها ، اما بصدد استمرار زيارتي فيعود الى ما سألمسه من ارتياح لمقابلتي واستعداد لسماع ما اقوله وتنفيذ المعقول منه .. واخذت اتباحث معه في جميع النواحي التي ذكرتها مسبقاً للكابتن بشكوف وبنفس الصراحة والوضوح ، فكان مسروراً للغاية ، وكانت اسارير وجهه تدل على مرح يفوق مرح زميله الكابتن بشكوف .. وبعد ان سردت له كل شيء ، هممت بالانصراف ، واذ به يعترضني قائلا : « هذا ما لا اسمح به مطلقاً ، يجب ان نتناول طعام الغداء معاً واصرّ علي إصراراً ملحاً .. ».
فقبلت هذه الدعوة العرضية شاكراً . ثم دخلت واياه الى الجناح الثاني من مكتبه حيث يقطن ، وهناك استقبلتني امرأة حسناء واخذت تتكلم معي باللغة العربية الفصحى ، فاذا هي من حلب صديقة الكابتن ويعيشان معاً .
لقد بسطت المائدة ، بعد برهة ، فاذا هي الكرم والسخاء والذوق في آداب الضيافة ، فتناولنا الطعام بكل شهيتنا ، واستنتجت من خلال حديث الرجل انه سيستقبل اناساً في بيته بعد فترة . وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر استأذنت حضرة الكابتن وصديقته الحلبية وانصرفت مرتاحاً للغاية لما شاهدت من دلائل حب التفاهم معي على ما اريد . وبعد مدة وجيزة كلمني هاتفياً واخبرني انه سيقصد بيروت وانه يريد مقابلتي والتعرف على زوجتي ، وكان ان حضر الى بيروت فاستقبلته في بيتي في حي الصنائع . وهناك اخذ يتنقل في غرفه وباحاته كأخ يمرح ويسرح وكأنه يلهو طرباً . وبعد ان قضينا مدة ذهبنا معاً الى السينما ومن ثم قصدنا الى « الكيت كات ». وهناك نال السكر منه منالاً وافراً مما زاد في فرحه ولهوه وعربدته .
وكان ان تمكنت الصلات بيني وبينه فقامت بيننا صداقة قوية حتى انني كنت عندما اذهب بمسألة الى مرجعيون ادخل بيته واطلب ما اريد وامضي الليلة هناك حتى ولو كان غائباً عن البيت .

وبعد مضي مـدة كان الكابتن « ماي » قـد عرفني بمستشار الدرك الفرنسي في صيدا الكومندان « فرنفريد » وكان رجـلاً طيباً للغاية . وكذلك عرفني بمستشار الدرك في جبـل لبنـان ، « ايرول » وكان اكثر طيبة من سواه ، وخاصة معي شخصياً ، فانه كان يشغل الى جانب مستشارية الدرك في الجبل ، منصب رئاسـة المجلس التأديبي ، فكان اذا سنحت له الفرصة والظروف يوعـز الى كل من يمثل امامه في محاكمات المجلس ، ان يجعلني وكيله لادافع عنه اثناء المحاكمة رغبـة في ان أنتفع مادياً في الدفاع عن الحق ، وكانت مساعداته تلك تدل دلالة واضحـة على انه يريد تشجيعي في مهنة المحاماة .. وكان ان عُرِفتُ بانني صديق له فكانت توكل الي الدعاوى الكثيرة . وكنت انا اراجع هذا المستشار بامور ادارية تتعلق بها فيخدمني قدر استطاعته وتدر علي نفعاً ماليـاً ومعنوياً لا بأس به .

نشر السجون

وفي احد الايام دخل مكتبي التاجر الحاج محمود منيمنة واخبرني بان احد اقاربه ، توفيق منيمنة ، قد سجن في سجن بعبدا وقد فرض عليه مفتش الدرك عقوبة ستين يوماً يقضيها في « الزنزان » لمخالفةٍ مسلكية داخل السجن ولم يعلم هذا المعاقب نوع المخالفة . ثم طلب الي الحاج محمود ان اتوسط لرفع هذه العقوبة عن هذا السجين .. وكان المرجع الوحيد هو المفتش ايرول ، فطلبت من الرجل مبلغاً من المال لقاء العمل بحكم وظيفتي كمحامٍ وطلبت اليه ان يأتيني بسيارة ، وذهبت واياه في الحال الى بعبدا ، وما ان دخلت غرفة المفتش حتى بادرني مرحباً بي : « اهلاً وسهلاً بك ... قل ما اذا كان لك من مصلحة اقضيها لك شريطة ان لا تكون لصالح

الشخص المسمى « توفيق منيمنة » ، فدهشت كثيراً لهذا الشرط ولم اجب . ولما كرر السؤال ، قلت : « يا حضرة القومندان اظن انّ لا لزوم للبحث فيما اريد ، والاجدر بي ان اعود من حيث اتيت لانني آتٍ بقضية هي قضية توفيق منيمنة نفسه » ، وما ان سمع القومندان كلامي حتى نهض عن كرسيه وغادر مكانه نحوي ونظر الي قائلاً : « هل تعلم ماذا فعل هذا الرجل ؟ »

ولما نفيت علمي بما اقدم عليه ذاكراً انني لا اعلم الا انه ارتكب مخالفة ادارية داخل السجن ، نظر اليّ القومندان بدهشة وقال : « واي مخالفة .. فقد كان بيني وبين الفصل من الخدمة قيد شعرة ، كل ذلك بسبب هذه المخالفة التي ارتكبها من تتوسط لمصلحته . وتابع القومندان كلامه بدهشة وتأثر : « حُكم على هذا الرجل بالسجن المؤبد لارتكابه جريمة قتل كان ضحيتها المرحوم اسعد بك خورشيد مدير الداخلية ، وقد استحصل بعد ذلك على تقارير طبية تفيد أن صحته لا تتحمل سجن بيت الدين المعد خصيصاً لمثل هذه الجرائم ، فنقل الى سجن بعبدا ... وذات يوم ادخل له احد معارفه او احد اقاربه وعاء فيه « كبة بالصينيـة » وكان قد خبأ تحت الطعام منشاراً حديدياً ... وكان ان اقدم توفيق على نشر قضيب من القضبان الحديدية في النافذة ثم ألصقها بمادة كانت في حوزته ليكمل في المرة الثانية نشر القضيب الثاني . وصدف ان نزلت لاجراء التفتيش في السجن ، وبينما انا اباشر اعطاء التعليمات للسجناء وللمشرفين عـلى السجن بوجوب تنظيف حائط النافذة المذكورة ، وضعت يدي على قضيب الحديـد الملوث بمادة لزجة فانهار هذا القضيب تحت يدي ، وبعد التحقيق تبين ان توفيق منيمنة هو الذي اقدم عـلى هذا العمل . وتصور انه لو تأخرت مـدة اربـع وعشرين ساعة فقط عن التفتيش لاستطاع هذا الوقح اكمال عمله فيهرب ومعه سبعة وعشرون سجيناً ، فتأمل هذه المخالفـة التي اوهمك قريب الجاني بانها «بسيطة» . فما كان مني بعد ذلك ، وبعد ان دهشت

كثيراً من هذه الحالة ، الا ان قلت للقومندان : « يا سيدي انني محام ... يهمني ان اخدم احد افراد عائلة منيمنة ، خاصة ، وهي اسرة بيروتية كبيرة ومحترمة ، وقد اخذت من احد أقرباء هذا الرجل عشر ليرات عثمانية تعويضاً لانتقالي من بيروت الى بعبدا ورسماً للمراجعة ، ولكن لا بأس ، وقد عرفت حقيقة الامر ، من ان اعيد المبلغ لقريب الجاني توفيق منيمنة ، واني اطلب المعذرة لمراجعتي في قضية كادت تؤذيك شخصياً . ثق بأني لو كنت اعرف الحقيقة لما راجعت » وهممت بالانصراف ، واذ بالقومندان يستوقفني فأدرت نحوه وجهي بعد ان توقفت ، واذا به يفكر تفكيراً عميقاً ثم نظر الي وكأنه فرغ من التفكير ثم قال : « يعز علي ان تقصدني فلا البي طلبك ولا سيما اذا كانت القضية تعود عليك بالنفع والتشجيع والشهرة في مهنة المحاماة . لن اخيب امالك وان كنت قد رفضت وساطات كبار موظفي الدولة » وما ان فرغ من كلامه حتى امر بالافراج عن هذا الرجل ونقله من الزنزان الى السجن العادي . ولم اكن لاصدق ذلك رغم اني سمعته ، وكدت اطير فرحاً لهذه النتيجة التي لم اكن لانتظرها ابداً ، فشكرت القومندان بحرارة فائقة ثم ودعته بعد ان قال لي : « عسى ان يقدر هؤلاء الاشخاص اهمية هذه الخدمة ، ويحفظوا لك هذا الجميل . »

صديق الفرنسيين

وبعد انقضاء مدة وجيزة على عودتي الى بيروت تناهى اليّ اتهام الناس لي بأني « صديق الفرنسيين ... » واخذت اقبل المراجعات الادارية ، وتوكل الي الدعاوى أمام القضاء العسكري . وكان القومندان « ايول » وسواه في اثناء ذلك سبباً في معرفتي لمعظم افراد الجالية الفرنسية مدنيين وعسكريين . وتعرفت الى شاب افرنسي كان يحرر في جريدة « الاوريان » ويسمى « ماكس فيلار » ، وكان هذا الشاب لطيف المعشر

حاضر النكتة وفياً لاصدقائـه ، يتصف بدوام حركته . وكان يعرف جميع الفرنسيين في بيروت وله عندهم نفوذ واسع ، وكانت صلتي بـه سبباً لصلة مستديمة مع جميـع الفرنسيين وخاصة السياسيين منهم . وكان ان اوكلت الي دعوى للسيد راشد منيمنة وقد قبض عليـــه في سوريا خلال نقله في القطار نحواً من اربعين كيلو من البارود ونحواً من الفي اصبع ديناميت ... وقبل ان اذهب الى دمشق للاطلاع على اوراق الدعوى حصلتُ على توصية من مدير الامن العام المسيو « بوشيـد » لاحملها الى احد الضباط هناك الكابتن « برواي » المستنطق العسكري الذي تعود اليه الدعوى . ولما دخلت غرفته وجدته شاباً يقارب الثلاثين بهي الطلعة فيه خصال الرجل بكل معناها . وبعد ان انهيت الحديث واياه بصدد الدعوى وما تتطلبه ، بدأنا الحديث باشياء خاصة مختلفة متفرقة ، فـاذا هو من امهر الصيادين يتقن هذه الهواية ، واكد لي انه رغم سكناه منذ خمس سنوات في الشام ، فانه لا يذكر مرة واحدة انه تناول طعام الغداء في بيتـه او في اي محل آخر في المدينة ، اذ في كل صباح يخرج من بيته بعد ان يضع في السيارة طعام الغداء وكلاب الصيد وكل ما يلزم ، وبعد ان ينهي عمله في المحكمة ينطلق مباشرة الى الغوطة التي اصبحت مقره .. ولمـا اخبرته بانني اجيد هواية الصيد وأحبها طلب الي ان اخرج معـــه الى خارج المحكمة ليريني كلاب الصيد في السيارة ، ومن ثم نذهب الى بيته ليعرض علي اسلحة الصيد المتعددة الاجناس ، فخرجت معه من المحكمة وركبت سيارته حيث شاهدت كلبين من اجمل الكلاب . ولما وصلنا الى بيته وولجنا العتبة اخذ يعرض على انظاري الاسلحة العديدة المختلفة فخلت انني في مستودع للاسلحة ، ثم تمّ الاتفاق بيننا على ان اعود الى دمشق في فرصة ثانية لنذهب معاً الى صيد « الترغل » .

صيد مع المتنطق العسكري

وصدف ان تأجل موعد جلسة موكلي الى الاسبوع التالي فقصدت الشام في هذا الموعد. وبعد ان انهيت مع الكابتن «برواي» الجلسة الرسمية المخصصة لدعوى موكلي، توجهت واياه صوب الغوطة حيث تناولنا طعام الغداء، واسترحنا قليلاً. وعند الاصيل توقفنا على ضفة نهر صغير بين الاشجار الكثيفة الكبيرة نرقب مرور «الترغل»، ويا له من حظ، فقد كان «الترغل» يمر فوقنا بكثرة زائدة لدرجة اننا لم نعد نستطيع تعبئة الجفت بالخرطوش بعد ان نكون قد اطلقنا النار، الا ويمر فوقنا، في الفترة القصيرة، الكثير من هذا الطائر وشاهدت من مهارة هذا الصياد ما جعلني اشهد له بان لا يوجد صياد امهر منه اطلاقاً. وكان كلبه «ستوب» يقوم بواجبه خير قيام بمهارة وذكاء وخفة في الحركة فكان يلتقط الطريدة ويداعبها، فاذا كانت ما تزال حية اجهز عليها بضربة من كفه ثم يضعها امامه، حتى كوّم تلة لا بأس بها من الطرائد. وكان ان توقفت انا عن اطلاق النار لانني فضلت ان اراقب الكابتن اثناء صيده على ان اشاركه في الصيد لانه فاقني كثيراً في عدد الطرائد. وقد احسست بسرور عظيم اثناء اطلاقه النار واصابته الهدف بخفة ومهارة ودقة. وعند المساء عدنا الى المدينة وتوقفنا عند «اوتيل اوريان بالاس» حيث كنت مقيماً، فودعني الكابتن وانصرف الى بيته. وفي اليوم التالي عدت الى بيروت ومكثت هناك مدة أبلغت اثناءها بموعد الجلسة القادمة للنظر في دعوى موكلي واعطاء الحكم فيها، فعدت الى دمشق في الوقت المعين ودافعت عن موكلي امام المحكمة العسكرية، فكان ان حكم عليه بالسجن مدة سنة كاملة. اما انا فقد كنت جد مسرور لهذه النتيجة التي لم نكن ننتظرها ايضاً نظراً لماهية الجريمة المسندة الى موكلي. وقد خففت المحكمة عليه العقاب

نظراً لان الضابط الذي اصبحت صديقه الحميم كان قد لفت نظر الحكام الى العطف على هذه القضية ، ولكن اهل موكلي لم يرضوا بهذا الحكم وظنوه مجحفاً بحقهم ، فرفعت القضية الى محكمة التمييز ولكني خسرتها هناك. وبقي اهل موكلي معارضين لهذا الحكم ولكني توصلت في النهاية لحسن الحظ الى استصدار امر بالعفو عن السيد راشد منيمنة من الجنرال قائد الجيش بواسطة مدير الامن العام المسيو « بوشيد » .

واخذت بعد ذلك اتدخل بصورة غير مباشرة بامور كثيرة تخص سياسة الجنوب وبدأت احرر في الجريدتين الفرنسيتين « الاوريان » و « اللاسيري » وفي مجلة « جحا » التي كان يصدرها اسبوعياً المسيو فيلار وكانت مقالاتي تبحث بعض الامور التي تتعلق بحالة الجنوب ومستقبله وسير الاحوال فيه مع بعض التعليق الذي لا يخلو من غمز وتلميح ضد يوسف بك الزين وبقية نواب المنطقة وعن الاعمال التي يأتونها .

خلاف وسفر

وشاءت الظروف والاقدار ان يقع خلاف بيني وبين زوجتي . وامتد هذا الخلاف حتى حدا بزوجتي للسفر الى باريس فتركت بيروت واعتقدت انه بامكاني ان احيا بعيداً عنها . ولكن ما لبثت ان تأكدت خيبة الظن فألفيت نفسي بعد مضي عشرين يوماً على ظهر باخرة أسبيريا — بيروت — مرسيليا ، فبلغت باريس وانا على احر من الجمر لاحظى ببوليت ، ولكني رغم كل ذلك لم اذهب تواً الى بيتها لانني فكرت بان مثل هذا التصرف يفقدني شيئاً من كرامتي ، فنزلت في فندق قريب من البيت ووضعت خطة بان اتردد الى حيث تتردد هي حتى اجد من افراد عائلتها من يراني فيسعى بالصلح بيني وبينها دون ان اباحثهم انا في البدء .

جوهر الناس .. ومظهرهم

خرجت يوماً من الفندق اتمشى ، على غير هدى ، يتجاذب تفكيري عاملان ملحّان احس تأثير تضادهما في دخيلتي وكأنهما يصطرعان ، عامل الانفة والكبرياء الذي يدفعني الى عدم الاسفاف في قيمة مشاعري وعدم الاستخفاف في سبيل حفظ كرامتي ، وعامل الحب الملح الذي دفعني الى المجيء من وطني الى باريس لالتقي بمن احب وأسوّي الامور . وكان هذا العامل اقوى وقعاً في نفسي من ذاك ، ولكني لم أشأ ان اتنازل عن شيء من تعنتي بما يجول في خاطري من معاني الانفة ، فألهمني القدر ان اقضي الامر ولو موقتاً بشيء آخر ، اذ ان الشوق عندي بلغ اشده من جراء تعقيد الازمة الداخلية في نفسي خاصة واني لم اكن لارضى باحد الحلين . وصدفة رأيت نفسي امام بار « فانتازيو » فولجت رتاجه ، ولما جلست على الطاولة طلبت كأساً من المشروبات الروحية ، ثم كأساً ثانية وهناغصت في لجة تفكير عميقة بدت آثارها ظاهرة على ملامح وجهي . وبينما انا في هذه الحال اذ بسيدة تقترب مني وتطلب الي اذا كنت احب ان تجلس لتشرب معي . ودون ان اقطع اوصال تفكيري اشرت اليها بالجلوس وبأن تشرب على الا تتكلم معي ابداً ، ذلك تخلصاً من الحاحها . فجلست جنبي وهي تنظر الي . وبعد برهة ، ومن خلال لحظات تفكيري ، لمحت سيدة اخرى تقترب من الطاولة حيث اجلس وتسألني نفس السؤال التقليدي وهو اذا كنت احب ان تجلس لتشرب معي فاشرت اليها بالذي اشرت به الى رفيقتها وهكذا الفيتني بين سيدتين تشربان وتنظران اليّ ، وكل ما اذكره من تلك الجلسة انني لم اكن لاقصد منها اية لذة او ترويح عن نفسي المتعبة بشتى الافكار ، بل قصدت من السماح لهما بالجلوس على الصمت تجنباً للابتلاء بالحاح مثيلاتهن وحفاظاً على الهدوء والسكينة لنفسي ... وفجأة غبت عن هذا الوجود ، ولم اعد لأحس

ما يدور حولي .. ولما استعدت رشدي ثانية وجدت نفسي مستلقياً على الفراش بكامل ثيابي وقد خلع حذائي ، فخطر ببالي دون وعي ان الدراهم قد سرقت من جيبي ورأيتني امدّ يدي مداً اليها وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدتها كاملة غير ملموسة . حقاً كنت في شبه حلم تلفتّ فيه ابحث عن السيدتين فلم اجدهما لا يميناً ولا شمالاً ، ورحت اسأل نفسي من اعتنى بي ؟ وكأنني استعدت كل الصور المتعلقة بالموضوع فحضرت الى ذهني تدريجياً . فلقد كنت جالساً في البار مع سيدتين نشرب... وكنت انا افكر ... ثم ماذا ؟ وقطع تصوراتي هذه رنين الجرس وبعد هنيهة دخلت علي سيدتان عرفت انها سيدتا البار ، فبادرتني احداهما قبل كل شيء بسؤالها عن صحتي ، واخذت انا اسألها بدوري بعض الاسئلة ، ولما سألتها عن الذي دفع ثمن المشروبات للبار اجابتا : بانها تعهدتا لصاحبه بأني سادفع له ما علي في الغد . وعلمت من جراء حديثها انها هما اللتان جلبتاني من البار الى الفندق واعتنتا بي . وهنا بلغت دهشتي اشدها اذ انه لا يعقل ان يحدث امر كهذا على يدي مثيلاتها ، فسألتها لماذا لم تسرقا دراهمي ؟ وكم كانت دهشتي عظيمة ، بل كم كان خجلي من نفسي شديداً عندما سمعت احداهن تجيبني عن سؤالي ذاك : « يا مسيو اننا لم نكن لنسرق ونشلح التعساء ، فانت تعس . ثم نظرت الي واكملت حديثها قائلة : لقد لحناك ونحن في البار تفكر تفكيراً يدل على انك تعس ، خاصة واننا شاهدنا دمعة تسيل على خدك ، ثم ان معاملتك لنا بتلك الصورة اوضحت لنا انك لست كبقية الزبائن ، ثم اننا انصتنا لجميع حركاتك وهذيانك اثناء نقلك في السيارة ، فقد تكلمت كثيراً عن المشكلة التي تشغل بالك حتى انك في الاغلب لم تترك شيئاً إلا وقلته في غفوة عقلك الحسي ويقظة عقلك الباطني » واستطردت هذه السيدة وقد بلغت دهشتي اشدها فقالت : « واننا لمستعدتان للتوسط بينك وبين زوجتك اذا سمحت لنا بذلك وسنذكر لها كم انت شهم وكريم ، وسنعرض

لها سجاياك الحميدة وخاصة اخلاصك لها ووفاءك نحوها . فشكرتهما على هذا العمل النبيل الذي لا يمكن ان ينتظر مـن سيدتين تعملان في بار ، همهما الاول الحصول على المال باية طريقة كانت . واعتذرت لهما بعد ذلك عن سوء ظني بهما في بادىء الامر ، فضحكتا من هذا الاعتذار وقد لمحت من خلال ضحكهما وحديثهما اشياء واشياء تخفيانها بسبب الحرمان من حياة هادئة ومظاهر باهرة تأسر القلوب . رأيت في اعماق اعماقهما روح العفة والحنو، ولكنها روح لم تجد من يبادلها العطف ، فلبست مرغمة في احـكام المجتمع لباس الاغراء والعبث ، تدفعان به هموم الدنيا على باطل الحياة في جـو ليس هو بجوهما الأصيل الذي بنيت عليه طبيعة نفسيهما ... كل ذلـــك خطر ببالي صوراً انسانية قد تتمثل كل يوم عـــلى مسرح الحيـاة ولا يعيرها احد اهتمامه ويظل ينظر الى مثيلات هاتين السيدتين نظـــرة الشهوة ثم يسمي نفسه كريماً فاضلاً اذا اشترى من عفافهما وطهارتهـــما لحظة لا تؤثر بالنسبة لهما في جوهـــر انسانيتهما ابـــداً .. ثم قطعت حبـل تفكيري وقد اخذت هاتين السيدتين صورة ، ان لم اقـل عنها ، انها مثالية فهي على الاقل نادرة في المجتمعات المتمتعـــة بصفـة الشرف والكرامة والعزة . خرجنا بعد ذلك من الغرفة فدعوتهما الى تناول الطعام معي ، فقبلتا هذه الدعوة ، وقد حاولت جهدي ان اقنعهما بان يقبـلا الدخول الى احد المطاعم الكبيرة ولكنهما رفضتا ذلك لارتفاع الاسعار . وكان ان دخلنا مطعماً من الدرجة الوسطى وتناولنا طعام الغداء ، وبعد ان انتهينا توجهت واياهما الى البار فسددت ما علي من الدراهم واما هما فقد تنازلتا عن حصتيهما لصالحي انا ، واردت ان اقدم لكل منهما هدية ثمينة كذكرى ولكنهما ابتا عليّ ذلك واقنعتهما اخيراً بقبول قلم من « العطر » ثمنه عشرون فرنكاً هدية متواضعة ، واعطتـــني كل منهما عنوانها لأتصل بها اذا اردت مراجعتها بشأن المباحثات بيني وبين زوجتي ثم انهت احداهما الحديث وكأنها ارادت ان تقنعني بصدق انسانيتها معي

وبصدق اخلاصها للحياة وبانها طاهرتان رغم العمل الذي تشغلانه فقالت : « ان لي ولداً صغيراً وانا اريد تربيته تربية طيبة ولم استطع تحقيق هذا الامل الا بامتهان هذا العمل » . ثم اردفت كلامهـــا وهي تبتسم ابتسامة مليئة بالحسرة والحرمان والألم : « وبما اننا بؤساء تعساء نفسيـاً فاننا لا نستطيـع من الوجهة الانسانية ان نسلب التعساء مثلنا ، ولا نستطيـــع الاساءة اليهم ابداً لا لشيء سوى لانهم مثلنـا » ثم ودعتاني وانصرفتا ... وهكذا تعلمت من هذه الحادثة درساً انسانياً قيماً من ناحيته الاجتماعيـة النادرة الغريبة . ونرى ان الحكم على جوهر الناس من مظاهرهم ، ومن طبيعة العمل الذي يأتونه قد يكون خاطئاً في بعض الاحيان ، لان ظروف الحياة والمجتمع في هذا العصر تفرض على الانسان مظاهره ونوع عمله دون ان يكون بين هذا العمل وهذه المظاهر من جهـــة وجوهر الانسان من جهة ثانية اية صلة اصيلة حقيقية .

شوق وصلح

وفي اليوم التالي ألفيت نفسي لم اعد أقوى على تحمل البعد عن زوجتي ، خاصة واني قريب من منزلها . فذهبت تواً الى بيت ابنة خالتها التي ما لبثت حين شاهدتني ان اخبرت بوليت . وهنا تدخل اهل زوجتي واقاربها بالصلح ، وكان ان عادت سماء حياتنا الزوجية الى سابق صفائها ...

مشروع ... ورحلة

قضيت مـــدة في باريس اجتمعت اثناءها ببعض الرفاق وفي جملتهم صديق يدعى « ج . كالفيه » ، وبينما كنت اتحدث واياه اخـــذ يكلمني عن هواية الصيد في أملاك الكونت « ده لاسكالوبيه » فأخبرته بأني مغرم بهذه الهواية وأحسن هـذا النوع من الرياضة الخفيفة . وبالحال صارحني بأنه سيكون سعيداً جداً إذا لبيت دعوته لحفلة الصيد التي سيقيمها خاله في

املاكه ، ولما حاولت الاعتذار لعدم وجود لوازم الصيد عندي اجابني بأنه لا يلزمني سوى الثياب الخاصة لمثل هذه المناسبات ، واما باقي اللوازم من اسلحة وخرطوش الخ ... فتقدم من قبل خالي ، فقبلت الدعوة شاكراً . وبعد اسبوع تلقيت من الكونت « ده لاسكالوبيه » دعوة رسمية يذكرني فيها ان لا انسى اللباس « السموكن » . وكانت دهشتي عظيمة ، اذ اننا سنقوم بصيد الطيور فلمَ يتوجب علينا اذن ان نلبس « السموكن » ؟ ولم اجد لذلك جواباً عندي . وعلى كل حال ، كان علي ان لا أهمل هذه الناحية فأمنت ما طلبه ، وقصدت في الوقت المعين مكان الاجتماع حيث كانت تنتظرنا سيارة اتوبيس كبيرة ، فجلس كل منا في المقعد المخصص له وكان مجموعنا يقارب الخمسة والعشرين شخصاً ، وتوجهنا صوب مقاطعة « الشارتر » وهي تبعد نحواً من مائة وخمسة كيلومترات عن باريس ، ووصلنا بعد مدة الى مكان يسمى « الشاتودان » فدخلنا هناك قلعة قديمة مرتبة من الداخل على الطراز الحديث ، وكان فيها نحو من خمسين شخصاً ، فتناولنا طعام العشاء ثم دخلنا الى غرف القلعة حيث خلعنا لباس السفر وارتدينا « السموكن » وقضينا سهرة راقصة ممتعة كأننا في أحسن مراقص باريس ، وذهب بعضنا الى الضواحي حيث قضى هذه الليلة ومنا من قضاها في ضيافة الكونت ، وعند الصباح اجتمع الصيادون فأدخلنا الكونت الى غرفة تحوي ما يقارب الثلاثين « جفتاً » وضع على كل منها داخل الواجهة الزجاجية بطاقة صغيرة تشير الى ماركة السلاح وعياره وكل ما يتعلق به الخ ... فانتخب كل منا سلاحاً يفضله ثم خرجنا لصيد الحجل في غابة من املاك الكونت تكتنفها الاشجار الكثيفة فكأنك في حرج الصنوبر في بيروت . وانتشر الصيادون في هذه الغابة يفتشون عن الطرائد ، اما أنا فكنت أطلق النار على الحجل الذي يطير أمامي وكأني أطلق عبثاً في الفضاء . كنت سيء الحظ اذ أنني لم أتعوّد الصيد في الغابات الكثيفة . لعنت

الساعة التي اخبرت فيها ابن اخت هـــذا الكونت ، أني أحسن هواية الصيد ، ولكن سرعان ما انقشعت الغمامة عن عيني وقلبي اذ شاهدت طيراً كبيراً بحجم الاوزة « فازان » يطير في الفضاء ومر امامي ببطء وكان في كل مرة يرتفع الى اعالي الاشجار ويرفرف برهة وكأنه يتلمس طريقه ثم يأخذ الاتجاه الذي يريد . فصوبت اليه واطلقت النار فارتمى فوراً . انتهينا من الصيد وتناولنا طعام الغداء ، ثم اخـــذ حضرة الكونت منا ما اصطدناه وامر خدمه باعداد الطرائد لارسالها هدايا الى اصحابه ومعارفه في باريس ، واخذت اشاهد طريقة إعدادها . كان الخادم يبقر جوفها وينظفه ، ثم يلف كل رزمة منها على حدة بورق مخصص وبعد ذلك توضع بطاقة باسم الكونت على كل رزمة من هذه الرزم ويكتب عليها اسم الشخص المرسلة اليه ... وبعد ذلك عـدنا من حيث اتينا شاكرين للكونت « ده لاسكالوبيه » حسن ضيافته وكرمه ، وكانت تلك الرحـلة حادثاً لا ينسى لما لمسناه من جمال وحفاوة ولما حصلنا عليه من راحـــة ولهو ممتعين .

عودة وخلاف وهجر... وزواج ثان

عدت بعد مدة مع زوجتي الى بيروت ، ولكن النزاع بيني وبينها ما لبث ان تجدد واشتد ، فما كان منها الا ان عادت الى باريس ، اما انا فصممت على عدم اللحاق بها واسترضائها ، وأعنت نفسي على تحمل هذا الهجران ، وكانت كرامتي تأبى علي ان اقف موقفاً غير هذا ... وما لبثت بعد مضي شهرين او اكثر من انفصالها عني ، ان عاودني الحنين الى الماضي وذكرياته . اشياء لا تتناسب وكرامتي وما صممت عليه . قررت ان اتزوج من جديد ، وبذلك وحده استطيع ان اضع السد المتين الذي يحول بيني وبين الانجذاب وراء ذكرياتي ، فاسدل بذلك الستار على حب لم احس بمثله ابداً حتى هذه الساعة ، ولا اظن اني ساعيد هذه المسرحية الرائعة ثانية . وبدأت افكر بنوع تلك

المرأة التي سأتزوجها وطبقتها ودينها ومذهبها وسلوكها الاجتماعي فانا لا استطيع ان اتزوج امرأة محجبة ، وكذلك لا استطيع ان اقترن بسيدة مسيحية دون إحداث ضجة مدوية . خاصة وان زوجتي الفرنسية ما تزال على عصمتي . وكذلك لم استطع الاقتران بفتاة من عائلتي كنت قد شاهدتها واعجبت بها ، وهي ما تزال على مقاعد الدراسة ، فشن عليّ اهلي حملة من المعارضة حملت لواءها المرحومة والدتي ، رغم ان الفتـــاة المعنية من اقرب الناس اليها فهي ابنة ابنة شقيقتها ، وانا بدوري اعرضت عن الفكرة احتراماً لشعور والدتي ، وهكذا ألفيت نفسي امام امر واحد استقروت عليه فنـــال رضى الجميع ، وهو أن اطلب يد الانسة ميمنة الصلح ابنة المرحوم نسيب بك الصلح ، وكان سامي بك الصلح عمها وولي امرها ، فاجابني الى طلبي وهكذا اقترنت بها - بعد اربعة اشهر من رحيل بوليت - وهي سنية المذهب وسافرة في نفس الوقت مما يتناسب مع عقـــليتي وماضيّ ، وقد عمدت قصداً الى تعميم الخبر في الجرائد العربية والفرنسية لتلم زوجتي السابقة بالامر ، فنضع حداً نهائياً لعلاقاتنا .

حول المعركة الانتخابية

وحدث في اثناء بحثي عن شريكة حياتي هذه الثانيـــة ، ان بدأت حركة الانتخابات النيابية ، فتوقفت مدة وفكرت جدياً بخوض المعركة التي لا ضرر من خوضها رغم ان هناك عوامل عديدة سلبية لا تضمن لي النجاح . اخذت في جميع المجتمعات انبه الوجهـــاء والسياسيين الى مقاصدي تلك ، وكان للشيعة في ذلك الحين مقعدان فقط في الجنوب ، وكان يوسف بك الزين ، وهو طبيعياً صاحب المقعـــد الاول ، ينتظر منفرداً ولكن بوحي من السلطة ، ليربط مصيره بالمرشح الثاني ، وكان نجيب بك عسيران وفضل بك الفضل يتخوفان مـــن نيات يوسف بك ، لانهما كانا يعتقدان تماماً بأنه سيؤيد علي افندي عبد الله ، فانتهزت هذه

الفرصة واخذت وعادل بك عسيران نحثهما على الخروج عن طاعة يوسف بك الزين ، فنجحنا في ذلك اذ انهما احسا بما يتذوقه الكابتن بشكوف من ضروب المعاوضة ليوسف بك . وفعلاً فقد تقرر إقامة حفلة عامة في منزل نجيب بك عسيران تضم جميع العلماء والوجهاء . وابتدأت المساعي تبذل لحمل العالمين الكبيرين المرحوم السيد محسن الامين والمرحوم الشيخ حسين مغنية ، ولكن الاول اعتذر ، وأما الثاني فقد حضر وترأس الاجتماع وكان يضم عدداً لا يستهان به من رجال الدين ورجال السياسة وخصوصاً من الشباب المثقف الواعي ، فقد القيت الخطب الحماسية ، وكان خطابي عنيفاً للغاية حتى انه وقعت مشادة كلامية بيني وبين المحافظ كميل بك الشدياق حول الاطلاع على مضمون خطابي قبل القائه فعاوضته لفظاظة طلبه خاصة وانه كان من مواكبي يوسف بك الزين . ولأول مرة في مثل هذه الاجتماعات تعرفت على شباب منطقة بلاد بشارة وضمنها « جبل عامل » حيث تعرفت بالاصدقاء : علي بزي والحاج علي بيضون وموسى الزين شراره وحسن الحاج فياض شراره وغيرهم وغيرهم .

وبعد انتهاء الاجتماع ، أخذنا نعد برنامج متابعة العمل تلبية لرغبة الجماهير التي اسلمت امرهـا لنجيب بك وفضل بك بالمطالبة بحقوق الطائفة والمنطقة . وفي هذه الاثناء مرت سيارة تقل سيادة المرحوم السيد محسن الامين وهو في طريقه الى « كفر رمان » حيث يقيم يوسف بك الزين اجتماعه ، وحاولنا اقناع سيادته بعدم حضور اجتماع « كفر رمان » ما دام انه لم يحضر اجتماعنا . وكانت مشادة بيننا وبين سيادته في هذا السبيل ولكن عبثاً حاولنا اقناعه . قصدنا في اليوم التالي الى بيروت وكنت بصحبة النائبين نجيب بك عسيران وفضل بك الفضل اقوم بوظيفة ترجمان للغة الفرنسية ، وهناك قابلنا جميع المراجع السياسية ثم عاد كل منهما الى محل اقامته . واخذت المعركة الانتخابية تشتد يوماً بعد يوم وتحتدم المنافسة ساعة بعد ساعة ، وقد فتح القومندان بشكوف باب المراجعات

والاستشارات حيث كان يطلب الاطلاع على آراء الوجهاء والسياسيين ، وكنت من جملة المدعوين لابداء رأيي في هذه النواحي فدخلت على القومندان بشكوف وكان بجانبه الكابتن « ماي » يقوم بمهمة اختصار آراء المستشارين ، فسألني بشكوف عن رأيي بالانتخابات فأجبته بأن هذا السؤال واسع جداً ولكي استطيع ابداء رأي فيه يجب ان احاط علماً بما اذا كانت الحكومة المنتدبة تميل لايجاد وجوه جديدة في المجلس ام انها تبحث بين الوجوه القديمة التي كانت وما تزال على منبر السياسة . فطلب الي ان ابحث في الرجال القدماء وكان اول سؤال وجهه اليّ بهذا الصدد ما رأيك بعبد اللطيف بك الاسعد ؟ فأجبته بان عبد اللطيف بك هو خالي ولا يجوز ان يستشار احد بماهية قريبه . فقال لي انه يريد رأيي على سبيل الاستشارة فرحت ابحث في ماضي المرحوم خالي وفي حاضره ومستقبله وكنت في حديثي بمنتهى الصراحة متجرداً من كل عاطفة قربى او صلة سياسية فلم اتحامل على الرجل ولم ابالغ في تعظيمه .

السؤال الثاني

وكان سؤاله الثاني عن يوسف بك الزين ، فاخذت اشرح له باسهاب حقيقة الاوضاع التي تسود المنطقة ، واخبرته بان العاملين في هذه الحقبة وبالنسبة لهذه الاوضاع سهلٌ انقيادهم للسلطة ولمن يأتمر بامرها وتثق به ، وهذا لا يعني ان العاملين باجمعهم لا يرضون بتصرفات يوسف بك ، فكل عمل طيب لهذه البلاد ينسب اليه وكل عمل مجحف بحقها ينسب مباشرة للانتداب والفرنسيين . واخبرته بانه رغم المساعدات التي قدمها الانتداب للجنوب والتوجيهات التي وضعها تحت ابصاره فان انحياز القادة وأولهم يوسف بك الزين ، عن المصلحة العامة ، هو السبب المباشر لضياع هذه التوجيهات ولانعدام قيمة المساعدات ، وهو ايضاً المولد الرئيسي لنقمة الشعب على الانتداب . ولا بد في مثل هذه الحالات من ان يزداد الوعي

الوطني عند الشعب فيشعر بحقه في الحياة المرفهة ، واني لاحيطك علماً بان العاملين ناقمون على الانتداب ، فان لم يكن ذلك لعامل سياسي وطني ، فهو لسبب اضطهاد اعوان الانتداب لهذا الشعب الكادح ، الذي لا بد ان يتولد فيه ، لهذه الاعمال ، شعور بالحاجة الى المعارضة والعصيان كلما سمحت له الظروف . وثق بأن يوسف بك الزين هو حامل لواء هذا الاضطهاد والتشريد في الجنوب . وبعد ان انتهيت من ابداء الرأي بيوسف بك الزين توجه الي بالسؤال عن نجيب بك عسيران ، فقلت له : يا سيدي توفيراً لوقتك ارجوك ان تدمج في هذا السؤال فضل بك الفضل ، لان الرأي في هذين الشخصين واحد لا يتجزأ واليك الفكرة الصادقة عنهما .

وقوف ...

اراد الامير فؤاد ارسلان مرة ، ان يصدق على مشروع في المجلس النيابي يظهر انه لم يكن ليرضي الحكومة المنتدبة ، فاستدعى مندوب المفوض السامي السيد « سالومياك » جميع النواب وطلب اليهم معارضته . وكان النائبان نجيب بك عسيران وفضل بك الفضل من جملة المدعوين . واثناء جلسة عرض المشروع ، جلس الامير فؤاد ارسلان بين هذين النائبين وبعد ان اوضح الغرض من مشروعه ، طرحه رئيس المجلس على التصويت ، فوقف طبعاً صاحب الاقتراح مؤيداً وامسك بيديه كلاً من نجيب بك وفضل بك ورفعهما الى اعلى فوقفا مؤيدين ، وكان المسيو « سالومياك » حاضراً الجلسة فثار ثائره لموافقتهما . وحدثهما بعد انتهاء الجلسة فاعتذرا بان المرحوم الامير فؤاد قد امسكهما رفعاً بثيابهما فاجبرا على الوقوف ....

حلق الشاربين

ونظرت ثانية الى القومندان بشكوف وهو ما يزال يستمع الي

وقلت : « اويد ان اقص عليك حادثة جرت لي شخصياً مع المرحوم فضل بك الفضل . عندما عدت من باريس ، جاء المرحوم فضل بك لزيارتي . وكان ان رددت الزيارة له في النبطية فاخذ يطرح علي اسئلة غريبة ، وسألني عندما دخلت : يا عمي متى تطلق العنان لشاربيك حتى تكتمل رجولتك ؟ فاجبته بانني سأحلق ما تركته من شاربي كما احلق ذقني . وكان سؤاله الثاني ما اذا كنت قد ذهبت الى مجلس النواب في فرنسا ، فاخبرته باني دخلته مرتين . عندئذ حسبت نفسي امـــام استاذ وانني مجبر على الاجابة كأنّ من يذهب الى باريس يجب ان يلمّ بكل شيء حتى ولو خرج عن نطاق تخصصه ، وقد سميت « بالفاتح » لانني اول رجل شيعي من جبل عامل ذهب الى باريس ليتخصص ورحت استجمع معلوماتي واسأل ذاكرتي الا تخونني في كل ما شاهدته وسمعته في باريس بانتظار سؤال يتعلق بالاحزاب السياسية هناك وبالحياة البرلمانية وبالابحاث الدولية الهامة ، واذ به بعد تفكير عميق يوجه الي هذا السؤال : ما هو شكل المجلس النيابي من الداخل ؟ ولا تسل عن دهشتي كم كانت عظيمة ولكني كتمتها وقلت شبه مازح : المجلس عبارة عن طاولات ومقاعد وكراسي ومنابر الخ ... فاجابني بتعجب : اذن هو كالمجلس عندنا . »

ذهاب الى جنيف

ومن اسئلته الغامضة المفحمة هذا السؤال : « اظن يا عمي أن الطلاب يذهبون كل يوم من باريس الى جنيف للتنزه ولمشاهدة عصبة الامم ، فلقت له : نعم اننا نتنزه كل يوم بالسير من باريس الى جنيف وهناك « نتفرّج » على عصبة الأمم وطلب مني وصف هذه العصبة ، فاخذت اكيّفها له على هواي » .

وما ان انهيت كلامي هذا مع القومندان بشكوف حتى اخذ يضحك ويضحك ثم قال هل انتهيت يا مسيو تامر ؟ فاجبته بالايجـــاب وكانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر فخرجت من الدائرة فناداني صديقي الكابتن « ماي » وطلب اليّ ان نتناول طعام الغداء معاً فقبلت وتوجهت واياه الى فندق في صيدا يقع وسط المدينة وجلسنا في احـدى زواياه ، وما ان استقر بنا المجلس حتى التفت الي الكابتن « مـــاي » وقال : « اشكرك يا رضا بك شكراً جزيلاً باسم فضل بك ونجيب بك لانك اسديت لهما خدمة عظيمة واعطيت عنهـــما صورة لا ننتظر نحن احسن منها . فدهشت من كلامه ولكنه كان جاداً حين اردف : « ان المصلحة تتطلب نواباً كهذين الرجلين ولو كان باستطاعتنا ان نملأ المجلس بامثالهما ندبرهم كما نشاء لما تخلفنا لحظة واحدة ، وقد نعجز نحن عن خدمـــة الانتداب مثلما يخدمه مثل هؤلاء . » ولاحظت انه يتكلم حقيقة ، فطلبت اليه مـا اذا كنت استطيع نقل القول رسمياً ان نجيب بك وفضل بك هما مرشحا الحكومة الرسميان ، فقال لي انت حر في اعـلان ذلك .

وبعد ان تناولنا الطعام ودعت صديقي الكابتن ثم خرجت وجلست امام دكان بائع السنيورة ، فمر امامي يوسف بك الزين بخطواته البطيئة متوجها نحو سراي الحكومة ، فرحت احدث نفسي ما اذا كان سيعارض الحكومة ام سيستسلم الى ارادة القومندان بشكوف ، ورحت اتساءل ما اذا كان يمكن لهذا الرجل وقد بلغ ما بلغه من القوة والسيطرة حتى كان الناس افراد عائلتي وسواهم، يهزجون له بقولهم مقدمين اياه على إمام الشيعة : « من بعد الله والنبي ، يوسف زعيم بلادنا » هل يمكن لمثل هذا الرجل ان يتنازل عن قوته وسلطته ، وعن زعامته ، وكان اقناع نفسي بذلك عسيراً جداً .

(١١)

احتدام المعركة ... ونصيحة

واحتدمت المعركة الانتخابية وراح الناس يبشرون بأن حكومة الانتداب قد اعرضت عن يوسف بك الزين وتخلت عنه وانها ستؤيد رسمياً فضل بك ونجيب بك ... وفي هذه الاثناء زارني خالي المرحوم عبد اللطيف بك وطلب اليّ المساعدة ، وقال انه مصمم على خوض المعركة . واخذت اعرض له الامكانيات فبينت له انه اذا خاضها معارضاً فلا يكون له إلا خفض كرامته خاصة وان اهل الجنوب تخلوا عن آل الاسعد ولم يعد من الحكمة ان يشعر ابن الاسعد بأنه خير من غيره ، غير انه بقي مصراً على ان يراجع الفرنسيين بالامر ويذكرهم بماضيه . وطلب اليّ ان ارافقه لمواجهة بشكوف و « ماي » وكانت اجوبة الاول سياسية غامضة ، أما الثاني فقد كان صريحاً للغاية فقال لخالي : « ليكن معلوماً لديك انه لم يبق لبيتك ولعائلتك اي اثر سياسي او اجتماعي او مادي ، وواجبك ازاء ذلك ان تقلع عن التفكير بماضيك ، وعليك ان تلزم بيتك وترتب امورك ومشكلاتك الداخلية وان تلتفت الى اخيك وولدك ، وحافظ على حالتك المادية ، ولعمري ان ذلك افضل واجدى لك من النيابة بكثير . . . . » عاد خالي المرحوم عبد اللطيف بك اثر هذا الاجتماع ولزم بيته تاركاً ميدان السياسة ، وقد نهجت انا هذا السبيل ايضاً لانني اعتبرت نفسي فائزاً بذهاب سلطة الرجل الذي لا يدين بفكرتنا . وبعد ذلك اجتمعت بعادل بك عسيران واعلمته بكل ما جد معي من حوادث ، وكنا في النهاية متفقين على ان نزع السلطة من يد يوسف بك لهي اكبر نعمة ينعم بها الجنوب ، وفعلاً بدأنا العمل معاً ووثقنا علاقاتنا بالقومندان بشكوف واخذنا نساعده في جميع المشكلات التي تعترضه بسبب اقصائه يوسف بك والتخلي عنه ...

خلاف بين ابوار وبشكوف

ومساء يوم اتاني مرافق الكابتن « ماي » واخبرني بان سيده ينتظرني في قهوة النجار فركبت السيارة ووافيت « ماي » وذهبت واياه الى الكيتكات حيث تناولنا طعام العشاء ، وقضينا السهرة هناك وبقينا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وطلب الي ان اكتم سر هذا الاجتماع لان في ذلك مصلحة لي فقال : « لقد اجتمعنا نحن المستشارين في المفوضية وبحثنا الانتخابات في جميع المناطق اللبنانية ، وقد وقع الخلاف بين « بشكوف » ومندوب المفوض المسيو « ابوار » فالاول يريد اقصاء يوسف بك نهائياً والثاني يعارض إقصاءه بهذه الصورة ويرى ان اقصاءه دفعة واحدة لا بد ان يحدث ضجة في البلاد لما كسبه هذا الرجل من نفوذ اثناء زعامته المطلقة ، وكان رأيه ان يكون يوسف نائباً هذه الدورة ثم تبدأ الحكومة اثناء ذلك بالحد من سلطته تدريجياً فلا تأتي الدورة الثانية الا ويمكن الاستغناء عنه نهائياً ، ولكن بشكوف اصر على رأيه معتبراً ان لا سياسة عامة في الجنوب حتى يُخشى من ضجة فيه وان مصدر القوة في سلطة يوسف بك هو الانتداب ، ومتى فقد هذا العنصر اصبح كسائر الناس وقد تعهد بفوز نجيب بك وفضل بك بالتزكية بمعنى انه لن يرشح احد سواهما في المنطقة . وقال « ابوار » انه اذا وجد من معارضة لهما سينظر ساعتئذ بامر ادخال يوسف بك » وتابع الكابتن « ماي » موجهاً كلامه الي : « هذه مناسبة اتمكن من خدمتك بها يا رضا ، فما عليك الا ان تذهب لبشكوف وتخبره بانك مصمم على خوض معركة الانتخابات فيتسنى لي ان اخدمك » .

شروط انتخابية

وفي صباح اليوم الثاني قصدت صيدا وقابلت القومندان بشكوف

واخبرته بانه آن لي أن أعرض عليه هذا السؤال ، فاذا اجاب بصراحة اكملت البحث والا عـدت من حيث اتيت ، ولما اكد لي انـه سيكون صريحاً معي منتهى الصراحة سألته « ما اذا كانت الانتخـابات ستجري بحرية ودون تحيز ؟ فاجابني ان « لا » ، فقلت له : ما دمت انك صارحتني بهذا الامر فاسمح لي ان ابحث معك موضوع الانتخابات ومـا يعنيني منها . فقلت انكم تأخذون النواب على هواكم لاسباب اهمها نسب المرشح ومركز عائلته في المنطقة تاريخياً واجتماعياً واظن انه لا يوجد بين المرشحين من له في عائلته مثل تاريخ عائلتي ، ثم يهمكم ثقافة المرشـح واظن اني احمل اعلى الشهادات بين ابناء الشيعـة ليس في جبل عامل فحسب بل في جميع انحاء لبنان ، ويهمكم ايضاً ان يكون عـلى تفاهم وثيق معكم والا يكون خصماً واظن انني معتدل من هذه الناحية بحكم الواقع والمصلحة العامة ، اكثر من اي عامـلي آخر . بقي هناك امر واحد يهمكم ان يتوفر لمرشحكم وهو ليس عندي ، وهو انكم تريدونـه كبير السن يوحي بالجلال ، ابتلى جميـع الايام وابتلته نكبات الدهر ، وانا مستعد مثلا تلافياً لهذا النقص ان اضع كمية من مياه الاوكسجين عـلى شعري فيتغير لونه ، ثم باستطاعتي ان اترك شاربي فاوفر لـكم شيئاً من الشرط الرابع ، فلهذه الاسباب التي اوردتها يا حضرة القومندان ارى انني خير من يستحق ملء احد المقعدين المخصصين للجنوب اذ انني خـير من يمثله في الندوة ، وقد اتيت لانبئك الامر وانا لا اطلب التشجيع لاني قررت ولن انثني ابداً عن عزمي ، ولكنني اريد التأكد من ان حضرة القومندان سيقف موقف المساعد في سبيـل تحقيق هذه الامنيـة ، التي تنم عن مصلحة لنـا جميعاً » ولما انهيت كلامي ، وكان قد اعترى القومندان شيء من الحيرة ، اجابني ، طبعاً لقد فكرت انت ملياً في الامر واقدمت عليه فاسمح لي ان افكر فيه قليلا وساجيبـك عما قريب . فخرجت من غرفته شبه آمل بصدق ما يقول ثم قصدت الى مرجعيون

بحجة مراجعة ادارية وقابلت هناك الكابتن « ماي » وقصصت عليه ما جد معي من احـــاديث فاخبرني « بانه سعيد في تقديم خدمـــة لي ، وقال انك شاب تستحق الخدمة . » ثم اردف : بانه سعيد بما جد بيني وبين بشكوف ذلك لانني خلقت لهذا الرجل المستأثر الدكتاتور – على حد قوله – مشكلة استحقت ان يفكر بالتصرف ازاءها . فقلت له : « لنفرض ان بشكوف لم يتغير في موقفه ولم يجبني او لم يفتح باب المفاوضات ، فماذا أستطيع أن أعمل ؟ فاجابني بان مثل هذا الافتراض مستحيل ، ومهما يكن من امره فعليك ان تخوض المعركة ولو لم يكتب لـــك النجاح ... فصارحته بانه لا يمكنني ذلك وانا نظيف الجيب ولا اعتقد انه يوجد من يجرؤ على تحدي ارادتكم في هذه المنطقة ولو باعارتي اسمه لتأليف قائمة انتخابية يكون لها طابع جدي لا يحط من كرامتي وكبريائي . فاجابني بان كل ذلك ممكن وانه قد يرغم يوسف بك الزين على تحمـــل نفقاتي الانتخابية او النزول معي في لائحة واحدة ، وفعلاً توصل الكابتن ماي الى اقناع يوسف بك الزين بزيارتي واذا به يدخل علي عارضاً المساعدة مهما كانت بعد ان كان يعارضني وعائلتي المعارضة المعروفة ، ورحت بدوري اقنع يوسف بك بالنزول وحده للمعركة ولكنه صمم على عدم خوضها واشار اليّ ان اتفق مع علي افندي عبد الله في قـــائمة واحدة ويستطيع هو من تحت الستار ان يقدم ما بوسعه من المساعدات .

وظيفة بدل النيابة

دعاني في هذه الاثناء القومندان بشكوف وقـال لي : ان اذهب الى الكابتن « ماي » في مرجعيون وهو يجيبك الى طلبك الذي طلبته مني . وقال : ان جواب الكابتن ينطبق على ما يريد قوله لي ولكنه على عجلة الان ، فذهبت تواً الى مرجعيون وما ان بلغتها حتى دخلت على الكابتن « ماي » ، فلما شاهدني اخذ يضحك وقال : « لقد ارسلك الي الروسي ،

عد ان بحثت معه مطولاً بأمر طلبك وطلب الي اقناعك بعدم خوض الانتخابات وهو مستعد للتعويض عليك بتوظيفك مفتشاً عاماً في الداخلية بدلاً من الشيخ كسروان الذي استقال ، فقلت له و كأنني اقتنعت بحكم الواقع ولهجة الكابتن الجدية بعدم النزول الى معركة الانتخابات : « انا لا اريد الدخول في السلك الاداري ، وقد نلت شهادة الحقوق واود العمل في السلك القضائي في المحكمة المختلطة اذ ان فائدة عظيمة اجنيها من ذلك العمل . » فأقرني على ذلك واتفقت وإياه ان اوافيه نهار الغد الى صيدا حيث نجتمع بالقومندان بشكوف ، واجتمعت والكابتن (ماي) بالقومندان وشرحنا له القضية من أولها ، فقال لي : اننا نجد بسهولة كثيراً من النواب في الطائفة الشيعية ولكننا لا نكاد نجد ما يكفي من الموظفين ، فأنت أول شيعي حاز شهادات عالية في منطقة الجنوب فاذا ما دخلت سلك الوظيفة تكون قد اسديت الى طائفتك خدمة جليلة وتكون في الوقت نفسه قد ارحتنا من البحث عن موظفين كبار للطائفة الشيعية ، وستتقدم بسرعة فائقة في هذا المضمار لان الوظيفة في لبنان قائمة على اساس طائفي وليس في طائفتك من يفوقك في الكفاءة الادارية والعلمية ، وكان ان رفضت ثانية مركز مفتش عام في الداخلية وطلبت الدخول في السلك القضائي برتبة قاض من الدرجة الاولى في المحكمة المختلطة ، وهنا طلب الي انتظاره في الصالون الخارجي وبعد ان تباحث مع الكابتن ماي على حدة ناداني وطلب الي ان اذهب الى بيروت برفقة الكابتن « ماي » الذي كان يحمل مذكرة للمسيو « ابوار » مندوب المفوض السامي وفيها يطلب منه تعييني حالاً قاضياً في المحكمة المختلطة ، وتوجهنا معاً الى بيروت حيث تركني « ماي » قليلا ثم عاد وهنأني بتحقيق غرضي وقال : انه دخل على مدير العدلية الشيخ سامي الخوري وطلب منه باسم مندوب المفوض اعطاءه بسرعة ، اقتراحاً بتعيين رضا التامر قاضياً في المحكمة المختلطة حيث يوجد قاضيان ، وصعب على السلطات المسؤولة ان تتخلى

عن احدهما لان الاول قد تمسك به القضاة الفرنسيون والثاني كان قريباً للمطران فغالي ، ولكن الكابتن « ماي » اصر على مدير العدلية وقال : لا يهمني شيء الا ان يعين رضا التامر قاضياً في هـذه المحكمة وان يصدر المرسوم قبل موعد اجراء الانتخابات ، وبالفعل فقد عينت كما طلبت ولكن بدلاً ان اعين برتبة قاض من الدرجة الاولى فقـد عنيت برتبة قاض من الدرجة الثالثة ، وكانت هذه بداية حياتي القضائية .

مشروع فاشل

قلت ان الحكومة بدأت تعاكس يوسف بك الزين ، فاخذ هذا الرجل يتقهقر حتى انه لم يعد يجرؤ على دخول املاكه وقريته بعد ان ثار عليه فلاحو هذه الاملاك بوحي الانتداب . وتتالت عليه بعد ذلك الدعاوى ، فطبقت الشريعة على مشترعها وحدت بي انسانيتي الى عدم معاملة هـذا الرجل بالقسوة التي عاملنا بها قبلاً . واخذ يزورني ، ثم علمت ان له ابنة متعلمة جميلة ففكرت بالاقتران بها (هذا قبل ان اقترن بابنة نسيب بك الصلح) وكنت قد افترقت عن زوجتي الفرنسية . ولكن اخذت هذه الشائعة دوراً مهما في الاوساط الانتدابية وخاصة بالنسبة للكابتن ماي الذي استدعاني واخي رياضاً الى مرجعيون وراح يناقشـني ويسألني عن تلك الشائعة « وعاتبني كثيراً وقال انه كان بينه وبين الفصل من الخدمة الشيء القليل بسبب الاسرار التي باح بها الي ، واخذ يذكرني بالخدمات التي اسداها لي ، وكيف اني اقابله بهذه المعامـلة ، اذ ان السلطات الفرنسية قد اتهمته بتدبير هذه الشائعة والترويج لاتمامها » وقـال وهو يميل رأسه على مهل : « اتعلم ان المفوضية تتهمك بتدبير هـذا الزواج للاتفاق مع يوسف بك الزين ضد الانتداب ، فان الكابتن بتشكوف بدأ تهديداته لي بالفصل من الخدمة وبمعاكستك في كل امورك اذا تم هذا الزواج ... » وتابع قوله : « نحن لا نطلب من كل شخص يريـد

الزواج ان يستوخص منا ، ولكن فكرة زواجك هذا لها اهمية سياسية قد تؤدي الى امور تزعجنا وتزعجك . لا سيما وقد تركت امرأتك الفرنسية التي تمت بصلة قربى للمسيو « فابار » مندوب المفوض السامي في سوريا . وعجب الكابتن « ماي » كيف انني انسى كل ما فعله يوسف بك بي وبعائلتي فافكر بالزواج من ابنته . وطلب مني بكل صراحة ان اعدل عن الفكرة .... فعدلت عنها .

مقابلة وجبهة معارضة

• رياض الصلح •

وفي احدى الامسيات ، اتاني بهيج بك الجوهري خال زوجتي ميمنة الصلح وطلب الي ان اقابل رياض الصلح في بيته مقابلة سرية ... وهناك وجدت خليل معتوق ... فتناولنا اطرافاً شتى من الاحاديث الى ان قال لي رياض بك : « اني اعجب من هذه العائلات العريقة بالامجاد وخاصة عائلة آل الاسعد كيف يساعد ابناؤها الانتداب وهم على ما هم عليه من الوان الاضطهاد والتشريد .. » ثم قال : انه لا يوجد شيء نخاف ضياعه بسبب معارضتنا . فاجبت : ان لكل عمل أسباباً ، اما سبب المعارضة فواضح وضوح الحق ، بل هو الحق ذاته ، ولكن الذي ينقصنا هو المؤهلات والامكانيات وخاصة المادية ، نحن لا نملك درهما ، وكيف نستطيع ان نعارض ونحن على هذه الحالة .. وان ظروفي الخاصة تجبرني ان اكون موظفاً . ليس بمقدوري الحياة بلا وظيفة وان محصول الاملاك اصبح معدوماً بحكم وضع فلاحي قرانا الذين فقدوا الثقة بنا . اما خالي عبد اللطيف بك فقد اصبح معدماً . ومثله جميع افراد العائلة ..

...

وبعد مناقشات عديدة .. اتفقت ورياض بك على ان يبعث بسيارة الى الطيبة تقل خالي عبد اللطيف بك الى بيروت .. وهذا ما تمّ . فقد

وصل خالي اليها دون علم بشيء . وفي بيروت استعرضت معه كل ما دار بيننا من اتفاقيات وحاولت اقناعه مبيناً كيف ان الناس اخذوا عنا نظرة الرضا بالذل والخنوع . وقلت له ان كثيراً من الناس سيدعموننا مالياً ومعنوياً في معارضتنا التي لا سبيل لنا غيرها . وتوجهنا بعد ذلك الى منزل رياض بك الصلح . فاستقبلنا استقبالاً حافلاً وكان السيد خليل معتوق حاضراً .. فبحثنا هناك مشروع « المونوبول » المختص بالتبغ وقررنا معارضته لانه ليس لابناء الجنوب من باب للحياة الا بهذا الصنف من المزروعات . واخذت التلغرافات تنهال على المسؤولين من انحاء المدن والقرى كافة مطالبة بالغاء « المونوبول » . واعتقل بعض الاشخاص ، فنظمت في صيدا تظاهرات صاخبة قام بها عادل بك عسيران والشيخ عارف الزين ، فما كان من السلطات الا ان امرت بتوقيف عادل بك عسيران وكان لهذا الامر ضجة كبيرة .. فتوترت الاعصاب في جبل عامل وارتعدت الفرائص . وفي هذه الغمرة من الاحداث توفي المرحوم فضل بك الفضل ، فازداد الاستياء .

تنكيل

وهنا انبرى خالي عبد اللطيف بك وقدم طلب ترشيحه للنيابة . وكانت المظاهرات والتوقيفات حتى غصت سجون الجنوب بالمعارضين . فاستعاد خالي الشيء الكثير من كرامته ، ثم قصد التنكيل بي فنقلت مرات عدة من مراكز عملي .. واوقف اخي رياض في هذه الاثناء وحجزت مفروشات منزلنا في تولين ، وحجزوا حصاناً لاخي بدلاً من الضرائب المتوجبة علينا ، وسجن وكلاؤنا . وكذلك حجزت مفروشات بيت خالي بسبب الضرائب ايضاً ، فكان جميع الاثاث قد جُمع في مكان واحد ، فما كان من خالي الا ان قال لي : « ان البيت الذي يحجز فرشه يجب حرقه » وفعلاً فقد امسك صفيحة من الكاز وافرغها على المفروشات ثم اشعل النار فيها ، فهرب رجال الحكومة وولول الحضور الذين اخذوا يرشقون بالحجارة

جباة الضرائب ومأموري الحكومة .. واقيمت من جراء هذه الحادثة ، دعوى جزائية على خالي ، ودعيت اثر ذلك الى بيت عبد الله بك بيهم امين سر الدولة في ذلك الحين ، وطلب الي متابعة عملي في العدلية بعـد ان لزمت بيتي مدة من الزمن ثم قال لي : « ان اخاك رياضاً يقوم باعمال ثورية وقد يحاكم بموجب قـانون قمع الجرائم ... » فقلت له بانه يمكن للحكومة القاء القبض عليه اذ ان القانون فوق الجميع ، ولكن عندما يكون هناك جرم يستدعي ذلك . وبعد مـدة طلبت من اخي وابن خالي احمد بك الاسعد ان يذهبا ، الاول الى تولين والثاني الى بنت جبيل ليجمعا عدداً من الفرسان الخيالة ليرافقوا خالي عبد اللطيف بك الى النبطية ، فساء هذا التدبير حكومة الانتداب فأمرت باقفـال الحدود في الحال . وكادت تقع الفتنة العمياء ، فرجعت عن فكرتي واقنعت خالي بعدم الذهاب الى النبطية . وبعد ذلك بمدة وجيزة ساءت صحة خالي عبد اللطيف بك ، في وقت كان الناس فيه من جراء الاعمال التعسفية وكأنهم على مراجل تغلي وتفور فلفت مرضه الانظار . ولكن المنية وافته بعد بضعة ايام ، وكان ذلك سبباً لمظاهرات وعرائض عديدة تعلن الاستياء والألم . وقامت البلاد من اقصاها الى اقصاها . وكان له مأتم حافل لم يشهد الجنوب له مثيلًا . واخذ الناس « يحوربون » مات الزعيم .. يحيا الزعيم . ابو كامل زعيمنا اي احمد بك الاسعد . وفي هذه الفترة بدأت حياة احمد بك السياسية .

ربع قرن في خدمة القضاء



ربع قرن
في خدمة القضاء

•

عنوان لفصل اردته في البدء تكملة لهذه المذكرات ، ولكن رأيت عندما انتهيت من وضعه واعدت قراءته وعنيت فيما كتبت وفيما خط قلمي من ذكريات وحوادث ان من المناسب وانا لم يزل لي شرف الانتماء الى القضاء وحرمته ، ان ارجيء نشر كامل هذا الفصل الى مناسبة اخرى لأن الموضوع شائك وعر المسالك كثير العثرات .

لذلك اكتفيت في هذا الكتاب بما يمكن تدوينه في الوقت الحاضر من تسلية للقارىء وتفكهة له على ان يكون موعدي فيما بعد قريباً انشر فيه الباقي الكثير من المذكرات ، وابحث في صميم القضاء وجوهر العدالة في لبنان .



في القضاء

دروسي التطبيقية الاولى

دخلت سلك القضاء والحقت بالغرفة الجزائية للمحكمة المختلطة ، وكان رئيسها المسيو « كاستيل » رجلاً اديباً رصيناً في الخمسين من عمره ، ووجدت في عملي صعوبة في باديء الامر لعدم المامي بسير المعاملات ، ولكن زميلاً لي في ذلك الحين ، هو انيس بك صالح ، كان لي عوناً كبيراً في تفهم امور تتعلق بالافلاسات والمعاملات العملية ، وبكيفية درس الدعاوى وتهيئتها . وما ان قضيت مدة في هذه الوظيفة حتى سررت بها كثيراً واحببت مزاولتها .

مشكلة ....

وبقيت اهتم بتنظيم الاحكام التجارية لان رئيس المحكمة هناك المسيو « دوبان » رجل قاسي المعاملة له طريقة خاصة في تنظيم الاحكام ولا تعجبه طريقة احد غيره ، فاذا لم يتوصل القاضي اليها او الى تقليدها اجبرك ثانية وثالثة على اعادة تنظيم الحكم وكأنك ما زلت على مقعد الدراسة تقدم مسابقة للمعلم فيأخذ القلم الاحمر ويشرع بتشطيب هذه الكلمة وتغيير هذه العبارة وحذف هذا السطر واضافة هذه الجملة ويعطيك بعد ذلك العلامة التي

تستحقها . وهكذا كان المسيو « دوبان » يعامل القضاة الذين ينظمون احكاماً ، فيشرف هو على تنظيمها وإعدادها .. واحسست اني صغير في نظر هذا الرئيس . وفي مثل هذه المعاملة .

باب الفوج

وأُتيح لي ظرف سبّب مشكلة بين هذا الرئيس ومستشاره الفرنسي المسيو « لالون » . والمسيو « لالون » رجل كبير السن امضى مــدة طويلة في خدمة القضاء والمحاماة ، وكان نقيب المحامين في باريس ، ولكن مصيبة ألمت به بفقدان ولده الكبير جعلته يطلب خدمة خارج فرنسا ، فعين قاضياً في المحكمة المختلطة . وقد عطف علي عطفاً خاصاً وكنت ادخل بيته وكأنني فرد منه او كأنني داخــل الى بيتي . وارسل الي الرئيس « دوبان » دعوى كبيرة لانظم بها محضراً ، فتخوفت منها وتيقنت انه اذا قمت بهذا العمل بنفسي فان الرئيس سيعمل به تشطيباً وحذفاً واضافة وتغييراً بالحبر الاحمر وسيضطرني لاعادة العمل مراراً عديدة ... فما كان مني الا ان اسرعت قاصداً المسيو « لالون » ورجوته ان يقوم عني بهذا العمل . وبعد ان انهى المسيو « لالون » تحضيره اخذته منه ونقلتــه على الورق بخطي وقدمته للمسيو « دوبان » . ولشد ما كانت دهشتي عظيمة عندما شاهدت هذا الحكم وقد غدا ملوناً بالالوان الطبيعية لكثرة ماشطب منه واضيف اليه وغير فيه بالحبر الاحمر ، وقد كتب فيه بالحبر الاحمر ايضاً هذه العبارة « لاعادة تنظيمه » فحملت الحكم بحالته هذه وعرضته امام المسيو « لالون » واعتذرت قائلاً : « قد اكون كلفتك كتابة هذه الدعوى وانت مشغول حتى كان من امره ما ترى ... » فلمــا شاهده نهض هذا الكهل الذي يرزح تحت اعباء السنين الطويلة وتجاربها في خدمة القضاء ونظر الي وقال بحدة : « يا رضا ان دوبان مجنون » فقد اعتنيت بتنظيم هذا الحكم اكثر من جميع الاحكام التي مرت علي . ولن اسكت

حادثة النجادة

•

عقد اجتماع في طرابلس سنة ١٩٣٤ حضرته جميع فرق النجادة من سوريا ولبنان والقيت اثناء هذا الاجتماع خطب حماسية فيها كثير من الصراحة والوضوح في التهجم على السلطات علناً ، فما كان من رجال الشرطة الا ان نظموا عدة محاضر احيل من جرائها الخطباء الى الاستنطاق في المحكمة المختلطة ليحاكموا بموجب قانون قمع الجرائم . ولعبت هذه الدعوى دوراً في الاوساط الانتدابية من جهة والاوساط الوطنية من جهة ثانية ، فلم اكن لأقف منها موقف اللامبالاة واطلعت على تفاصيلها بل اخذت ادرسها درساً وافياً واذا بالمسيو « كاستيل » يدخل علي فلما علم انني ادرس دعوى حادثة طرابلس لم يلبث ان نظر الي بجدة وقال : « يجب ان نسلخ جلود هؤلاء الاشخاص ... اليس كذلك يا رضا ؟ » وكنت قد اطلعت على الخطابات التي القيت في الاجتماع ، وكانت تحوي من الافكار السامية والمبادىء الواقعية ما يفخر بالتفوه بها والتحلي بمفاهيمها كل فرد عربي . ولفحت وطنيتي عاصفة من الدهشة الممزوجة بالغضب ، وعجبت كيف يعاقب هؤلاء الاشخاص المناضلون لانهم كانوا يهتفون بالحرية والوحدة العربية والحياة السعيدة الشاملة للعرب ، وبالوحدة بين لبنان وسورية موقتاً ، ولكنني لم اعجب ساعة تذكرت ان الذين ، سيعاقبونهم ، ليسوا سوى الانتدابيين

الذين يهمهم ان لا يكون هذا الوعي القومي في الوطـــن العربي الذي يحتلون اجزاء كبيرة منه في لبنان وسوريا والمغرب . ورحت افكر فيما اذا كان البحث في القانون يجديني نفعاً . وعبثاً حاولت ، اذ ان قانون قمع الجرائم مطاط كما ذكرت فلا يستطيع احد ان يرفع صوته ويقف في طريقه الا ويحكم بموجبه مباشرة .

واجب وطني

وكان واجبي ان اعتني بهذه المسألة والاحقها، فاتخذتها على عاتقي اسبوعاً كاملاً وكان هذا اضعف الايمان . ومساعدة هؤلاء الرجال واجب وطني لا بد لي من تأديته في سبيل بلادي وفي سبيل نزاهة القضاء . وبعـد انتهاء الاسبوع حضرنا الجلسة المخصصة للدعوى وتلا المحامون مرافعاتهم ، ثم ابدت النيابة العامة مطالعتها ، وكانت شديدة اللهجة، اذ طلبت تطبيق اقسى العقوبة بحق البعض . واجتمعنا في اليوم التالي ، وكنت ما زلت ابحث عن مخرج لهذه المشكلة التي يملي علي واجبي ان لا اتخلى عنها ابداً ، واخذ الرئيس اثناء الاجتماع يتلو ترجمة المحاضر ويطلب الي مقابلتها بالنصوص العربية فكانت مطابقـة تقريباً . وبعد ذلك اخذ الرئيس « كاستيل » يبحث تحديد العقوبة مع زميله الفرنسي المسيو « بيتي » فاتفقا على تجريم الجميع وادانتهم بموجب قانون قمع الجرائم وانزال عقوبات بهم تتراوح بين السجن ثلاثـــة اشهر والسجن مدة اسبوع .

... القاضي الوطني ...

تجرد القضاء الفرنسي وترفعه

ولما سألني الرئيس عن رأيي بهذه الاحكام ... نظرت اليـــه ملياً ، وقلت له : « يا سيـدي قبـــل ان ابـدي الرأي اسمح لي ان اسأل عن مغزى وجود القـاضي الوطني بينكم فـاستطيع بعدئذ ان ابي رغبتك بابداء رأيي . هل وجـد القاضي اللبناني في المحكمة ليعلمكم كيف

تقضون بالحق بين الناس ام للفت نظركم الى بعض المـواد في القوانـين ، ام ليذكركم بواجبكم ويوضح لكم الطريق المستقيم ، اني لا احسب شيئاً من ذلك كله ولا اظن انه هذا هو القصد . انما الغاية الوحيدة لوجود القاضي الوطني في المحاكم الاجنبية هي لفت نظركم الى عادات اهـــل البلاد وعقائدهم وتمسكهم بمبادئهم وارشادكم الى طرق معاملتهم والسير بهم في طريق الحق الذي لا يحيدون عنه ، ثم ليضع امام اعينكم نفسية هذا الشباب الذي يشب اليوم ليرى امته بهذه الاوضاع . وانا ابن هذه البلاد استطيع ان اقوم بهذا الواجب فاوضح لكم بأن الناس في هذا الوطن سينزعون ، اذا ما حكمتم بمثل هذا الحكم ، ثقتهم من القضاء الفرنسي وسيقولون بأن الاحكام كانت شديدة بايحاء او باوامر المفوض السامي الذي يهمه ان يعاقب كل شاب وطني ينادي بالحرية والوحدة والاستقلال والحياة الرغيدة وينادي بالتخلص من حكم الاجنبي ، ولكن ذلك ليس جرماً بالنسبة للقضاء ، واذا ما نفذتم احكامكم هذه فثقوا بان الرأي العام العربي في لبنان وفي انحـــاء الوطن العربي كافة ، حيث انتم منتدبون ، سيكون قاسياً بدوره في حكمه على نزاهتكم ونزاهة العدل بين القضـــاة الفرنسيين اذ انهم سيستنتجون — واستنتاجهم هذا ليس بعجيب وان كان خاطئاً — ان السياسيين هم الذين املوا عليكم هذه الاحكام فما صنعتم الا تنفيذ اوامرهم . ولعمري ان ذلك وصمة في جبين القضاء الفرنسي ، وهو القضاء المتحرر المترفع ، ووصمة في تاريخه لا تمحى » قطّب المسيو « كاستيل » حاجبيه وعبس دهشاً لما اقوله ثم نظر الي وقال بتعجب « هل من المعقول ان يعتقد ابن طرابلس او اي عربي آخر اني اتلقى اوامر الحكم من المفوض السامي وانفذها ؟ » فقلت له « لا يمكنه اعتقاد غير ذلك ، فهو سيؤمن كل الايمان به . » فنظر الي بحيرة واضحة جلية : « اذن ما رأيك يا رضا بهذا الامر ؟ » فاجبته وكأني قد قطعت نصف الطريق الشائكة وبقي علي النصف القليل : « اذا اردتم ان تنصفوا الطرابلسيين والمحكومين والعرب جميعاً وتبرهنوا لهم ان

القضاء الفرنسي لا يتأثر بالسياسة الفرنسية الانتدابية ، بل المهم بالنسبة اليكم تطبيق القوانين على حقيقتها بعدل وانصاف دون التطلع الى اية اعتبارات اخرى ، فواجبكم ازاء ذلك ان تحكموا بهذه الدعوى باحكام مبدئيـــة اي بغرامة ليرة لبنانية عن كل مدعى عليه ، وكونوا على ثقة بأنكم اذا لم تعملوا بهذه المثل العادلة السامية ، فسيكون لاحكامكم السابقة القاسية وقع سيّىء في نفوس الجميع . وليس لي ما اضيفه ، وانا مجبر بحكم وظيفتي ان اكون معكم بكل ما تحكمون به مهما كان نوعه » حوّل « كاستيل » نظره عني والتفت الى زمـــيله « بيتي » وقال له بتمهل : « انني ارى ان نظرية رضـــا لوجيهة جداً ، وعلينا ان نعمل بها حفاظاً على سمعة القضاء الفرنسي المقدسة . ولو كلفنا ان ندوس على القانون نفسه لمـــا وجب علينا ان نتأخر لنبرهن اننا ، نحن القضاة ، مستقلون تماماً عن أية اجراءات خارجية وأية تأثيرات سياسية معينة » ولما قال له زميله الفرنسي « بيتي » : معترضاً « كيف يمكن ان نصدر مثل هذه الاحكام الركيكة بقضية هزت البلاد وشغلتها مدة طويلة » أجابه الرئيس وقد تحمس كثيراً وتكلم بحدة زائدة : « انا لا يهمني شيء مـن ذلـك كله ، ولا ادخر وسعي في سبيل الحفاظ على كرامتي والحفاظ على سمعة القضـــاء الذي امتهنه . فهلا فكرت يا مسيو « بيتي » بالذي يحيق بالقضاء الفرنسي من العار اذا اعتقد هؤلاء الناس وغيرهم اننا ، نحن القضاة الفرنسيين ، مسيرون باوامر السياسيين . فكر قليلًا وتصور بانهم سيتصورون بانك انت ونحن والجميع قد اخذنا مسودة الحكم من رجل سياسي يسيرنا من منزله فنتلوه عـــلى الناس . انني لن اسمح بذلك ابداً . لذلك لا اريد ان افسح المجال لحدوث مثله ، وعلى كل حال سآخذ بمبدأ الحكم المبدئي حتى ولو تنازل رضا عن المطالبة بالاخذ به » .

ليحي القضاء الفرنسي

وما هي إلا هنيهة حتى صرخ المباشر : « هيئة المحكمـــة » ... فوقف جميع من كان في القاعة ، وتلي الحكم واذا هو يقضي بتغريم كل من المدعى عليهم بليرة لبنانية ، سورية ، جزاء نقديا مع دفع الرسوم . فدوت القاعة بالهتاف والتصفيق : « ليحي العدل الفرنسي ، ليحي القضاة » فترجمت العبارات التي ُهتف بها ، امام الرئيس كاستيل . ولما خرجنا من القاعـــة انحنى علي واخذ يقبلني ثم قـال : « هكذا نريد رجالاً يلمـــون بكل صغيرة وكبيرة فلا يفوتهم شيء في سبيل خدمة القضاء وسمعتنا نحن القضاة الفرنسيين الذين لا يهمنا آراء السياسيين الفرنسيين » . وبعد انقضاء يومين طالعت في احـــدى الجرائد « طرابلس » مقالاً افتتاحيـــاً بعنوان « انصاف القضاء الفرنسي في حادثة طرابلس » فأخذتهـا رأساً للرئيس كاستيل الذي طلب ترجمتها في الحال الى اللغة الفرنسية ، وكان فرحـاً للغاية وزادت ثقته بي كثيراً ، وكان كلامي مع الرئيس كاستيل بعد هذه الحادثة كلام الفصل الذي لا يناقش ، خصوصاً فيما يتعلق بالقضايا السياسية ، وهكذا توفرت لي هذه الناحية الثانية ايضاً ولم اعد اجد أية صعوبة في انهاء الدعاوى .



حياة رجل القضاء

تمر في حياة رجل القضاء حوادث كثيرة ، تكون في معظم الاحيان – لاهميتها وطرافتها وملابساتها – ذات طابع خاص ومن النوع الذي لا ينسى . ولقد قضيت عشرين عاماً وانا اقاضي الناس فتسنى لي خلالها ان اشاهد حوادث ُجلى هي ذات الطرافة والاهمية ، احاول الآن ان استعيدها مسطرة من ذكرياتي ، ولذة نفسية ارجو ان يشاركني بها قرائي الاعزاء .

مقتل علي الحاج

•

كان ذلك عام ١٩٣٥ عندما ُنقل قاضي تحقيق جبل لبنان الاصيل مدعياً عاماً للبنان الجنوبي وكُلف قاضٍ آخر ليؤمن بالوكالة سير دائرة تحقيق جبل لبنان ، وكانت تلك الدائرة آنذاك غارقة في الدعاوى الكثيرة . وزاد الطين بلة الاجراء الاخير الذي حصل ، فتراكمت على القاضي الوكيل الاشغال ولم يتمكن من انجازها ، فتقدم تحت تأثير كل

هذا بتقرير للمفتشية العامة يعلن فيه عجزه عن القيام باعباء تلك الدائرة .
وكان السيد انيس صالح صديقي بالامس واليوم ، والذي تربطني به رابطة مودة واخوة ، معاون المفتش العام آنـــذاك ، فاتصل بي فور وصول التقرير وطلب الي ان احضر لمقابلة المفتش واطلب منـــه تعييني بالوكالة في الدائرة المذكورة واتعهد له بالقيام باعبائها على الوجه الاكمل .
وكان من جراء تلبيتي طلب الصديق ان عُينت « قاضي تحقيق جبل لبنان بالوكالة » وفي اليوم الثالث من استلامي مهمتي دعاني اليـه صديقي واخي السيد اسعد البدوي الذي كان يشغل يومذاك مركز مدعي عام جبـــل لبنان وقال لي : يا رضا ، منذ خمسة عشر يوماً اتاني رجـل شيخ من كيفون وقدم لي استدعاء يقول فيه ان ولده عـــلي الحاج ذهب من كيفون الى عيناب التي تبعد نحو ثلاثة كيلو مترات عن كيفون لشراء « صوبا » لبيته لان زوجته حامل وهي على اهبة الوضع ، ولقد مضى على ذهابه زمن ولم يعد ، ولقد سأل عنه في الجوار وفتش بينهم فـــلم يعثر له على اثر ، وتابع صديقي السيد اسعـــد البدوي كلامه قائلاً : والآن وردتنا افادة من قائد درك عاليه تفيد بان راعياً وجد جثة علي الحاج في رأس جبل بين عيناب وبيصور وكيفون ، وما ان وصل الى هنا حتى ختم كلامه طالباً مني الانتقال بسرعة مـع الطبيب الشرعي الى محل الجثة .

...

خـــابرت الدكتور تيوفيل مارون استاذ الطب الشرعي في الكلية اليسوعية في بيروت ليوافيني الى بعبدا وطلبت من السيد اسعد البدوي ان يرافقني في مهمتي ، فهذه هي المرة الاولى التي اقدم فيهـــا على تحقيق جنائي في حادث غامض ، فلم يمانع ، فركبنا السيارة عندئذ يصحبنا الدكتور مارون وتوجهنا الى عاليه ، ولدى وصولنا الى مخفر الدرك وجدنا القائد السيد نسيب سليم على رأس قوة من دركه ينتظرنا فتابعنا سيرنا الى نقطة متوسطة ، بين عيناب وكيفون ، وهناك نزلنا من السيارات وتوجهنا ناحية

بيصور ، ومن ثم صعدنا فوق جبل حتى بلغنا قمة عالية منه وكانت الساعة حينذاك الرابعة بعد الظهر وهناك شاهدنا جثة لشاب في العقد الثالث من العمر ، مربوع القامة ، القي على ظهره واصابع يده اليمنى مطبقة على بعضها ، ولسانه ظاهر من حلقه ، فاغر الفم ، مفتوح العينين ، مذبوحاً من الوريد الى الوريد . مشهد اقشعر له بدني وكدت حياله – لولا خجلي من رفاقي – ان اعود ادراجي غير عابيء بالمهمة الملقاة على عاتقي ، واحسست في تلك اللحظة ، بشعور داخلي ينفرني من الوظيفة التي اقوم بها ، ووددت لو اتركها فلا اعود اليها فهي بعيدة عن مظاهر العطف والاحساس البشري ، ولكني استجمعت قواي وحزمت امري وجالدت على نفسي وتذكرت واجبي ، فتقدمت من الجثة وطلبت من الطبيب مارون ان يجري امامي ما يتوجب عليه من عمل ، فأخذ يقلب الجثة ويفحصها فاذا بالقتيل مصاب بطلقين ناريين من مسدس وبطلق ناري من بارودة صيد وبضربة فأس في العنق قطعت أربعة اخماسها من الجهة الامامية وعند هذا توقف الطبيب وطلب مني نقل الجثة لأنه لا يمكنه تشريحها وهي ملقاة في الحقل ، ولما باشر رجال الدرك بنقل الجثة اذا باهالي بلدة كيفون يحضرون في تلك اللحظة ومعهم تابوت فيشتركون بنقلها . ونصل كيفون وقد اسدل الليل ستاره وافضى على الموكب الحزين كآبة وحزنا وتبكي كيفون ، ليلتذاك ، فتاها وتندب النساء والفتيات ونشهد له مأتماً تتفتت له الاكباد ونسمع انغاماً باكية حزينة زادها عمقاً وتأثيراً في النفوس صمت ليل رهيب .

اتخذت غرفة من بيت مختار القرية مكاناً لاجراء التحقيق وباشر الطبيب بتشريح الجثة واستمعت الى افادة زوجة القتيل وهي حامل في شهرها التاسع والى افادة غيرها من الشهود واستمر التحقيق حتى ساعة متأخرة من الليل وعدنا الى بيروت ونحن لا نحمل من سر الجريمة الا حسرة ملتاعة على شباب المغدور .

عندما اويت الى فراشي لم استطع ان انام فلقد ارق جفني ما الم بي من حزن على الضحية وشغل بالي امر هذه الجريمة وتركزت في ذهني فكرة كيفية الوصول الى كشف ستار الجناية المروعة واخذت الخواطر والهواجس تعلو بي وتهبط فكنت ارزح تارة تحت ثقلها وتارة كانت ترحمني فابتسم بحركة لاشعورية ابتسامة الفوز والانتصار ، فلقد كنت كما قلت آنفاً مبتدئاً في عالم التحقيق وهذه القضية التي احقق بها اصبحت « قضيتي انا » فهي « خطوتي الاولى » فلا عجب اذا راودتني الخواطر والهواجس وانا في فراشي ، بل العجب اذا قلت لك اني نمت تلك الليلة هادىء الفكر مرتاح البال .

بكرت في اليوم التالي بالذهاب الى مركز عملي في بعبدا . ولدى وصولي اليه اتصلت بدائرة التحري في بيروت وطلبت من المفوض السيد احمد منيمنة ان يضع تحت تصرف دائرتي اثنين من رجاله يكونان خبيرين بالمنطقة التي وقعت فيها جريمة القتل وعلى علم بطابع اهالي المنطقة المذكورة ، وفي هذه الحال ارى ان يكونا من الطائفتين : الدرزية والشيعية . ولم يمض وقت طويل حتى حضر امامي اثنان من رجال التحري وكان احدهما درزياً والاخر شيعياً فافهمتهما مهمتهما وهي جمع ما امكن من المعلومات السرية التي توصل الى معرفة سر الجريمة ومن ثم تركتهما يباشران مهمتهما التي اوكلتها اليهما .

...

لقد سبق ان قلت اني اتخذت من هذه القضية قضية لي فلذلك كنت تراني دائم التفكير فيها حتى انه لم يكن يمضي يوم الا وأشاهد برفقة المدعي العام متنقلين معاً بين كيفون وعيناب وبيصور موهمين اهالي تلك المنطقة ان حادثة القتل ليست غامضة واننا على باب قوسين او ادنى من التوصل لهتك سترها والكشف عن سرها . وكنت اثناء ذلك اراقب من يراقبنا عن كثب واتحدث الى من اشعر انه يتتبع خطواتنا ويحصي حركاتنا . ولقد فتح لي باب الوساطات والشفاعات ابواباً عديدة فكنت كلما راجعني

بهذه القضية زعيم او نائب اقصد جماعته توا وانحرى بينهم الفاعل ولكني كنت اعود دائماً صفر اليدين خـالي الوفاض ، ولا اكتمك سراً اذا قلت لك اني كنت بعيداً جداً عن الوصول الى معرفة الجريمة لانها كانت من الغموض بمكان ولكني لا اكتمك ايضاً بأني ازعجت المنطقة كلهـا بكثرة تردادي عليها ، وكنت احس احساساً داخلياً بأن استمراري في ذلك الترداد سوف يقض مضجع فاعل الجريمة وينهك قواه ويهلك اعصابه ويجعله من تلقاء نفسه يدلنا على مخبئه الأمين .

ولقد صدق فعلا حدسي ، ففي يوم من ايام الشتاء الباردة ذهبت برفقة المدعي العام الى عيناب لاستجوب شخصاً قيل لي بموجب كتـاب مغفل ان لديه معلومات تلقي ضوءاً على الحادث . ولما وصلنا امام دكان هناك نزلنا من السيارة وسرنا نقصد الى بيت مختار القرية . وبينما نحن في الطريق تقدم منا ولد له من العمر اربعة عشر عاماً وحيّانا ولم يكن يظهر عليه انه يريـد تحيتنا فقط بل كان يظهر عليه انه يريد التحدث الينا . ولاحظ حضرة المدعي العام ذلك فصده وطرده ولكني استوقفته وصرت اتحدث معه احـاديث صبيانية واذ به يستوضحني بقوله لي :

- اظن انكم تبحثون عن قاتل علي الحاج ؟

فقلت له : ومن هو هذا علي الحاج ؟

فاجابني : ذلك الذي قتل بـين كيفون وعيناب والذي شاهدته بام عيني قبل الحادثة يقله طنبر الى جهة شملان . واخـذ يصف لي سـائق الطنبر كمن يلقي درساً لقنه وحفظه عن ظهر قلب .

فسألت ما هي اوصاف علي الحاج ؟ فلم يكن منه الا ان وصف لي عـلي الحاج كما هو .

فعدتُ اسأله مستفسراً منه عما اذا كان قد سبق له ان اجتمع بعلي الحاج وكيف كان ذلك فاجابني بانه لم يشاهد علي الحاج الا مرة واحدة يوم كان يقله الطنبر الى شملان .

عندئذ اخذت ذلك الولد الى بيت المختار ، وبعد ان استقر بنا المقام وتناولنا الشاي طلبت الى الولد ان يردد على مسامع المدعي العام مـا حدثني به لجهة معلوماته عن حادثة علي الحاج فردد الولد ما كان قـد رواه لي سابقاً .

قال لي المدعي العام : لقد قبضنا على مفتاح الجريمة ووافقته على ذلك وكان ان اخذنا نستجوب هذا الولد وكنا اذا ما طرحنا عليه سؤالاً أعاد علينا الرواية نفسها التي كنا قد سمعناها حتى ضقت ذرعـاً به واقدمت لاول مرة وآخر مرة في حياتي القضائية على صفعه بالكف وصرت اتهدده تارة وانصحه وارفق به تارة ثانية ، حتى انهارت اعصابه وخاطبني قائـلاً : قبل ان ادلي لكم بالحقيقة ، اريد منكم ان لا تتركوني هنا وحـدي لانكم اذا فعلتم ذلك وعلم الجناة فانهم لا محالة مقدمون على قتـلي وانا هنا غريب الدار لا يشد ازري اهل ولا جار . ولما اطمأن الي وأمـن ، ووثق من أننا لن نتركه في عيناب واننـا سنضعه في مكان يكون فيه معززاً مكرماً ، اخذ يروي لنا كيف وقع الحادث فقال :

كان المرحوم علي الحاج يمتهن مهنة « الطنبرجي » . كان لزاماً عليه بحكم مهنته ان يتنقل من مكان الى آخر . واتفق مرة ان كان في الناقورة ينقل الجص والرمال لبناية الجمرك اللبناني وكان معه رجـل آخـر من عيناب ويدعى نسيب العريضي وهو يمتهن نفس المهنـة ويظهر ان « عداوة الكار » اوقعت بينهما ، فكان خلاف وشجار ظهر منه عـلي الحاج منتصراً على خصمه مما حدا به الى ضربه والى ان يسخر مـن المغـلوب نسيب العريضي فاغتاظ هذا ولم يشأ ان يكتم غيظه فخاطب علياً قائـلاً له : « يا علي اذا خليتك طيب ، الله لا يخليني » .

وارخت الايام على هذا الحـادث سدالها ونسيه علي الحاج ولكـن نسيباً لم ينس ما كان من عليّ حياله . بعد مضي ثمانية اشهر على ذلـك الحادث ويوم كان علي الحاج ذاهباً من بلدة كيفون الى عينـاب لشراء

صوبا لبيته لان زوجته كانت على اهبة الوضع صادف ان التقى بنا نسيب العريضي وشخصان آخران ، احدهما تصله قرابة بنسيب المذكور ، اما انا فقد اتوا بي لأحمل شيئاً من العلف ، وما ان شاهد نسيب علياً حتى هاج حقده الدفين وتذكر ما كان بينهما ووقع لهما فأخذ يخاطب علياً مهدداً اياه ومذكراً إياه بما حدث معهما بالناقورة وكيف ان نسيب توعده وهدده بالقتل .

فوقعت من جراء ذلك مشادة بين الطرفين اقدم بها نسيب على ضرب علي بفراعة واقدم قريب نسيب على اطلاق ثلاثة عيارات نارية اصابت علياً فاخمدت انفاسه واودت بحياته .

عدنا الى عيناب وما ان حل المساء حتى رجع نسيب الى المكان الذي ترك فيه المغدور ، وهناك ربطه بحبل ونقل جثته الى رويسات بيصور على بعد كيلومترين منها ورماها هناك بعد ان اطلق عليها عياراً نارياً من جفت صيد تضليلاً للتحقيق .

وهنا سألت الولد : لماذا تقدمت منا واخذت تتحدث الينا بانك شاهدت علي الحاج ذاهباً الى شملان بطنبر ؟ فاجاب : ان « معلمي » القاتل ازعجته كثرة ترددكم على عيناب حتى اصبح يعتقد انكم على وشك اكتشاف سر الجريمة ، فاتفق ليلاً مع زوجته وقر رأيهما على ان يدفعان بي في طريقكم فأدلي امامكم بما ادليت به سابقاً فأحول نظركم نحو شملان ، فتزداد القضية غموضاً وتشعباً ، وقد لقناني مراراً ما قلته لكم حتى حفظته عن ظهر قلب . ثم اردف قائلاً : ان الفراعة التي استعملت في ضرب المغدور موجودة في بيت فلان ... والجفت موجود ايضاً في بيت فلان ... وان « معلمي » عندما عاد مساء يوم الحادث لنقل الجثة اخذ معه « مرسة » ترك قسماً منها في محل الحادث .

وما كاد الشاهد ينتهي من الادلاء بافادته حتى كنت قد طلبت قوة من الدرك وخابرت رئيس الأدلة الجنائية فوافاني الى المحل الذي كنت

فيه وقصدنا جميعنا بيت نسيب العريضي حيث صادرنا البقية الباقيـــة من قطعة الحبل ، ولدى مقابلتها مع القطعة التي وجدناها في محل وجود الجثة ظهر انها تنطبق عليها كل الانطباق . اما « الفراعة » فلم يجد لها رجال التحري اثراً رغم تحريهم عنها . ولكن وجود « الفراعة » دليـل اثبات مهم في القضية ومما يدعم افادة الولد فكيف السبيل الى العثور عليها ؟

لم يكن هناك الا سبيل واحد فلقد ذهبت اتحرى عنها بذاتي وصرت انتقل في غرف البيت حتى وصلت الى غرفة الدواب ، فاستدعى انتباهي هناك وجود كمية من الروث ، الزبل ، موضوعـة بشكل يلفت النظر فطلبت ان ينبش هذا الروث المتجمد وما هي الا برهة مـــن الزمن حتى عثرنا على الفراعة مطمورة في روث الدواب وقد عرضتها على رئيس الأدلة الجنائية فتبين من التحليل انها لا تزال تحمل آثار دم على الحديد . ومن ثم انتقلت الى بيت المتهم الاخر فاستدعى انتباهي هنـــاك وجود كمية من الحطب وضعت غير الموضع المعدّ لهـــا . فطلبت ان يفرق الحطب عن بعضه ، وما هي الا دقائق معدودات حتى ظهر الجفت وقد خبيء بين الحطب .

وكان طبيعياً ان اصدر مذكرات توقيف بحق الفاعلين بعدما ظهر لي من الدلائل والادلة .

وهكذا كشفتُ سر الجريمة في وقت لم يكن مأمولاً ان اكشف به سترها الغامض .

اما شاهدنا الاول في هذه القضية واعني به الولد فإنه ما ان رأى الفاعلين يساقون الى السجن حتى اخذ يرتعد خوفاً ويرجوني ، والدموع تنهمر من عينيه ، ان لا اتركه في تلك المنطقة لان حياته اصبحت في خطر ، فرأيت من واجبي ان لا اتركه لقمة سهلة في فم الموت . ورأيت ايضاً انه من الضروري ان يحتفظ بهذا الولد ليدلي بافادته امام المحكمة .

ولكن الى اين اذهب به ؟

وكان هناك بين رجال التحري رجل يدعى جبران الخوري فطلب الي بصورة سرية ان اعهد له بالولد ، فهو قادر على ان يضعه في مكان امين ، فعهدت اليه بالولد بعد ان افهمته انه مسؤول عن حياته ، وخرجنا من بيصور قاصدين كيفون حيث اكملت التحقيق هناك في ساعة متأخرة من الليل .

...

دخلت غرفتي في كيفون لانام ، ولكن انّى لي ان انام والبرد قارص والبال ليلتئذ مضطرب . هجرت الفراش ووضعت معطفي فوق منكبي وخرجت اتمشى امام البيت الذي انا فيه ، وما ان وصلت الى امام الغرفة التي يرقد بها الشاهد ورجل التحري المولج بحراسته حتى سمعت صوتاً خافتاً.... تقدمت قليلاً من باب الغرفة ... فماذا سمعت ? سمعت رجـــل التحري يقول للشاهد الولد :

« ولك يا عكروت كيف بتحكي وبتوقع معلمك لازم تفكر وتقول المستنطق ضربني حتى قلت اللي قلته » .

لم اعد اضبط اعصابي عندما سمعت رجل الامن يقول للشاهد ما يقول . عدت الى غرفتي واخذت مسدسي بيدي واتجهت نحو غرفة الشاهد وما ان وصلتها حتى دفعت بابها بقوة جنونية هزت رجل التحري هزّاً ومـا ان رآني هذا وبيدي المسدس حتى فاجأته « حاميها حراميها ، انت غير جدير بان تكون من رجال الامن ، اعطني مسدسك حالاً والا قتلتك. فلقد سمعت ما كنت تقول لك شاهد، فبدلاً من ان تكون عوناً ومساعداً للهيئة الاجتماعية على كشف الجرائم إذ بك اداة لسترها واخفائها » . ولقد حضر رجال التحري الذين كانوا ينامون في بيت مجاور ، على صياحي واخذوا يسألون ما الخبر ? فلم يكن ذلك التحري « الامين » يمهلني لاخبرهم . فلقد اخذ يتوسل الي ويستعطفني باكياً ويرجوني ذليلاً ان لا افضح سره ، وان استر امره . وان ارحم اطفاله وعائلته . وكاد لفرط ندمه يجثو على ركبتي ويقبل يدي وهو يشهق بالبكاء ويرجو ان اصفح عنه ، فاشفقت عليه ورثيت

حاله وتركته وعدت الى غرفتي ولكني لم اذق طعم النوم تلك الليلة . وفي الصباح طلبت من السيد احمد منيمنة استبدال « تحرينا الامين » بآخر وطلبت من المفوض السيد جبران الخوري الذي عهدت اليه بالولد ان يذهب ويضعه في مكان امين حتى نهاية المحاكمة . وما ان مضى يوم على ذلك حتى عاد اليّ جبران الخوري واخبرني بأنه وضع الولد في في مكان امين لا يمكن أن يطاله فيه اي انسان .

...

لم يبق امامي لاكمال التحقيق الا بعض الشكليات ، ولكن جبران الخوري الذي عهدت اليه باخفاء الولد بدا امامي وامارات الاضطراب بادية على وجهه . وقبل ان اوجه اليه اي سؤال بادرني بقوله « دخيل الله ضاع راسي » ، الولد طار من مكانه وقد شوهد ومعه شخصان يدخلانه السيارة بالقوة والعنف » واخذ يقص علي كيف ترك هو والولد عيناب الى بيروت ، وكيف اخذ سيارة من بيروت الى زحلة ، وكيف أنه استبدل السيارة بغيرها وقصد الدير حيث وضع الولد هناك ، وكيف انه طلب من رهبان الدير الاعتناء بالولد ومراقبته وحراسته ، وبالطبع لم يوضح لهم سبب وضعه عندهم ، وكيف ان قريبه الموجود في الدير جعل من الولد راعياً لماعز الدير يعاونه في عمله هذا ولد آخر ، ولكن عاد البارحة الولد الاخر وحده بالماعز وقال ان الولد « فارس ملاعب » قد اخذه شخصان ووضعاه عنوة في سيارة ....

لم اكن اتوقع ان افاجأ بهذا الخبر ولكن الامر الذي وقع يدعونا الى العثور على الولد لاستطلاع ما وقع معه ، ولقد خفت باديء الامر ان يكون قد قضي على الولد فاكون انا السبب في قتل ضحية بريئة ارادت ان تساعد العدالة وتكشف امر مجرمين غادرين ، ولكن الذي خفت منه لم يحصل ، والحمد لله ، لاننا بعد التحري وقفنا على مقر الولد حياً وكان قد اودعه خاطفوه جبل الدروز .

وقف المتهمون في قفص محكمة الجنايات يصغون الى مضبطة الاتهام

تتلى عليهم والى الادلة تساق ضدهم ، ووقف الولد فارس ملاعب يشهد ، ويروي ما قد قاله في ضبط التحقيق ويقص على المحكمة ، كيفية اختطافه الى جبل الدروز من قبل اقارب المتهمين والاحتفاظ به الى ما بعد نهاية المحاكمة . وخُتمت المحاكمـــة ، ولُفظ الحكم فقضى على نسيب العريضي بالاشغال الشاقة مـــدة خمس عشرة سنة وبرئت ساحة باقي المتهمـــين للشك . ولا ازال حتى الان افتش عن السبب الذي حدا بالمحكمة الى تبرئة باقي المتهمين رغم توفر الادلة بحقهم ، فلا اجد غير هذا القول :

« قلوب الحكّام »

. . . . بيد الله . . . .

« يقلبهـــا كيف يشـــاء »

●



دعوى الحزب السوري القومي

•

كان المهرجان الذي اقامه الحزب السوري القومي في بكفيا عام ١٩٣٦ ، ذا اثر بالغ تبارى فيه خطباؤه يحملون حملات عنيفة ضد نظام الحكم القائم في لبنان . وتعالت الهتافات ودوت الاصوات مطالبة بوحـــدة سوريا الطبيعية وهتفت باسم سعادة عالياً ونودي بسقوط من بيدهم السلطات ، وكان طبيعياً ان تتدخل الحكومة ويتدخل جندها فيسعى لتفريق شمـل المجتمعين وفرط عقدهم ، ويلتقي الفريقان ويحصل بينهما صراع ، وينهزم المجتمعون اخيراً بعد ان يلقى القبض على عدد وفـير منهم وتشن حرب لا هوادة فيها على الحزب السوري القومي ، وتبتديء المطاردة وتنـــبري جريدة « الرابطة » تحمل حملات متتابعة ضد الحزب القومي وتتعرض لمبادئـه واعماله ، فيهاجمها مجهولون في محاولة حرقها . ويتعرض الاستاذ عارف الغريب صاحب جريدة المساء للحزب وافراده بمقالات عنيفة يكون من جرائها ان يدخل عليه مجهولون ويوسعوه ضرباً ولكماً .

ويشاء القدر ان اكون آنذاك اشغل دائرة تحقيق جبل لبنان ، وان تكون حادثة بكفيا تابعة للدائرة التي اشغلها . ولقد خاف عليّ اسعد بك البستاني رئيس البوليس العدلي من بطش القوميين وخاصة بعد الاعتداءات التي حصلت لكل من يتعرض لهم . عرض عليّ ان اختار رجـــلاً من

رجال الامن ليكونوا بحراستي لان القوميين قرروا فيما بينهم الاعتداء على كل من يتعرض لهم ، فرفضت العرض بعد ان شكرت السيد بستاني واجبته بان لا داعي لحراستي وما دمت اقوم بالواجب المطلوب مني ، وما دامت اعمالي مع افراد الحزب القومي او غيرهم لا تتعدى حدود القانون .

ولكن السيد البستاني طلب الي ان يكون رفضي خطياً وان اوجه اليه مذكرة بهذا المعنى لتحفظ لديه رفعاً لكل مسؤولية عنه ، فما كان مني الا ان اجبته الى طلبه ووجهت اليه المذكرة المطلوبة ، وما كدت افعل حتى صرت انظر للامر نظرة غير النظرة الاولى ، نظرة حذر وحيطة . وزاد الطين بلة ان رويت على مسامع اهل بيتي ما طلب مني السيد البستاني ، واخذوا منذ ذلك التاريخ يرون الاشياء مجسمة وينظرون الى كل قريب نظرة حذر وعداء . واذا صدف والقى رجل ما نظرة الى بيتنا حسبوا ان هناك مؤامرة تحاك وان موعد تنفيذها اصبح قريباً . وكان طبيعياً ان احتاط انا للامر فصرت احمل مسدساً وما هي الا مدة وجيزة حتى طلبت مني وزارة العدل بموجب مذكرة رسمية ايداعها كل اوراق التحقيقات المتعلقة بالحزب السوري القومي ، فاودعتها اياها وعهد فيما بعد الى المحقق السيد جورج مراد اكمال التحقيق ، لان هذا المحقق كان على صلة طيبة مع المرحوم خير الدين الاحدب رئيس الوزارة في ذلك الحين الذي اراد ان يجد للقضية مخرجاً سياسياً اكثر منه عدلياً . وهذا الامر لا يمكن ان يتم وانا اتولى التحقيق لانني من الذين يؤمنون بضرورة استقلال القضاء وبعدم تدخل السياسة في امور العدلية . ولقد اسدل الستار فيما بعد على حادث بكفيا بعد ان تحول مكتب السيد جورج مراد الى صالون سري يجتمع فيه ليلاً المرحوم خير الدين الاحدب والمرحوم رئيس الحزب السوري القومي . ولقد سويت الامور وعقدت المهدنة بين الفريقين . وخرجت انا من هذه القضية ولم اقم بشيء قضائي مهم ، ولكني تعرضت اثناء التحقيق ،

والطفيفة تقال ، الى شباب واسخي العقيدة يضمهم حزب منظم بعيد كل البعد عن التعصب الطائفي الذميم .

ولكن حادثة طريفة وقعت لي وكان ذلك اثناء قيامي بالتحقيق في حادث بكفيا وقبل ان يستلمه غيري ، اذ كنت عائداً في مساء يوم الى بيتي وكانت الساعة حوالى العاشرة ، وما ان نزلت من سيارتي وسرت في الممر الطويل المؤدي الى مدخل بيتي اذ حتى شاهدت شخصاً يتقدمني ويسير امامي بخطى بطيئة ، فلفت نظري واحتطت الامر وصرت اسير متباطئاً حتى لا اتقدم ذلك الشخص فتفوتني مراقبته . ولقد قام في ذهني اول الامر ان هذا الشخص لا بد ان يكون متجهاً نحو البيوت المجاورة لبيتي ، ولكني تركت ما قام في ذهني جانباً عندما شاهدته وقد ابتعد عن مدخل بيتي ما يقرب الثلاثة امتار ، يلصق جسمه بالحائط المقابل المدخل يواريه عن انظاري ظل شجرة « الاكاسيا » الموجودة هناك . وتأكد لي ان هذا الشخص لا يريد إلا الايقاع والفتك بي، وخفت ان انا تواجهت ان يفتك بي فلم يكن امامي الا مبادرة ذلك الشخص قبل ان يبادرني هو . وشهرت مسدسي وصوبته نحوه وانذرته بصوت سمعه كل الجيران ان (ارفع يديك وإلا قتلتك) فما كان منه إلا ان رفع يديه مذعوراً واخذ يستغيث بي ، فتقدمت منه وانا اشهر مسدسي في وجهه ، وكان كل همي ان اتحراه واعرف ما اذا كان يحمل سلاحاً ام لا ؟ ولكن كيف السبيل الى ذلك وما هي الطريقة التي يجب استعمالها ؟ وكان لا بد من ان اخلص من هذه الورطة فأخذت المسدس بيدي اليمنى وصرت اتحرى الشخص باليد اليسرى بعد ان انذرته بالقتل إن هو حرك ساكناً . ولما لم اجد معه سلاحاً امسكت بشعره وادخلته الى بيتي وبدأت اضربه ضرباً موجعاً . وكان يستغيث بين يدي ويقول لي دعني لأخبرك عن سبب وجودي في هذه المحلة ، ولم اكف عن ضربه إلا بعد ان نالني جهد كبير . ولما بدأت احقق معه عن سبب مجيئه في تلك الساعة المتأخرة من الليل الى هذه المحلة قال لي :

وهل تعرف ماذا قال لي ؟

قال لي إنه عشيق « الصانعة » التي تخدم عندنا وانه سبق له وحضر الى هنا مراراً وكانت « الصانعة » عندما تراه يحضر تخرج من البيت خلسة وتذهب معه الى السطح وهناك يمثلان ما يرغبان ويريدان من ادوار الغرام .

حمدت الله تعالى على ان هذا المسكين لم يحاول الهرب عندما هاجمته ولم يأت بأية حركة معادية وإلا لكنت اطلقت عليه النار وارقت دماء إنسان بريء لم يجرم ولم يأثم ، ولكنت اجرمت مرغماً بلا سبب يستحق الذكر .

تركت ذلك الشخص وشأنه وسمحت له بالانصراف واتبعته بحبيبته « الصانعة » مطرودة ودخلت غرفتي وانا اتصوره يلعن الحب وكل ما اشتق منه فقد جنى عليه الليلة ولم يجن هو على احد .



الطبيب الرسمي وبائع العسل

•

في بلدة بيصور رجل يتعاطى مهنة بيع العسل ، وفي ذات يوم وبينما هو في عاليه يزاول مهنته تقدم منه لشراء رطل من العسل الطبيب الرسمي لقضاء عاليه ، وعرض لقاء ذلك خسيس الثمن فعارض فتركه الطبيب وانصرف ساخطاً حانقاً ولم يكن منه إلا ان نظم محضر ضبط يقول فيه ان العسل المعروض للبيع من قبل هذا الرجل ، ممزوج بالسكر بنسبة خمسين بالمائة من كميته ، فاحيل بائع العسل بموجبه على حاكم صلح عاليه الذي اخذ بتقرير الطبيب الرسمي وقضى على البائع المنكود الحظ بالحبس اسبوعاً وبغرامة خمس وعشرين ليرة لبنانية جزاء نقدياً .

استؤنف الحكم الى محكمة بداية بعبدا التي كنت احد اعضائها ، واستدعي المستأنف الذي اخذ يروي وقائع الحادثة كما وقعت له وبلهجة تدل على صدق روايته ، فما كان منا الا ان قررنا استجواب الطبيب منظم الضبط على ان يكون ذلك بحضور المرحوم الدكتور محمود العريس والدكتور غرنيه رئيس فرع التحليل في الكلية اليسوعية ، وعينا موعداً لذلك . وفي الموعد المعين استجوبنا الطبيب منظم الضبط ووجهنا اليه السؤال الاتي :

ما هي الاعمال الفنية التي قمت بها حتى توصلت للقول بان العسل ممزوج بالسكر ؟ فاجاب : قرأت في الكتب واستنتجت وتأكد لي ان

العسل ممزوج بالسكر .

سئل الطبيب : ما هي الاعمال التي قمت بها حتى اتضح لك ان كمية المزج هي خمسون بالمائة وما هي الآلات التي استعملتها لهذا الغرض مع العلم بان رئيس المختبر في الكلية اليسوعية يصرح بان الادوات التي تستعمل لغاية كهذه لا يوجد منها الا في الجامعتين الاميركية واليسوعية فاجاب : « لحست العسل فوجدته ممزوجاً بهذه النسبة » .

فلم يكن من رئيس المحكمة الا ان قـال له : « ولو يا دكتور شو لسانك مختبر كياوي » ودوت القاعة بالضحك على اثر ملاحظـة الرئيس . وقررنا ، بطبيعة الحال ، براءة بائع العسل مما نسب اليه ولم نأخـذ بتقرير الطبيب الرسمي الذي كبد خزينة الحكومة ما لا يقل عن الخمسين ليرة لبنانية مصاريف ورسوماً .

واني اذكر ايضاً ما كان من هذا الطبيب نفسه عندما حصل شجار بين اثنين من اهل الكنيسة واقدم خلاله احدهما على رشق الآخر بحجر اصابه وجرحه ، ودعي ذلك الطبيب لمعاينة الجريح الذي اعطاه تقريراً طبياً لمدة عشرة ايام يتعطل فيها عن العمل . وبناء على هـذا التقرير أحيلت الدعوى على حاكم الصلح ، وما ان مضت الايام الثلاثة الاولى على الحادثة ، حتى توفي الجريح ، وتغير ادعاء النيابة العامة واحيلت القضية على دائرة التحقيق ، وكنت يومذاك محققاً في بعبـدا ، فاستدعيت الطبيب الذي عاين الجريح لاستجوابه ، ولما مثل امامي بادرته بالسؤال التالي :

ـ لقد عاينت الجريح فلاناً واعطيته تقريراً طبياً حددت فيه مدة التعطيل بعشرة ايام وقـد عودتنا في تقاريرك السابقة ان لا تجزم في حوادث الاصابات التي هي من البساطة بمكان والتي تكون واقعة على غير الرأس .

فاجاب : ذهبت لمعاينة الجريح فوجدته في فراشه ، ولقد شاهدت جرحاً في رأسه تبين لي انه طفيف فاعطيت تقريري الذي تعرفه .

سئل : لم اجد في تقريرك ما يحدد نوع الجرح ولا الآلة التي احدثته

او شيئاً من هذا مما سبب هذا الاهمال ؟
اجاب : عندما عاينت الجريح وجدت ان درجة حرارته تفوق ٣٩ درجة ولم يكن مالكاً قواه فلم امكن ، والحالة هذه ، من سؤال الجريح عن الآلة التي احدثت له الجرح .
سئل : كيف يمكنك يا دكتور بعد ان تدخل على مصاب بجرح في رأسه وتراه في حالة اللاوعي ان تعطيه تقريراً تجزم فيه بمدة التعطيل .
فاجاب : شاهدت الجرح صغيراً فبنيت تقريري على صغره .
عندئذ توقفت عن متابعة استجوابه وامتنعت عن صرف تعويض له . فخرج من عندي حانقاً وشكاني لوزارة العـــدل التي اعلمتني بالشكوى ، وطلبت مني الجواب عنها . فاكتفيت بان اخذت نسخة طبق الاصل عن استجواب الطبيب في قضية العسل امام محكمة بداية بعبدا ونسخة عن استجوابه في هذه الدعوى وقدمتها للوزارة بعد ان ارفقتها بهـــذا الشرح : « اظن ان ما اقدم عليه هذا الطبيب في الدعويين المرسل اليكم نسخات عن استجوابه فيها يكفيني مؤونة الجواب والايضاح . »
... ولم اتلق بعد ذلك اية مراجعة .



الخبراء ورجال التحري

•

كنت اشغل مركز رئيس محكمة جنايات بيروت عندما عرضت امامي دعوى سرقة موصوفة ، ابطالها عصابة من اللصوص اتخذوا من مدينة بيروت وملحقاتها امكنة لتمثيل جناياتهم ، ومن بين المحلات التي سرقوها محل السيد عدنان الحكيم للأدوات كهربائية الذي يقع على ساحة البرج ، ويظهر ان هؤلاء اللصوص كانوا يحبون التنكيت ، فلقد تركوا في المحل المسروق كلمة لصاحبه هذا نصها : « نرجو معذرتنا فلقد اقدمنا على هذه السرقة تحت تأثير الفاقة والعوز ، عوض الله عليكم » . ومن استجواب المتهمين الذين انكروا تبين لي انه على اثر ارتكاب السرقات اخذ رجال التحري يطاردون الفاعلين حتى توصلوا الى القاء القبض على ثلاثة منهم اعترفوا لديهم اعترافاً صريحاً بانهم هم الذين اقدموا على سرقة محل بائع الادوات الكهربائية وانهم هم الذين تركوا في المحل الكلمة التي وجدت . ولدى استكتابهم من قبل الخبير الفني تبين ان خط احدهم ينطبق كل الانطباق على الخط الذي كتبت به الكلمة التي تركت في المحل . وامام هذه الادلة احيل المتهمون الثلاثة على محكمة الجنايات .

تابعت المحاكمة ، في الدعوى المعروضة ، امامي ، وفي خلال استجوابي لرجال التحري الذين اجروا التحقيق الاولي صرح لي احدهم بان سرقة

بائع الادوات الكهربائية قد عرف فاعلها وصودر منه بعض المسروق وجزم بان الكتاب الذي وجدوه في المحل هو من خط ونص السارق الذي اعترف وهو ينتمي الى عصابة غير عصابة المتهمين الماثلين امامكم والتحقيق جار فيها امام حضرة مستنطق بيروت . وامام هذا التصريح رفعت الجلسة وطلبت ملف الدعوى الموجود لدى المحقق وبعد الاطلاع عليه وجدت نفسي امام عصابتين اقترفتا سرقة محل الكهرباء . ومثلنا الحادث كما جرى ووجدت نفسي ايضاً امام تقرير خبير يجزم بان الكتاب المصادر هو تارة من خط احد افراد العصابة الاولى وتارة ثانية من احد افراد العصابة الاخرى !

عجبت لهذا الامر لا سيما وان ليس ثمة علاقة مادية بين العصابتين فكيف وقع في هذا التناقض رجال الامن واصحاب الخبرة الفنية . لا شك ان هناك سراً خفياً لا تظهره اوراق الدعوى . وما هذا السر الخفي الا الطريقة التي اتبعها رجال الامن في التحقيق مع المتهمين . وهذه الطريقة غير مجهولة من معظم الناس ، طريقة الكرباج ، السوط والضرب ، فوقع الاعتراف ، واما رجال الفن في هذا البلد فاغلبهم مهمل لا يشرف على عمله بنفسه فلا عجب اذن ان تقع على تقرير احد من الخبراء ، لا يقدر فيـه صاحبه مسؤولية عمله ويقذف به في وجه القضاء والعدالة دونما دراية او تبصر .

لم نقدم ، والحمد لله ، على خطأ فاضح كغيرنا ، واستوحينا ضميرنا ووجداننا عندما حاكمنا المتهمين الماثلين امامنا ، وتقدمت من وزارة العـــدل بتقرير اعلمها فيه بما وقع لي وادلها على ما يبدر من رجال الامن من اعوجاج في طرق تحقيقهم ، والفت نظرها الى اهمال الخبراء الفنيين الأعمال التي تسند اليهم وما ينتج عن هذا كله من ضرر بمصلحة القضاء والافراد فالمجتمع .

رجال الدرك

•

عهد الى رقيب في سلك الدرك قيادة مخفر في منطقة عكار ، وما ان تسلم مهام مهمته الجديدة حتى اخذ يبدي نشاطاً واهتماماً بالدعاوى الغامضة عله يتوصل الى كشف اسرارها فيرضى عنه رؤساؤه ويعلو مقامه .

وقيل له ان هناك بنتاً من البلد قد اختفت منذ مدة ولما تظهر بعد ، فصور له خياله ان في اختفاء البنت جناية لم يبن امرها بعد وتصور هذه الجناية على الشكل الآتي : اتفق والد البنت واخواها على قتلها بعد ان علموا بسوء سلوكها فاقتادوها الى الحقل فأمسكها الوالد من شعرها وأحد أخويها من رجلها والآخر ذبحها ومن ثم رموها في النهر . وما ان تم له تصوير الجناية حتى قصد الجناة والقى القبض عليهم واخذ يحقق معهم ويستعمل اساليب العذاب والعنف حتى حمل الاهل على الاعـــتراف في الوجه الذي رسمه لهم واقتادهم الى محل وقوع الحادث حيث مثلوا الجريمة ودلوا على النهر الذي القيت فيه الجثة .

وما ان وصل الى هذا الحد من « النصر المبـــين » حتى نظم محضراً بالاقرارات واحال الموقوفين على النيابة العامة التي اودعت ، بدورها ، قاضي التحقيق اوراق الدعوى ، وهناك ، ويظهر انهم هددوا باحالتهم على المحقق الاول ان هم غيّروا او بدلوا باعترافهم الاول فما كان منهم الا ان

صادقوا على افاداتهم الاولى وختم المحقق تحقيقه متهماً اياهم باقدامهم على قتل ابنتهم عمداً عن سبق تصور وتصميم واحالهم على محكمة الجنـــايات حيث عقوبة الاعدام ترتقب قدومهم . وبدأت المحاكمة امام محكمة الجنايات التي كنت احد مستشاريها . وقبل ان تبدأ بنشر القضية امام المحكمة تقدم رجل من هيئة المحكمة وقال : ان البنت موضوع الدعوى التي هي بين ايديكم لا تزال حية وهي موجودة الآن في قاعة المحاكمة . ونادادهـــا مباشر المحكمة ، فحضرت ومثلت امامنا واخذت تسرد علينا قصتها التي تتلخص بانها هربت من بيت ابيها بعد ان ارهقت بالعمل هناك وقصدت مدينة حلب حيث استخدمت عند الرجل الذي اعلن عنها وانها لم تعرف ممـا حصل لاهلها الا من يومين حين اخبرها مخدومها ان اباها واخويها متهمون بقتلها ورمي جثتها في النهر وانه سيصحبها الى بـيروت حيث تجري محاكمتهم بالتهمة الموجهة اليهم .

ولقد سأل حضرة الرئيس الرجل الذي اخبرنا بوجود البنت : كيف عرفت بالحادث فقال : لقد قرأت بالجرائـــد قصة المتهمين والبنت ولما تأكد لي ان البنت هي التي ادُّعي قتلها ورميهـــا في النهر احببت أن اظهر الحقيقة وأساعد العدالة وأرحم متهمين ابرياء .

لقد صعقنا ما سمعنا وأفقنا عـلى صوت الرئيس يدعو رقيب الدرك « هولمز لبنان » اليه وكان مدعوا شاهداً في الدعوى ويلقي عليه درساً هو عبرة لمن يريد أن يعتبر وتُوِّجا الدعوى ويحال رقيب الدرك عـــلى المحاكمة ، وتمر الايام واذ بي التقي بهذا الرقيب – واغفرلي خطئي أيهـا القارىء العزيز – قـــد التقيت بضابط كبير ، فرقيبنا بالامس صار اليوم ضابطا نظراً لكفاءته .... ونزاهته ... واخلاصه ....



رجال الشرطة

•

خلال عام ١٩٣٦ وقعت اضطرابات وحوادث في مدينة بيروت كان من نتيجتها ان حصلت عدة اصطدامات بين الاهالي ورجال الامن . وكان الصديق الاستاذ حبيب ابو شهلا يشغل في ذلك الحين مركز وزير الداخلية كما ان المرحوم موسى نمور كان يشغل مركز وزير المالية . ولقد صدف مرة ان كان وزير المالية ماراً في سيارته وما أن وصل ساحة الشهداء في بيروت وأصبح قريباً من مركز وزارة الداخلية في السراي القديم حتى القى المتظاهرون قنبلة متفجرة كسرت زجاج غرفة وزير الداخلية وحطمت قسماً بسيطاً من السيارة التي كانت تنقل وزير المالية . ولقد كان لهذا الحادث اثر في نفس وزير الداخلية فاصدر امراً حاسماً يطلب فيه من رجال الشرطة ، ان يكتشفوا الفاعل والا اعتبرهم معزولين من وظائفهم ، وتسلّم رجال الشرطة الامر وهرعوا الى محل الحادث يلقون القبض على من تطاله ايديهم ، وعهد الي بالتحقيق بالحادث فقصدت مركز نظارة الشرطة حيث اتخذت منه مكاناً للتحقيق وبدأت عملي واستجوبت من القي القبض عليهم وكان كل منهم ينكر ما نسب اليه ويقول : انه كان ماراً بالقرب من محل الحادث واذ بالانفجار يحصل ، فهرب متقياً خطر الاصابة فألقى رجال الشرطة القبض عليه . وبينما انا على هذه الحال اذ

باثنين من مفتشي التحري يدخلان عليّ ويعرضان ورقة دوّن فيها اقرار رجل بانه هو ملقي القنبلة . فاستدعيته بالحال ولما استجوبته انكر ما نسب اليه ولمّا تلوت عليه اقراره اخذ يصيح ويبكي وينكر ما جاء فيه وان رجال الشرطة طلبوا اليه ان يوقع في هذه الورقة التي تفيد حضوره امام المحقق .

اتصلت على الاثر بالنائب العام الذي نصحني ان اترك نظارة الشرطة واعود الى مكتبي ، ولقد اخذت بنصيحته وعدت الى مكتبي وتوسعت بالتحقيق وظهرت لي الحقيقة كاملة ، وهي ان رجال الشرطة ارادوا ان يسندوا التهمة الى اي شخص كان حتى لا يطالهم عقاب وزير الداخلية ، فاقدم المفتشان على تزوير الورقة ، وما ان تجلت لي الحقيقة حتى استدعيت رئيس البوليس العدلي واطلعته على ما آل اليه التحقيق ، واعلمته ان ما قام به رجاله لا يتفق والمباديء الانسانية ، وان القضاء لا يقر الاعمال التي تشوه وجهه وتؤذي سمعته ، واطلعته على ما عقدت عليه النية من ملاحقة لرجاله عدلياً فما كان منه الا ان رجاني ان لا افعل ذلك ، وتعهد لي بانه سيلاحقهم هو ادارياً ومسلكياً . وصرفت من عندي المفتشين اللذين ابديا ندماً شديداً على ما فعلا وانهما لم يقدما على ما اقدما عليه الا تحاشياً لغضب وزير الداخلية ، فلم يكن لديهما الا الاستحصال على الاقرار المزور ، وبهذه الطريقة يكونان قد وفقا حسب ظنهما بين ارادة الوزير وحماية القضاء .



هذا شخاخ برغوت

●

كنت محققاً في بعبدا يوم ان اقدم احد افراد الارمن القاطنين نهر بيروت على طعن خصمه بخنجر عدة طعنات اودت بحياته ولم يكن حاضراً وقت حصول الحادثة سوى امرأة عجوز ضعيفة البصر لم تشاهد الا شخصاً يقترب من شخص آخر ويشتبكان في شجار يقع اثناءه احدهم ارضاً ويذهب الثاني دون ان تتمكن من تحديد اوصافه الا انه كان يلبس قميصاً أبيض اللون وبنطلوناً اسود . وقد زاد الامر تعقداً ان المجني عليه قد فارق الحياة دون ان يفوه بكلمة ما تشير الى الجاني . ذهبت الى محل الحادث حيث قمت بالتحقيقات اللازمة ، وعرجت على مخفر الدرك طالباً من قائده ان يسوق لي المشتبه بهم الى بعبدا لاستجوابهم ولما مثلوا امامي في بعبدا بدأت باستجواب كل منهم على حدة . وبينما انا استجوب احدهم ، وانتظر جوابه للترجمان الذي عينته ليكون اداة التفاهم بيني وبين المشتبه بهم الذين يجهلون اللغة العربية ، لاحظت ان هذا المشتبه به الماثل امامي يبدي من حركات رفع كتفه الايمن وهز رقبته ما يلفت النظر . وقد خشيت اول الامر ان تكون هذه الحركات عصبية كما وانه استرعى نظري « الجاكيت » التي كان يرتديها فلقد كانت ضيقة عليه وهي لا تزال جديدة فكيف يعقل القتل بها ؟ فقد مر في ذهني عندئذ ان في الامر سراً . ولا شك ان المشتبه

به يخفي شيئاً ما تحت سترته المستعارة وان هذا الشيء يضايقه فتصدر عنه الحركات التي اشرت اليها . فما كان مني الا ان طلبت منه ان ينزع سترته فنزعها عنه وامارات الارتباك والخوف بادية على وجهه ، وما ان نزعها حتى شاهدت على صدر قميصه اليسرى بقعة بحجم الخمسة غروش صفراء اللون فسألته عنها فاجابني باللغة العربية انها « شخاخ برغوت » فقلت له ان البرغوث لا يحدث مثل هذا الاثر . وبدأت في الحال استجوبه مشدداً عليه النطاق حتى ظهر لي بان الجاكيت تخص سجيناً آخر في النظارة وانه استعارها منه ليلبسها عندما يمثل امامي . ولما نصحته بان يقول لي الحقيقة واوهمته بان من الافضل له ان يعترف لي لا سيما وان امره قد كشف وان المرأة العجوز شاهدته واقرت عنه بانه طعن المغدور بالخنجر وان الادلة اصبحت متوفرة ضده لا سيما وان المغدور صرح بانـــه هو الذي طعنه ، وانه يمكنني ان اعرض هذه البقعة التي وجدت على قميصه على طبيب فني وقد طلبت فعلاً امامه الطبيب ليحضر ويحلـــل البقعة الصفراء ، عندئذ لم يكن منه الا ان اعترف لي بانه هو الجـاني وهو الذي اقدم على طعن المغدور ، ويعود ذلك لاسباب نسائيـة حيث كانت هناك علاقات غرامية قائمة بين المغدور وزوجة الجاني ، وان هذا كان قد ردعهما واعلمهما ان يكفا عن هذه العلاقات فما استجابا لطلبه ، فاقدم عندئذ على قتل المغدور .

وعندما القي عليه القبض ليلاً وسيق الى نظارة بعبدا لم يشاهد اثر الدم على قميصه الا في الصباح الباكر ، وكان عليه ان يتخلص من ذلك الاثر الفاضح باسرع وقت وقبل ان يمثل امامي . فما كان منه الا ان دخـــل الى بيت الخلاء حيث نزع القميص عن جسمه وبـــدأ يغسل بقعة الدم « ببوله » ولم يتمكن بطبيعة الحال من ازالة الاثر ازالة كلية فاستعـار السترة من سجين كان معه في النظارة لاخفـــاء الاثر الذي لا يزال بادياً للعيان .

ولدى فحص البقعة من قبل الطبيب تبين انها آثار دم انسان ، ولدى استجواب زوجة المشتبه به ظهر انها كانت تميل للمغدور وان زوجها منعها حتى من القاء التحية عليه رغم انها لم تأت شيئاً يمس بالشرف والقداسة الزوجية .

وهكذا اقتضى لي ان اكشف سر هذه الجريمة بفضل الدقة في الملاحظة والسرعة في الانتباه .



الكرديان الساذجان

•

احيل على دائرة التحقيق التي كنت أشغلها كرديّان تشاجرا شجاراً أدى الى جرحهما. ولما دخلا علي كانا مخضبين بدمائهما، وقد كان سبب شجارهما تافهاً جداً وهو خلاف على « حبة جوز » بينما كانا يلعبان « بالكلة ». وقد ربح احدهما حبة الجوز هذه، الا ان الآخر اعترض على ذلك مدعياً بأن اللاعب الثاني لم يصب الجوزة، وعلى الاثر حصلت مشادة كلامية باديء ذي بدء ثم انقلبت الى تماسك بالايدي فالى مضاربة بالحجارة .

وقد صدف انه لم يكن موجوداً احد غيرهما، وان العثور على شاهد حضر المشاجرة كان مستعصياً جداً، وعندما استجوبتهما اخذ يدعي كل منهما بأنه لم يبدأ بالضرب، بل كل ما أقدم عليه هو أنه دافع عن نفسه عندما شاهد خصمه يضربه، وبقيت حائراً لا يمكنني التوصل الى تحديد جرم كل منهما واهميته، وقد استعصى علي معرفة البادىء بالضرب منهما، واخيراً استهديت الى فكرة طرأت على بالي، وهي ان هذين الشخصين لا شك في انهما ساذجان والا لما تشاجرا من اجل حبة جوز . وتطلعت اليهما متفرساً فيهما فوجدت ان احدهما اضخم جثة من الثاني فطلبته الى الاستجواب ثانية. ولما دخل علي في غرفتي اقفلت خلفه الباب واخذته

اضحك ضحكاً عالياً في وجهه ، فاذهله ذلك واخذ يتطلع محدقاً الي تارة وتارة اخرى يضع رأسه على صدره ، وما هي الا برهة حتى فاجأته قائلاً : « يا عيب الشوم على هالطول والعرض ، قد الحمار انت وهالصغير يمسكك ويزرعك بالارض مثل الريشة ، بيظهر انك مثل الطبل منفوخ ومن جوا فاضي يا حمدو » .

وتقدمت منه واخذت أشده من سترته ساخراً منه ومن جسمه العريض مردداً على مسمعه عبارات الهزء والشماتة ، وما ان سمع مني ذلك حتى اربد وجهه واحمرّ والتفت اليّ قائلاً : « هو قال لك انه زرعني بالارض » فاجبته نعم وارفقت ذلك بضحكة ساخرة فقال : والنبي انه عندما سب لي والدي امسكت به ورميته ارضاً ، كانني ارمي كرسياً خفيفاً مثل هذا الكرسي ، واشار الى كرسي خيزران كان موجوداً في الدائرة » . ثم تابع كلامه قائلاً : « وما ان رميته حتى صرت اضربه وانا فوقه ولكنه تمكن وهو تحتي ان يأخذ حجراً من الارض ويضربني به بيده ولما حاولت ان انتزع من يده الحجر افلت مني وهرب بعد ان ترك لي الحجر فرشقته به فأصبته في رأسه وعندئذ وقع على الارض ، وهو يصرخ من شدة الالم وما لبث ان نهض عن الارض وارتد علي وبادلني الضرب ، وبينما نحن على هذه الحالة مر شرطي فالقي القبض علينا » . وما ان فرغ من كلامه حتى قلت له : هل تريد ان ادون لك هذه الاقوال ام تبقى مصراً على أقوالك السابقة ؟ فأجابني : اني حلفت بالنبي قبل ان ادلي باقوالي الاخيرة ومعنى ذلك ان هذه هي الصحيحة ، واذا كان ذلك « الكلب » ويعني خصمه يصر على انه هو الذي زرعني بالارض ، فأرجوك ان تدخله علي وتقابلني به « لادقه » بوجهه بما حصل » . وقمت باجراء المقابلة بينهما واعترف الكردي الثاني بما قاله الاول ، وسري عني لاكتشاف امر البادىء بالضرب منهما وعجبت لذلك الكردي الذي فضل ان تقع عليه مسئولية الجريمة كلها من ان ينسب اليه ان خصمه غلبه ، وقهره .



الكينا المزورة والكوكايين

•

احالت النيابة العامة عليَّ للتحقيق مع المدعى عليه فيليب ارقش بجرم اقتناء مواد مخدرة والاتجار بها . وقد صادر منه رجال الامن العام كمية من الكوكايين تقدر بالغرامين بينما كان في مقهى في محلة الزيتونة في بيروت . والمدعى عليه هذا مبتور الرجل وهو ابن المحامي المرحوم شكري ارقش الذي اتصف بالصفات الحميدة وعرف انه كان من اقدر المحامين علماً ومن اطيبهم عنصراً .

جاءني هذا المحامي وشرح لي امر ولده الذي يعتبر انه فجع به لانه لا يكفيه ان رجله مبتورة حتى اعتاد ان يتعاطى المخدر . ومن جملة ما قاله لي : إنه سعى لدى شركة مياه بيروت ليجد لولده عملاً فيها وانه يرجو ان يوفق في مسعاه ورجاني ان لا اوقف ابنه حتى لا تعود الشركة عن توظيفه ، وعندئذ يستفحل امره ويصبح المخدر امراً ضرورياً له ، وقد اعتبرت كثيراً ما جاء على لسان ذلك الوالد المفجوع فارسلت وراء المدعي عليه واستجوبته واخليت سبيله دون ان اقدم على توقيفه رحمة بوالد عجوز واملاً باصلاح ولد اخطأ مرة في حياته .

مع كولومباني

وما ان مر يوم على هذا الحادث حتى دق جرس هاتفي وانا في دائرتي فأخذت السماعة واذا بصوت قوي اجش يقول : « اريد المستنطق تامر »

فأسأله عن شخصه فيقول : انا هنـــا كولومباني مدير الامن العام ، فاجبته بان الذي يخاطبه هو المستنطق تامر بذاته ، فما كان منـــه وهو ذلك الفرنسي الشديد المراس القوي الشكيمة النافذ الكلمة لدرجة ان المفوض السامي كان يهابه لانه كان صديق وزير داخلية فرنسا آنـــذاك وقد ابعد الى لبنان ابعاداً لانه اتهم في فرنسا بقتل نجل « ليون دوده » رئيس الحزب الملكي في فرنسا وعين مديراً للامن العام في لبنان ، ما كان منه وهو كما ذكرت الا ان قال لي : « نحن نغامر بحيـــاتنا لنلقي القبض على المجرمين الجناة فندخلهم لدائرتـــك من الباب بينما انت تخرجهم من الباب الاخر » . وما ان سمعت بتلك الملاحظة ، حتى كان لها وقعها السيء في نفسي ، فقلت له بعد ان كبتُ جماح نفسي : من تقصد ؟ فأجابني : اقصد ذلك المخلوق العجيب ارقش الذي تركته دون ان توقفه . قلت له : « انك ورجالك عندما تلقون القبض على الجناة تكونون قد اقمتم بواجبكم وانا عندما اترك احداً منهم اكون قد قمت بواجبي . وانك لا يحق لك التدخل في امور القضاء الذي لا يتدخل باعمالك » وما ان انهيت كلامي حتى علق المدير ماكنة الهاتف دون ان ينبس ببنت شفة . وبعد أن فعلت ما فعلت شعرت بارتياح عظيم ولو ان ما قمت به كفيل لان يكسبني عداوة رجل طالما تمنى اشخاص عديدون ان يحوزوا رضاه .

☆

وما ان مضى شهر على هذا الحادث ، وبينما كنت في عاليه في بيتي ، علمت ان رجال الامن قد داهموا بيتاً في محلة الاشرفية في بيروت والقوا القبض على نحو مائة شخص كانوا مجتمعين هناك كلهم ينتمون للحزب السوري القومي المطارد . وما ان اتصل بي ذلك حتى نزلت الى مخفر الاشرفية حيث باشرت التحقيق مع من كان قد القي عليه القبض . وفيما انا في غرفة المفوض رئيس مخفر الشرطة ، اقوم بذلك اذ بأحد رجال الشرطة

يدخل علي مذعوراً ويخبرني بان حضرة مدير الامن العام السيد كولومباني قد حضر وانه يريد مقابلتي . فأجبت الشرطي بالايجاب وما ان دخل علي المدير المذكور حتى استقبلته كالمعتاد واذا به يفاجئني قائلا : الا تذكر يا حضرة المحقق انا تشاحنا مرة « تلفونياً » فأجبته : « ان ما تعده يا حضرة المدير مشاحنة لا اعده انا كذلك بل اقول انه تفاوت في وجهات النظر حصل بيني وبينك ، فـــانت كانت كل رغبتك ان توقف فيليب ارقش حسب رأيك ، اما انا فكان رأيي ان يترك فيليب ارقش وانت لك اجتهادك بذلك وانا لي اجتهادي فيما فعلت ، وان مثل هـــذه الامور كثيراً ما تقع وكل ما ارجوه هو ان لا تقع مرة ثانية بيني وبينك » وقد كنت اخاطبه وانا لا ازال وراء مكتبي ، فما كان منه الا ان غير موضوع الحديث وطلب مني ان اعطيه بعض المعلومات بما يتعلق بالتحقيق الذي باشرت بـــه ، فاجبته آنذاك باني لا ازال في بدء التحقيق واذا ظهرت معي معلومات تهم الامن العـــام فاني موافيه بها دون ريب او تأخير بمذكرة رسمية وحسب الاصول وبواسطة النيابة العامة . وعندئذ تقدم مني ذلك المدير وشكرني وعرض علي خدماتـه اذا كنـــت محتاجاً لبعضها فيما يتعلق بالقضية موضوع التحقيق الواضع يدي عليه فقلت له : باني بحاجة الى قوة من الشرطة تنقل لي الموقوفين الى نظارة مخفر البرج لان مخفر الاشرفية ضيق لا يتسع لعددهم الذي كان يزيد عن المائة ، وقد يطول التحقيق مع هؤلاء فلا بد من مكان يتسع لهم . فتقدم من فوره الى الهاتف ، بعد ان استأذن مني في استعماله ، واتصل بالشرطة المركزية التي ارسلت الي من فورها قوة من الشرطة ، وقد كان شأنه معي شأن كل موظف تابع للسلطة العامة وخاضع لقاضي التحقيق اثناء اجراء وظيفته . وقد نقل الموقوفون الى سراي البرج واتممت التحقيق معهم واوقفت منهم من اوقفت وتركت من تركت .

*

وعلى اثر ذلك وبعد مضي وقت غير طويل استدعاني مفتش العدليـة آنذاك السيد « فرمان » وطلب الي ان اواجهه في مكتبـه ، فذهبت الى مكتب المفتش وما ان صرت عنده حتى بادرني بالسؤال الاتي : ماذا يوجد بينك وبين كولومباني ؟ فتذكرت للحال ما كان بيني وبين ذلك الرجل وقلت في نفسي انه لا بد وقد اوقع بي لينتقم مني نظراً لما كان قد وقع بيني وبينه . ولكني اجبت المفتش : ليس بيني وبـين ذلك الرجل الا ما يشرف ويرفع من كرامة القضاء وانه قد اراد مرة ان يتدخل في شؤون لا تدخل في صلاحيته فصددته ولما بدأت بسرد الواقعة قاطعني المفتش قائلاً :

« ما هي الصداقة التي تربطك بهذا الرجل ؟ »

فعجبت من كلام المفتش واجبته ان لا صداقة هناك بيني وبـين كولومباني . فما كان من المفتش لدى سماعه جوابي الا ان انتفض وقال لي : يا سيد تامر ان الصداقة مع كولومباني لا تشكل جريمة . فقلت له : يا حضرة المفتش لو كان هناك صداقة بيني وبين كولومباني لصرحت بها حتى ولو كانت جريمة لاني لا اخشى شيئاً في صداقتي مـع الناس ولكن ما قلته لك هو الحقيقة بعينها . فلم يكن منه بعد ذلك الا ان امرني بالجلوس انتظاراً لمجيء كولومباني الذي خابره هاتفياً بانه يريـد مقابلتي بعد ان اثنى عليّ الثناء الحسن امامه كأنه يحاول اقناع المفتش باني املك صفات قلّ وجودها عند غيري . وما هي إلا لحظات حتى يدخل علينا السيد كولومباني فنتبادل التحية باليـد ثم يوجه كلامه مخاطباً المفتش السيد فرمان قائلاً : ان هذا الشخص ، وكان يعنيني ، قد « كنسني بالتلفون » عندما حاولت مرة ان اتداخل في قضية كانت بين يديه ، فالرجل الذي يجرؤ على ان « يكنس » كولومباني هو ولا شك قاضٍ لا ينحني امام

اي ضغط ولا يؤثر به أي هوى ، فلهذا جئت ارجوك ان تعهد اليه بالتحقيق بقضية من أهم القضايا وهي قضية حساسة ، قضية الاتجار بالكينا المزورة والمخدرات من قبل اطباء شهيرين في لبنان ، وان هذه القضية التي قد بديء بوضع اليد على اول خيط من خيوطها سيكون لها شأن ودوي وستتناول عددا كبيراً من الاطباء المعروفين في هذا البلد . واني ارى ان يستلم التحقيق بهذه القضية المحقق السيد تامر لانني خبرته وجربته فوجدته صلب العود لا يدور إلا مع الحق والقانون كما انني ارى ايضاً ان يعهد اليه بالعمل حسبما يرتئي في هذه القضية .

وكان للسيد كولومباني ما اراد فعهد الي بالتحقيق بقضية الكينا ومن بعدها قضية الكوكايين .



قضية الكينـــا

•

حضر يوماً الى بيروت رجل سوري يبتغي شراء كمية من الكينـــا « ماي اند باكر » ليأخذها الى بلده في سوريا وقد صادف احد سماسرة هذا الصنف في بيروت فعرض عليه هذا الاخير كمية كبيرة بسعر منخفض زهيد مما حدا بالسوري إلى شراء الكمية كلها ولو كانت تزيد عن مطلبه آملاً من وراء ذلك ان يحصل على ربح وفير . وعاد السوري الى بـــلده حاملاً البضاعة التي اشتراها وهناك اخذ يعرضها على الاسواق بسعر بخس لفت نظر وكيل شركة الكينا في دمشق وانتبـاهه الذي ظـن ان عميلها في لبـنان يعامل من قبلها معامـــلة احسن من معاملته هـــو . فما كان منه الا ان ارسل كتاباً الى الشركة يحتج به على كيفية بيعها الكينا بواسطة عملائها في لبنان بسعر ادنى من السعر المحدد لسوريا . وقـــد اجابته الشركة متنصلة من التهمة الموجهة اليها مستغربة ما يعرض عـــلى مسمعها ، وطلبت من عميلها في سوريا ان يشتري كميـة من الكينا الذي يباع في الاسواق ويرسلها اليها كانموذج وذلك بالسرعة الفائقة . وكان للشركة ما ارادت ولدى وصول « العينة » لها حللتها فوجدت ان هـذه الكينا مزورة وما هي في الحقيقة الا « جفصين » مغلف من الخارج بغلاف كينا فقط ، ولما توصلت الشركة الى هذه النتيجة لم يكن همها الا اكتشاف

المزور وملاحقته ، وقد حضر بالفعل عميل الشركة الى مدير الامن العام وعرض عليه الانموذج مع نتيجة تحليله . لم يقتصر الامر على هـذا الحد بل تعداه الى اكثر من ذلك ، فقد اهتم قنصل انكلترا للحادث باعتبار ان الشركة انكليزية وطلب الى مدير الامن العام ان يهتم بالامر ، يضاف الى ذلك ما ينتج من الخطر على الصحة العامة عند وجود الكينا المزورة .

وقد استلمت نموذج الكينـا المزورة وباشرت التحقيق ولكن بتكتم شديد مع العميل السوري الذي كان قد امن احضاره الي مـدير الامن العام ، ومن هذا العميل تعرفت الى الذي باعه البضاعـــة المزورة ومن هذا الاخير عرفت ان مصدر البضاعة بائع عصافير في سوق ابو النصر في بيروت من آل العالية ، وكان آنذاك قد داهمني الليل فلم اعد اتمكن من مواصلة التحريات ، فطلبت عندئذ من العميل السوري ان يتصل بمن له في لبنان ويقول لهم بانه اضطر الى الذهاب الى دمشق وانـه سيعود في اليوم التالي والقيت القبض عليه وعلى اللبناني الذي باعه البضاعة خوفـا من افتضاح سير التحقيق وطلبت الى احد رجال الامن ان يضعهما في غرفة منفردة ريثما اطلبهما منه في اليوم التـــالي وان يمنع أياً كان من الاتصال بهما . كما اني طلبت الى مفوض الشرطة المركزية ان يهيء لي ثلاثين شرطياً وينتظروني في دائرة البوليس صباح اليوم التالي دون ان يعلم مني سبب ذلك . وفي الصباح كنت في دائرة البوليس فوجدت رجال الشرطة بانتظاري وكانت الأوامر قد صدرت اليهم بان يسهـلوا لي كل مهمة اتطلبها . وجيء بالعميل السوري والسمسار اللبناني وقصدنا جميعنا دكان العالية في سوق ابو النصر ، وما ان وصلناها حتى طلبت من مفوض الشرطة ان يطوقوها من جميع جهاتها فكان ما اردت خلال دقائق معدودات ، وبعدئذ دخلت تلك الدكان واجريت تفتيشها . وفي اثناء ذلك تجمهر جمع غفير من الناس يسألون ما الخبر ؟ وقد استرعى انتباهي شخص من بين المتفرجين كان يحاول خرق الصفوف ليصل الي ومـا ان تم له

ذلك حتى اقترب مني وبادرني بالتحية قائلًا : « كيفك يا بيك » كل ذلك بطريقة تنم عن رفع الكلفة والتحفظ ، فازعجتني طريقته هذه لا سيما واني لا اعرف هذا الشخص . وخوفاً من ان يتكرر فعله هذا طلبت من احد الشرطة ان يدعه يقترب مني في داخل الدكان وما ان دخل الرجل حتى حياني وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد وقال لي « هل تذكر يا بيك انك كنت ساكن عنا في بيت ابن عمتي ، انا من بيت الحاسبيني » ولما سألته : ماذا يفعل هنا اجابني : بانه تاجر في نفس السوق وبنفس البضائع التي يتاجر بها العالية . فنشأ عندي احساس بانه يمكنني الاستفادة من هذا الطفيلي المتطفل ، ما دام انه يتاجر بنفس الصنف المزور . فلاطفته قليلًا وطلبت منه ان يتبعني الى المستودع حيث كنت انا ورجال التحري نقوم بتفتيشه . عندئذ ظهرت على وجهه علائم الراحة والانشراح واخذ يتلفت يمنة وشمالاً كأنه يقول لزملائه : انظروا الي والى مكانتي التي احتلها في صدور الحكام ورجال السلطات . ولما اصبحنا انا واياه في المستودع سألته : هل تعتقد ان العالية هو الوحيد الذي يزوّر الكينا ، وهل بامكانك ان تشرح لي كيف يستطيع التزوير فاجابني : « لقّها يا بيك ، العالية مثلو مثل غيرو والقضية مش كل هلقد صعبة كل واحد بيقدر عليها » ثم اضاف قائلًا بانه هو ايضاً قام مرات عدة بمثل هذا العمل وان العالية كثيراً ما كان يحتاج الى كمية فكان يأخذها منه ولكن هناك « خبز وملح » بينه وبين العالية فاجبته انك انت ، طبعاً ، على حدة ... ولكن اريد منك لائحة باسماء المزورين غيرك فاعطاني للحال لائحة بستة اشخاص في نفس السوق وما هي الا دقائق معدودات حتى احضروا الي فاودعتهم السجن مع الحاسبيني طبعاً وصادرت منهم الكينا المزورة والالات . وتوسع التحقيق بهذه القضية فبلغ الموقوفون حوالى الثمانين شخصاً من صيادلة وبائعي ادوية ، وكان لها اثرها البالغ في الاوساط والمجتمعات ، كما انه قد اهتم لها قناصل الدول والشركات الاجنبية ، والمكتب الدولي في استرداد

وقد كنت مضطراً لان اقابل القناصل يومياً حتى اطلعهم على تطورات القضية وهم بدورهم يطلعون الشركات على ما توصل اليه التحقيق ، ولكن الطريف في هذه القضية هو كيفية تحضير مادة الكينـــا وكيف كان المزورون يزوّرونها . انهم كانوا يتخذون بيوت الخلاء مكاناً لهم ، وهناك اذا ارادوا ان يحصلوا على مادة الكينا الحلوة كانوا يضعون الجفصين في داخل المادة ويطلونها من الخارج بغلاف من السكر . اما الكينـــا المرّة فكانوا يكتفون برش الحبوب ببودرة الكينا حتى يحصلوا عليها .

حقاً ان هذه القضية كان لها اثرها الكبير وكثيراً ما اهتم لها الاطباء ونقابات الاطباء لانها كانت تؤثر كثيراً على سير اعمالهم ، وانهم كانوا يضطرون لتغيير وصف العلاج عندما يعود اليهم المريض الذي كانوا قد قد وصفوا له الكينا واخذها مغشوشة ولم يحصل على اية فائدة ، فيحسب الطبيب انه اخطأ في تشخيص المرض فيعود ويصف علاجاً آخر ....



الكوكايين

●

اما قصة الكوكايين فهي ان الكابتن رابيرول مفتش الصيادلة العام في لبنان آنذاك لاحظ أن الصيدليات قد زاد مقطوعها واستهلاكها من مادة الكوكايين في المدة الاخيرة، وذلك خلافاً للمعتاد. فرابه هذا الامر وتقدم من وزارة الصحة بتقرير يبدي فيه ملاحظته هذه. وقد احالت وزارة الصحة ذلك التقرير على النيابة العامة التي طلبت مني التحقيق بالقضية. واول ما قمت به من الاعمال هو اني اجتمعت بالكابتن رابيرول ذاته وبالدكتور نعيم خليل الذي كان يشرف على مستشفى «اوتيل ديو» آنذاك واخذت اتداول واياهم الامر حتى خرجنا بنتيجة هي ضرورة تفتيش بعض الصيدليات المشبوهة.

وفي اليوم التالي لهذا الاجتماع وعلى ضوء قرارنا السابق ذهبنا الى صيدلية الرفاعي وصيدلية فارحي واجرينا التفيش وقد استرعى انتباه الدكتور نعيم خليل ان بعض الوصفات الطبية تحمل عيارات من الكوكايين اكثر من المطلوب، فاخذنا هذه الوصفات وتبين لنا انها معطاة لاشخاص وهميين لا وجود لهم، ومن هنا بدأنا التحقيق وقد تبين لنا ان بعض الاطباء كانوا قد اتفقوا مع بعض اصحاب الصيدليات على انهم ينظمون وصفات طبية تحتوي مادة الكوكايين ولكن عوضاً من ان تركب

هذه الوصفات من قبل الصيدليات تؤخذ مادة الكوكايين وهي خام وتباع في الاسواق ، وهذه الكميات التي تباع تسدد بالدفاتر المخصوصة في الصيدليات باعتبار انها وضعت في تركيب الوصفات المرسلة من الاطباء. وقد قمنا بتفتيش دقيق على جميع الصيدليات الموجودة في لبنان وصادرنا جميع الوصفات التي تحتوي مادة الكوكايين ، وتوصلنا من هذه الوصفات الى معرفة منظميها واصحابها ، وقد ادى ذلك كله الى اعتقال عدد كبير من الاطباء واصحاب الصيدليات . ولما توسعت بالتحقيق توصلت الى معرفة مستهلكي تلك المادة الخطرة ، وكان جلهم من الراقصات والمومسات بنات الهوى . واكبر دليل على ان هذه القضية كانت قد شغلت الرأي العام في وقتها هو ان الصحف كانت تخصص لها الاعمدة الطوال لتتحدث عن قضية الكوكايين واعمال رضا التامر وكشفه الستار عنها . وقد صادف مرة ان كنت في مساء يوم خارجاً من السينما فشاهدت رجلاً قد قطعت يده يتقدم ويخلو سراً بولد صغير يحمل باقات الياسمين التي يعرضها للبيع ، ويعطيه مغلفات صغيرة لا اعرف مضمونها ولكن رابني امر ذلك الرجل فعقدت النية على ان اراقبه في اليوم التالي مصحوباً باحد رجال الامن . وفي اليوم التالي توجهت الى المحل الذي شاهدت فيه ذلك الرجل بعد ان استدعيت احد رجال الأمن لمرافقتي . وما ان وصلت الى ذلك المحل المعين ،الواقع قرب السينما في ساحة الشهداء، في بيروت حتى شاهدت صاحب اليد المقطوعة فقلت لمرافقي من رجال الامن ان يراقبه من بعيد دون ان يجعله يشعر بمراقبته ، وان يلقي عليه القبض عندما يهم باعطاء الولد بائع الياسمين المغلفات . وتركت مأمور الامن ينفذ المهمة التي اوكلتها اليه وذهبت انتظره في مقهى النجار . وما هي إلا برهة حتى عاد الي يخبرني بانه القى القبض على الاشخاص وانهم في النظارة بانتظاري . فذهبت في الحال لاستجوابهم ، وبعد التحقيق معهم تبين لي ان طبيب اسنان من آل كنعان كان يستحصل على مادة الكوكايين بواسطة الوصفات التي نوهنا بذكرها آنفاً ثم يمزجها خمسين

بالماية بمادة الكربونات ويدفع بها الى هذا الرجل صاحب اليد المخطوفة الذي يصرفها بواسطة بائعي الياسمين الى الراقصات والمومسات . وقد رأيت من المناسب آنذاك ان اوقف بعض الراقصات اللواتي كن يتعاطين «شم» الكوكايين. ومن اطرف ما حدث لي هو أني في ليلة من الليالي ، وعلى اثر هـــذا الحادث ، ذهبت ومعي صديق الى ملهى الكيت كات لأروح عن نفسي ، ولما دخلنا كانت بعض الراقصات يقمن بـدورهن في الرقص « التمرد » وما ان وقع نظرهن عــليّ حتى توقفن جميعاً عن الرقص ممـــا جعل فرقة الموسيقى تتوقف ايضاً عن العزف . وتوجهت عندئـذ جميع انظار الحاضرين الي فلم يسعني الا ان اترك القاعة حتى اعيد اليها حالتها العادية . وقد علقت يومذاك مجلة الدبور على ذلك الحادث تحت عنوان : « رضا التامر عدو الجنس اللطيف : يا رضا التامر ، يا رضـــا بهلوي ، يا رضا الكينا والكوكايين ، يا عدو الجنس اللطيف »

وما انا بالحقيقة عدو الجنس اللطيف ولكني صديقه وأسير لواحظه الفتاكة . وصادف ايضاً وبعد مرور عشرين يوماً على هذا المقال في مجلة الدبور ان جاءني الاستاذ مرفندرسكي وهو سفير ايران في لبنان وكان صديقاً لي ودفع الي بعدد مجلة الدبور وقال : ان وزارة الخارجيـــة الايرانية اهتمت كثيراً بما قالته هذه المجلة حين اوردت عبارة « يا رضا بهلوي » ومعلوم أن مليك إيران كان يدعى بهذا الاسم وانها أنبته عـلى عدم احتجاجه على ما ورد في المجلة . وطلب مني اعلامه عما يقصد الكاتب بهذه العبارة وهل يريد امتهان جلالة الشاه بايراده اياها . فاجبته راوياً له المناسبة التي دفعت الكاتب الى ان يورد اسم الشاه على سبيل النكتة لانه صادف اني احمل نفس الاسم الذي يحمله الشاه ولو اني ليس لي مـا له من تاج ومملكة ، وانه لم يكن يقصد امتهان جلالة الشاه او ما يشابـه ذلك . وقد طلب مني السفير الصديق ان اقدم له كلمة بهـــذا المعنى لتكون له حجة بتبرير موقفه امام وزارة الخارجية وقد فعلت «طبعاً» ذلك .



اما مستنطق حمار ....
يا ريت كل المستنطقين متلو

•

مر رجل من حلب مرة في سوق سرسق ببيروت ، وهذه السوق معروفة بشدة ازدحام الناس فيها وكثرة ترددهم عليها ، وبينما كان هذا الحلبي يمرّ من هناك يحمل محفظة نقوده بطريقة عرف بها الحلبيون واهالي سوريا وهي ان يعلقها في عنقه بواسطة ربطة قطنية طويلة تتدلى الى الزنار ، لم يشعر الا وهذه الربطة تقطع والمحفظة تنشل ، فاخذ يصيح مستنجداً بالمارة ولكن صياحه ذهب عبثاً اذ لم يتمكن احد من القاء القبض على الفاعل .

وقف امامي هذا الرجل فاستجوبته وجلّ ما استطعت الحصول منه من معلومات هو ان النشال كان يلبس لباساً اسود اللون وهو معتدل القامة . عندئذ ارتأيت ان اذهب واياه الى دائرة التحري حيث عرضت عليه رسوم النشالين جميعاً فتفرس بهم فاشتبه بثمانية منهم ، فطلبت من رجال الشرطة ان يحضروا هؤلاء الثمانية . وما هي الا دقائق معدودات حتى احضر بعضهم امامي وباشرت باستجوابهم الواحد تلو الآخر ، حتى وصل الدور الى احدهم فدخل عليّ وكان يرتدي بذلة جديدة انيقة ، فارتبت بامره وقلت في سري : ان هذا هو النشال بعينه . ولكن لم تكن الادلة قد توفرت عندي بحقه حتى القي القبض عليه وأوقفه ، فلجأت الى الحيلة وتظاهرت بعد

ان كنت قد اتفقت انا والشرطي الواقف على باب دائرتي بـــأن هذا الشرطي قد اخطـــأ في تصرفه ، ومن جملة مــــا قلت له : اني طلبت منك النشالين لا الرجال الصـــالحين ... أهذا ؟.. واشرت الى الشخص الواقف امامي ... يبدو عليه مظهر النشالين او مظهر الرجل الصالح ؟ وبدأت أؤنب الشرطي الذي اساء التصرف مع هذا الشخص ثم طردته من مكتبي وصرت اعتـــذر للرجل وقلت له : « لا تلقِ بالا الى سوء تصرف الشرطي وازعاجك » عندئذ اخذ صاحب البذلة الانيقة يصيـــح ويقول : « سوف اقيم الدعوى على الشرطي الذي ازعجني وضربني ، وانا رجل لي كرامتي ومعروف عني اني شريف » فعدت اكرر اعتذاري له واهدىء من روعه وارجوه ان ينسى ما حدث وطلبت منه ان يأخذ فنجاناً من القهوة كنت قد طلبته له . وبعد ان شرب القهوة ودعته ، بعد ان رجوته ان يعطي الكاتب عنوانه ومحل اقامته اتماماً للتحقيق الشكلي الذي قام بحقه . وما ان خرج من دائرتي حتى اردفتـــه برجل من رجال التحري قائلا له : ان يتتبع هذا الرجل ويحصي لي حركاته وتصرفاته خلال اربع وعشرين ساعة . فلحق رجل التحري به ولم يمض وقت طويـــل ، وبينما كنت اتناول طعام الظهر في بيتي ، اذ برجل التحري يخابرني هاتفياً بانه القى القبض على نشالي الحلبي وانهم في انتظاري في نظارة العدليـــة ، وان بينهم ذلك الشخص الانيق الذي طلبت من التحري مراقبتـــه ، فتوجهت فوراً الى دائرتي وارسلت وراء الشرطي الذي قصّ على مسمعي الرواية التالية :

لحقت بالرجل الذي كلفتني مراقبته والذي توجه فور خروجـــه من الدائرة الى مقهى « قصر البحر » في محلة الزيتونة وما ان وصل الى المقهى حتى دخل اليه وجلس الى طاولة كان يجلس اليها شخص آخر ، ولمـــا استقرّ بهما المقام اخذ الرجل الانيق يقص على رفيقه كل ما حدث له معك ، كيف دخل عليك وكيف خدعك بلباسه وكيف طردت الشرطي الذي

كان يقتاده وانك اعتذرت اليه وقدمت له القهوة .... ومن جملة ما قاله لرفيقه « اما مستنطق حمار من أعلى طبقة يا ريت كل المستنطقين متلو » وبعد هـذا كله لم يكن من رفيقه الا ان قال له : « طيب فهمنا وين الجزدان » فاجابه المتأنق : « لقد وضعته في مجرور الميـــاه قرب هذه القهوة » ثم ذهب وأتى به .

وهنا قمت من مكاني الذي اتخذته بجوارهمـــا وشهرت عليهما مسدسي وكانا يهمان باقتسام غنيمتهما وصادرت منهما الجزدان .

وما ان اتم لي الشرطي الرواية حتى استدعيت الحلـــبي المسروق وعرضت الجزدان فتعرف عليه وقد اعيد اليه ولم ينقص من ماله شيء . وباشرت استجواب السارقين ، وفيما انا استجوب الرجل المتأنق ، قلت له : «دلني من هو الحمار ! أنا ام انت ؟ » فاجابني : « والله يا معلمي باب هالصراع هذا عليّ جديد »

وبعد ان انتهيت من استجوابهما قذفت بهما الى السجن ليـــأتي اليوم الذي ينالان فيه من يد القضاء العقاب المنتظر .



بتؤمر شي

•

ان الجناة لهم طريقتهم الخاصة في انكار الافعال التي يقدمون على ارتكابها ، فهم من هذه الناحية ينقسمون الى فئة ذكية سريعة الخاطر والبديهة كالمحتالين والنشالين والسارقين ، والى فئة ساذجة عادية كالقتلة والمتشاجرين والمتضاربين الذين لا يقدمون في غالب الاحيان الا على افعال الضرب والجرح والقتل .

وقد صادف مرة ان حققت مع شخص من الفئة الثانية كان قد دفعه احد المتنفذين في بلده لكي يقتل خصماً من اخصامه ، ولما باشرت التحقيق وكشفت حقيقة القاتل جيء به فاعترف اعترافاً صريحاً بأنه هو الذي اقدم على قتل الضحية عن سبق تصور وتصميم . ولما انتهيت من التحقيق معه التفت الي وقال : « بعد بتؤمر مني شي غيرو ؟ » وتوجه نحو الباب يريد الخروج من حيث اتى متوهماً انه قد قام بما عليه وانه لم يعد له أي عمل لدى المستنطق فينبغي خروجه . ولما افهمته ان الجرم الذي اقدم على ارتكابه والذي اعترف به يعاقب عليه بالاعدام ، واذا رحمته المحكمة وارادت ان تمنحه اسباباً مخففة قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة ، التفت الي قائلاً : « ان فلان ...... المتنفذ ، كيف قال لي انه صاحبك ... وانه صاحب الرجال الكبار واني ساكون حراً طليقاً بعد اعطاء افادتي ؟ » فأجبته

وانا ارثي لحاله : « كيف تقدم على ارتكاب القتل دونما سبب ومن اجل شخص قال لك أقدم على عمل ستدفع ثمناً له عنقك وحياتك » ، ولما عرف ان الامر اصبح جداً لا هزلاً وان ما قيل له هو غير الواقع اخذ يبكي كالاطفال وكأنه لم يكن ذلك الوحش القاتل سفاك الدماء .

فآه من تلك العقول الغريبة والرؤوس الصغيرة في الجثث الكبيرة ...

وقع عالسكين

وهناك حادثة من هذا القبيل وهي ان بدويين كانا في مسلخ بيروت ، ومسلخ بيروت هو عبارة عن قاعة فسيحة الارجاء يجتمع فيها المئات من الناس ، وقد اختلف هذان البدويان على امر بينهما فاقدم احدهما على طعن الآخر بمدية في بطنه طعنتين ، وقد القي القبض على الطاعن بجرمه المشهود ، أحيل علي للتحقيق . وما ان استوضحته كيف طعن خصمه حتى قال لي : « كنت اتشاجر مع المطعون فوقع أرضاً وصادف انه كان هناك ، اي على الارض ، سكين فوقع عليها واصيب بها » ، وعبثا حاولت اقناعه بأن الانكار لا يفيده وان اعترافاً مثل اعترافه لا ينفعه أبداً لا سيما وأن هناك شهوداً شهدوا الحادث والقوا القبض عليه بالجرم المشهود وانه لا يعقل ابداً ان تدخل السكين ، اذا كانت كما يزعم على الارض مرتين ، في بطن المصاب لانه تبين من تقرير الطبيب أن المصاب أصيب بطعنتين . فما كان منه إلا ان اصر على أقواله وقال لي : « عليم الله تشاجرت أنا وإياه ووقع على السكين » فقلت له ان التقرير الطبي يقول بأن المصاب أصيب بجرحين فهل يعقل ان يصاب بجرحين اذا كان كما تزعم قد وقع على السكين ؟ فاجابني فوراً : « كان يوجد على الارض سكينين » فلم يسعني عند ذلك إلا ان دونت اقواله وانا اعجب لحاله ولعقله المتحجر ولطريقته الصبيانية في تبرير نفسه من جريمة اقدم على ارتكابها ...



فاطمة حسن القهوجي

●

إنّ كيدهنّ عظيم

قضت ، بتاريخ ١٨ حزيران سنه ١٩٥٢ ، محكمة تميز الجزاء في لبنان التي كنت محامياً عاماً لديها بالاعدام على امرأة تدعى فاطمة حسن القهوجي . فمن هي فاطمة هذه ، وماذا فعلت حتى حملت أعلى محكمة جزائية في لبنان على الحكم عليها بالاعدام ؟

نشأت فاطمة حسن القهوجي في عكار – لبنان الشمالي ، وانتقلت الى طرابلس حيث تزوجت المدعو حسن العبوشي ورزقت منه ولداً ، ولكن فاطمة هذه لم تكن تراعي قدسية الحياة الزوجية كما تأمرها الاديان والشرائع ، بل كانت تلبي نداء شهوتها المتقلبة فهي لم تخلق لشخص واحد بل لجميع الراغبين . وكان لها ما ارادت فاسترسلت في المنكر ، وكانت تتفنن وتستعمل مكرها ودهاءها لاصطياد العشاق ، وقد وقع في حبائلها وشراكها الكثيرون الذين كانت تستغلهم لمآربها الشخصية وتسيطر عليهم بقوتها وفتونها .

ولم يكن كل ما ذكرنا شيئاً عرضياً عند فاطمة هذه بل كان اصيلاً في نفسها وهي لم تكتسبه اكتساباً بل ورثته وراثة ، فهذه شقيقتها فضيلة

تتعاطى الدعارة السرية حتى تستقر مومساً في حلب ، وهذه شقيقتها الثانية رشيدة تنحو نحو شقيقتها فضيلة فتأخذ عنها الدروس وتتعاطى الدعـارة بواسطتها وبتسهيل منها . وقد القي القبض عليها مرة وهي في الجرم المشهود وكانت فضيلة ... ما ابعد الفضيلة عن فضيلة ! مشجعتها واستاذها الامثل ...

وكان بين الذين تعلقوا بفاطمة وفتنوا بها شخص يدعى محمد وجيـه حجازي شاء سوء حظه ان يتعرف عليها ، ففتحت له قلبهـا بادىء الامر ولكنها ما لبثت ان ملته فتركته لتفتش عن صيد جديد غـيره ، ولكن هذا المسكين كان قد علق بحبها واصبح لا يعيش الا في ذكراها ، وهو يحن كثيراً للرجوع الى احضانها ، ولكنها طردته ففكر ان يشي بها الى رجال التحري والى سلفها المدعو محمود الحلبي علها تقتصر عن غـيره فتعود اليه وتعود المياه الى مجاريها . ولكن خاب فأل هذا المسكين ، فان وشايته احدثت رد فعل في نفس فاطمة ، فما ان رأت نفسها مراقبة وانها لم تعد تقدر على متابعة اعمالها المنكرة حتى تركت بيتهـا واضطر زوجها لتركها ، فالتجأت الى غرفة كائنة على سطح بنـاية آل المقدم في طرابلس ، وتابعت هناك سيرتها بكل تحفظ ودراية ، ووجدت نفسها غير ما كانت عليه اولاً . فثار ثائرها وتأججت نار النقمة في صدرها ونسبت كل مصيبتها الى عشيقها المصدوم محمد حجازي الذي وشى بها وسبب لها كل هذه المتاعب ، فحقدت عليه وقررت بينها وبين نفسها الانتقام منه فاخذت تهيء مؤامرة للفتك به ، واستعرضت عشاقها كلهم علها تجد واحداً منهم تركن اليه وينصاع لها ، فوقع اختيارها على احمـد محمـد قريطم الذي يهواها ، فاستدعته اليها في الحال واطلعته على ما قررت واغرتـه بالوعود الخلابة والمنى الجميلة والمال الوفير وبحبها الدائم له وبمساعـدة شقيقها الذي سترسل في اثره لكي ينفذ ما قد هيأته للواشي ..... وما هيأت له غير ميتة تنقع غلتها وتطفيء نار حقدها .

لم تتوقف عند هذا الحد ، بل تعدته الى ابعـد من ذلك فاغتنمت

فرصة غياب شقيقها المتزوج بالمدعوة عبلة واخذت توهم هذه بان زوجها قد هجرها وطلبت منها ان تهجره هي بدورها وتأتي معها الى غرفتها حيث تلتقي بالعشاق الكثيرين والطالبين الملحين بالطلب . وقد نسيت كل النسيان ان شرف هذه المرأة هو شرف شقيقها، وانه من العار عليها ان تمزقه وتدوس عليه . ولما تيقنت من سلطانها على عبلة هذه اغوتها واخذتها الى غرفتها وطفقت تستثمرها وتستغل جسدها ، واوغرت صدرها على الواشي الذي دمر حياتها ، واقنعتها بأن تساعدها على التخلص منه ، وكان لها ما ارادت ، فارسلت عبلة يوماً الى قرية بدبا في الكورة تستدعي لها شقيقها حسين بعد ان تبلغه بان هناك شخصاً طرابلسياً نسب الى شقيقته اشياء شوهت لها سمعتها والحقت بها العيب ، وان سمعة شقيقته لها مساسها وعلاقتها به شخصياً ، وان واجب الشرف يقضي عليه بقتل هذا الرجل الذي نسب الى شقيقته اشياء لا صحة لها ولا اساس . وقد انطلت الحيلة على حسين فذهب الى مخدومه الذي كان يشتغل لديه راعياً لمواشيه واستأذن منه في النزول الى طرابلس لوداع شقيقته التي ترغب في السفر الى حلب ولكي يأخذ من عندها ما اودعها من اغراضه . فأذن له مخدومه بعد ان اخذ وعداً منه بأنه يعود قريباً . وذهب حسين وعبلة الى طرابلس حيث تقيم شقيقته فاطمة وما ان وصلا الى غرفتها حتى اخذت تتظاهر امام شقيقها بان محمد حجازي الحق بها عاراً لا تمحوه الايام وانه هدر كرامتها ونال من عرضها وشرفها ، وبقيت تضرب على هذا النغم حتى فقد شقيقها اعصابه امامها وبلغ منه الحنق على محمد حجازي حداً كبيراً وقال لشقيقته بانه مستعد لمحو ذلك العار بمحو محمد حجازي من الوجود . وقد شدد له عزيمته واقباله على هذه الجريمة وجود شخص آخر – احمد قريطم – سيكون رفيقه ومساعده في الجريمة .

وما ان تم لها ما ارادت حتى اخذت تترقب حضور محمد حجازي الذي كان يأمل ان يحتفظ بها لنفسه دون ان ينازعه فيها احد ، والذي كان يتردد الى محل مرطبات قريب من غرفتها ، مساء كل يوم معللاً النفس

بمشاهدتها او بمحادثتها ، وما ان اطل مساء تلك الليلة المشؤومة حتى ارسلت عبلة في طلبه فأبلغته بان فاطمة تريد مقابلته . وما كاد يسمع الخبر حتى سر سروراً عظيماً ، ودخل في روعه ان عشيقته ستعود اليـــه . فأرسل لعشيقته ابتهاجاً بهذه المناسبة المرطبات والبوظة فشربتها مع من كان من أعوانها ، وبقي محمـــد في انتظارها حتى بلغت الساعة العاشرة والنصف ليلاً . وعندئذ خرجت لمقابلته بعد ان كانت قـــد دفعت الى احمد قريطم بخنجر أعدته خصيصاً ، وتأكدت من ان شقيقها يحمل ايضاً خنجره وطلبت منهما ان يلحقا بها بعد ان يشاهداها هي ومحمد حجازي الذي ستقتاده الى محل عينته لهما وطلبت اليهما ان لا ينقضـــا عليه الا بعد ان يريا الاشارة وهي : « إشعال عود الكبريت مرتين متتابعتين ». واتفقوا عـلى ذلك ، وخرجت من غرفتها ، ومرت بمحمد حجازي الذي كان ينتظرها في محل المرطبات ولما شاهدها تمر من امامه لحق بهـــا وسارا مسافة بعيدة بعيدين عن عيون الرقباء ، حتى وصلا الى مكان تكتنفه الاشجار . فوقفت فاطمة هناك ، واخذ محمد لما وصل اليها بالعتاب وبثّ الشوق والغرام . وما هي الا برهـــة حتى أخـــذت فاطمة سيجارة واشعلتها بعود من الكبريت اولاً وثانياً ، وما هي الا لحظات حتى شاهد محمـد حجازي نفسه محاطاً بحسين واحمد اللذين اخذا ينهالان عليه طعناً بخنجريهما وهو يصيح ويرجوهما أن يدعاه وشأنه وان يكفا عن طعنه قائلاً : « دخيلكم دخيل عرضكم » ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، وظلا ينهالان عليه بالخنجر حتى بلغت الطعنات تسع عشرة طعنة ، وقد حاول ان يدافع عن نفسه بسكين كان يحملها ولكن دون جـدوى حتى خر صريعاً يتخبط في دمـه . ولكن المجرمين الاثنين لم يدعاه يرقد رقدته الاخيرة في سلام فما كان من احمد قريطم الا ان تقـدم من الضحية ووضع رجله على الرأس وقال مخاطباً حسين : « قرب اذبحه هالعكروت » فأجابه حسين : « شو جايـــين نعمل ? » وتقدم من الضحية وذبحها من الوريد الى الوريد كما تذبح النعجة

وكان هذان المجرمان يقومان بما لا تقـــدم عليه النفس الشريفة . وكانت الفاسقة فاطمة تنتظرهما على بعد بضع خطوات منهما تراقب المارة . ولما عادا اليها مخضبين بدم ضحيتها واخبراها بما فعلا لم تصدقهما إلا بعد ان تقدمت بخطى راسخة الى حيث تركت جثة المغدور وأخذت عوداً من الكبريت وأشعلته لتتأكـــد على ضوئه صحة قولهما ، وكأنها لا تتلذذ بالجريمة بمجرد السماع بها بل تجـــد لذة فائقة في رؤية ضحاياها وهم يتخبطون بدمائهم ويروحون في الموت صرعى كيدها وشرها .

وبعد ان تأكدت من موت ضحيتها عادت مع شريكيها في الجريمة الى البيت حيث قامت هي وعبلة بازالة الاثار الجرميـــة وغسلها عن أثواب المجرمين .

وفي اليوم التالي عثر على جثة العاشق القتيل وبوشر التحقيق واعترفت فاطمة وشركاؤها بجريمتهم النكراء .

. . .

تباً لها من امرأة عاهـــرة ضحت بزوجها وبشقيقتها وبزوجة شقيقها وبعشيقها في سبيل ارضاء غريزتها المجرمة وشهوتها الشريرة .

ولكن المرأة هي المرأة ، فكيدها عظيم ، والويل كل الويل لمن يقف في وجهها ، والسعادة كل السعادة لمن ينال رضاها .



فـؤاد علامـة

•

... مهنته ومزاياه ...

لقد لعب فؤاد علامة دوراً مهماً في اوساط جبل عامل والجنوب بكامله ، وتخطى هذه الحدود الى جميع انحاء لبنان ، حتى لم يعد هناك واحد الا ويعرف نادرة او حادثة من حوادث فؤاد علامة في كيفيـة سطوه على المارة وسلبهم ما يحملون . فؤاد علامة ، هذا ، هو شاب من الشوف ، قصير البنية ، رقيق الجسم ، اتخذ السلب على الطرقات العامة مهنة مـع رفاق له . فعاث فساداً في الاراضي اللبنانية كافة ... ودب الرعب على الحدود اللبنانية الفلسطينية والحدود اللبنانية السورية حتى لم يعـد هناك شخص واحد يجرؤ على السير راجلاً او في السيارة في تلك المناطق . وصدف مرة ان كان احد الاميرالية البحريين الفرنسيين مع ثلة من جنوده يقصدون دمشق للتنزه . وفي الطريق اعترضهم فؤاد علامـة وسلبهم كل ما معهم ، فأخذ شهرة لم تكن لشقي غيره . والى جانب ذلك فقد كسب عطفاً لا يحلم بمثله قاطع طريق خاصة من النساء اللواتي كسب عطفهن لانه لم يكن ليدنو من اية امرأة اثناء اعمال السلب ، حتى ولو كانت متحلية باثمن الجواهر ... وعرف عنه هذا الشيء .. فكان المسافرون عندما

يحسون بانه سينقض عليهم يسلمون كل ما لديهم من اموال ومجوهرات الى النساء المسافرات وبذلك ينجون من يد فؤاد علامة ... وكان هو يشاهد هذه الألاعيب في بعض الاحيان ولكنه يضرب صفحاً عنها ولا يلمس النساء مطلقاً ... وكان يقول لكل من يقوم بهذه اللعبة : « لقد رأيتك ولكن احتراماً للسيدة اصفح عنك واعفو عن دراهمك ، فهي بأمان ما دامت في حوزة امرأة » .

خفة في التنقل

ازعج فؤاد علامة الحكومة بكيفية مطارداته ، فبينما نسمع انه سطا على قافلة في الصباح عند رأس الناقورة اذا بنا نسمع انه سطا على قافلة ثانية بعد ثلاث ساعات في مرجعيون أو قرب صيدا .. وفي بعض الاحيان كانت الحكومة تتوهم بأن هناك عدة عصابات تسطو على المسافرين وتتستر باسم فؤاد علامة .. وكنت لا تحضر اجتماعاً او سهرة ولا تدخل صالوناً ، الا ويكون فؤاد علامة نقطة الحوار والحديث والابحاث ، وخاصة النساء اللواتي يتكلمن بحرارة عن صفاته الحميدة وعفته .. وكن جميعهن من رأي واحد هو ان هذا الرجل ليس بمجرم ويجب ان لا يعاقب ابداً .. وفي هذه الاثناء اعتقلت الحكومة عشرات الاشخاص ، ولكن فؤاد علامة ما زال حراً وما زالت السرقات تتوالى .. واعلنت قوات الامن عجزها عن القاء القبض عليه بالطريقة البوليسية فعهد لقائد الدرك الياس المدور ان يقوم بهذه المهمة بالطريقة التي يراها ، هو ، فأخذ المرحوم الياس المدور يتحرى ويستعلم عن الامكنة التي يؤمها فؤاد علامة فعلم انه يقيم الآن في الشوف وهو مريض في قرية « عين قنا » عند احد وجهاء القرية .

خدعة ناجحة

وتوصل الياس بك المدور لما بينه وبين هذا الوجيه من صلة صداقة

وعقيدة ماسونية ، ان يلعب لعبته بنجاح ، اذ هيأ له « الوجيه » جواً مناسباً للايقاع بفؤاد علامة الذي كان قد امن على حياته واختبأ عنده . واستطاع هذا الوجيه ان يقنع فؤاد علامة بانه دبر مع القائد الياس المدور المسألة ليقوم هذا الاخير بمهمة تهريبه واخراجه عبر الحدود اللبنانية . وانطلت الخدعة على ذهن فؤاد علامة واجتمع الياس المدور وفؤاد علامة في بيت الوجيه حيث تناولا الطعام على مائدة واحدة ثم اخذ يطوف به في مراكز الجند الذين كانوا يتعقبونه ، وبذلك استطاع الياس المدور ان يكتسب ثقة الشقي الساذج من هذه الناحية . وطلب يوماً قائد الدرك المذكور من فؤاد علامة ان يرتدي لباس امرأة ويذهب مع صديقه الوجيه صاحب المنزل الى بيروت حيث لا رقابة ولا تفتيش عليه . ومن بيروت يرسله الوجيه الى حلب الى احد اقاربه حيث يحتفون به ويكرمونه ويؤمنون له عملاً مهماً يعيش منه برفاهية وسعادة . وهكذا كان فقد ارتدى فؤاد علامة صديق النساء لباس امرأة وذهب برفقة سيدتين الى بيروت حيث كانت تواكبه دورية رافقته حتى انزل في بيت احد ابناء عين قنا ليقضي ليلته. وعند الصباح تابع سيره في سيارة وكان برفقته ثلاثة من الجنود بلباس مدني وبصفة مسافرين الى حلب ... وكان الياس المدور قد زود فؤاد علامة بكتاب توصية لاحد الاشخاص الوهميين في حلب .. وكان يتبع السيارة ويراقبها من بعيد في الطريق العام . وما ان وصلت السيارة قرب جديدة المتن حتى بادر احد الجنود المتنكرين ، وكان جالساً قرب السائق ملتفتاً وشاهراً مسدسه بينما كان الجنديان الباقيان ممسكين بذراعي فؤاد علامة يمنعانه من الدفاع عن نفسه ، اذ انه كان ما يزال يحمل مسدسه في وسطه ، ودوت عدة طلقات نارية من مسدس الجندي المتنكر فؤاد بربر واستقرت في صدر فؤاد علامة ..

وهكذا مالت صفحة هذا الشقي شيئاً فشيئاً نحو الانطواء فالنسيان . واثر الحادثة نظم رجال الدرك محضراً مفاده ان صداماً ، عنيفاً ، وقع بينهم وبين

الشقي الفار فؤاد علامة واستعملت فيه الاسلحة النارية فوقع الشقي اثر اصابات بالرصاص اودت بحياته ، ولكني ما لبثت ان اطلعت على الخبر اليقين من احد الضباط ، خضر بخور ، الذي اخبرني كيفية تلفيق هذا المحضر الصوري .. فذهبت تواً الى سجن الرمل لاشاهد هـذا الشاب ولو ميتاً ، فاذا بي امام رجل شوهت مظاهر الرجولة فيـــه .. وكان يلبس بذلة افرنجية على جانب عظيم من الاناقة والذوق ، وكان قد حلق شاربيه ، وكانت ربطة الرقبة قد عقدت بشكل يدل على الاناقة وسلامة الذوق ، وكان مرتدياً قبعة من الفلين ، كل ذلك على جسد ميت لم يعـــد يحسن الاناقة ولا الذوق السليم ... وفي هذه الغمرة اخذت الجرائد تتناقـــل خبر مقتله باحثة عن حقيقة النهاية التي آل اليها هذا الشقي الذي كان يتمتع رغم شقاوته ، ببعض المزايا الحميدة .. وكنت تسمع الاحاديث جميعها في اي مجتمع دخلت ، تبحث قضية فؤاد علامة وتحللها ولكن فؤاد علامة قد ذهب وتحسرت عليه كثيرات من النساء ، وبكاه بعضهم وبعضهن وتأسف على فقده البعض الآخر ولكن الحكومة يومئذ قد قرت عينها وارتاحت قليلاً لأن كل ما كانت تفكر به هو انها تخلصت من فؤاد علامة .

تحقيق وانكـــار

« خاطبوا الناس على قدر عقولهم »

كان من جراء ما قام به فؤاد علامة ان اقيمت عدة دعـــاوى سلب وتشليح ومن بينها دعوى سببها حادثة وقعت على الطريق العام بين بيروت وصيدا في وادي الزينة . وخلاصة الحادثة ان فؤاد علامة كان قد اوقف سيارات عدة في الطريق المذكور ليقوم بمهمتـــه في السلب واذ بسيارة نقل جنديين مسلحين ، فلما شاهدا السيارات واقفة ترجلا اعتقاداً منهما بان صداماً قد حصل بين سيارتين فسبب عرقلة السير ولكن ما كاد المراقبون من رجال فؤاد علامة يلحظون الجنـــديين يقتربان من مركز التشليح

حتى بادروا باطلاق النار عليها فخر احدهما المرحوم لحد الخوري صريعاً واصيب الثاني بجرح طفيف اضطره للتسليم والتخلي عن سلاحه . واحيلت هذه الدعوى اثر الحادثة الى المجلس العدلي المختلط لاهميتها ، وكان المحقق العدلي اذ ذاك فرنسياً يدعى المسيو « تنبال » وكان ان قطع التحقيق شوطاً بعيداً ولكن حدث قبل انجازه ان اعتقل بعض اعوان فؤاد علامة . وما لبث رئيس العصابـــة ان اغتيل كما ذكرت ، لذلك رأت السلطات في اليوم التـــالي ان لا تعرض الدعاوى التي سببها فؤاد علامة امـام المجلس العدلي بل يتسلمها قاضي التحقيق في المنطقة التي وقعت فيها الحادثـــة ، وهكذا احيلت دعوى الناقورة ، وجسر خردلة على التحقيق في منطقـة الجنوب ، واحيلت دعوى وادي الزينة على قاضي تحقيق جبل لبنان ، واما دعوى وادي الحرير فقد احيلت على قاضي التحقيق في منطقة البقاع الخ ...

وكان قد مضى على المتهمين بقتل الجندي لحد الخوري عدة شهور دون استجواب ، فدعيت لتسلم التحقيق وكانوا قد لقنوا كيف ينكرون التهمة ويلصقونها بفؤاد علامة الذي قتل بيد الدرك ، رغم انهم اعترفوا بالجريمة امام المحقق الفرنسي . وهكذا كان ، فقد رأيت اثناء استجوابي لهم ان التحقيق سينقلب رأساً على عقب ، وأخذت افكر بالعاقبة خاصة واني كنت في اول عهدي بالتحقيق القضائي . ورحت افكر بان المسؤولين سيأخذون عني نظرة لا ترضيني ، لاسيما واني لم استطع أن أنتزع من هـــؤلاء المجرمين الحقيقة التي انتزعها المحقق الفرنسي منهم فلا اخرج بالنتيجة التي خرج هو بها . وعلمت بان هؤلاء المسؤولين لن يأخذوا بعين الاعتبار المدة التي قضاها المتهمون في السجن حيث ازداد دهاؤهم ووسعت حيلتهم فعرفوا كيف ينكرون التهمة ويضللون المحقق . ولكن فكرة بسيطة عرضت لي وحاولت يائساً ان الاحقها وأعمل بها ، فاستدعيت احد المتهمين الثلاثة ، والذي لاحظت عليه علامات السذاجة رغم تقاسيمه القوية التي تدل على غريزة حب الظهور

ومرض الشعور بالعظمة . وما دخل عليّ حتى اخذت احدجه بنظراتي من كل صوب ، فتأملت رأسه ووسطه وقدميه ويديه وظهره فدهش من ذلك ونظر الي وسألني عن السبب عندئذ بدأت خطتي وقد فتح لي هذا الساذج بابها فقلت له : « لقد كنت مسروراً عندما احيلت عليّ هـذه الدعوى لانني كنت انتظر ان ارى أسوداً في هيئة رجال وخاصة انت صاحب هذه التقاسيم الجبارة وعلامات الرجولة والشدة والجبروت .... وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدت انه لا فرق بينك وبين اي انسان بسيط آخر او اي سارق لص صغير يقوم بعمله في وضح النهار ثم ينكره عند القاء القبض عليه ، بكل ذل وخنوع ، وهكذا فعلت أنت . لقد هاجمت ببندقيتك وكنت مضرب الامثال في فم كل شجاع مقدام ، واشتهرت بشدة البـــأس وقوة المراس . وبعد تلـــك الشهرة اتيت بكل اذلال وصغر نفس تنكر هذا الشيء امامي بعد ان اعترفت به امام المحقق الاجنبي . واعلم ان هذا الانكار لن يفيدك شيئاً سوى الحقارة فتخلع عنك ثوب الرجولة والقوة ... ولو انك كنت لصاً حقيراً او عتالا صغير النفس وكذبت لهان الامر اذ ان كذبك يتفق مع هذه الاعمال البسيطة التي لا تدل عـــلى بطولة وشجاعة . امـــا وان تكون انت وتقوم بما قمت به من اعمال تدل على الجرأة والبطولة وعدم المبالاة ثم تأتي وتكذب امامي منكراً كل شيء ، فهذا غير محتمل ابداً ، فاما ان تكون بطلًا والبطل لا يكذب ، واما ان تكون صغير النفس فتثابر على هذه الافادة وتثابر على انكارك وبذلك استطيع ان اقول اني كنت مغشوشاً ساعة حدثت نفسي برؤية آساد بصورة رجال فرأيت اناساً يكذبون ويتهربون من اعمالهم ...»

كنت اتكلم حريصاً الحرص كله على عدم اظهار التكلف في حديثي .. فبدوت جاداً في قولي حتى لم اترك للرجل ريبة يدخل الشك فيهـا الى نفسه بما أسبغه عليه من الوان الشهامة والبطولة والقوة . وما ان انهيت حديثي حتى رأيت هذا الرجل وقد وضع يديه على شاربيه واخذ يداعبهما

ويفتل بها ، ثم انتفض وقال لي بحدة وغيظ وحماس : « وشرفي وايماني سأقص عليك الرواية كما حدثت بالتفصيل وسأقول الصدق ولو انتهى بي الى حبل المشنقة » وهكذا كان... فقد ذكر لي الحادثة كما حدثت وصورها تصويراً مؤيداً ببراهين مادية ملموسة كانت مجهولة في التحقيق . ولما امرت الحارس ان يأتيني بغيره للاستجواب ، طلب مني الرجل « البطل » ان اتركه حيث هو ليقابل رفيقيه وقال لي : « اريد ان اخبرهما اني قلت الحقيقة ثم اطلب اليهما الرجوع عن انكارهما لانني كنت قد اتفقت واياهما على الكذب . » وهكذا كان ، فعندما دخل عليّ رفيقاه التفت اليهما قائلاً : « لقد ذكرت الحقيقة وعليكما ان لا تتخاذلا ولا تكذبا حتى لا يلحقنا العار ، فقد قمنا باعمال الفروسية التي يجب ان لا ننكرها ابداً . واما فؤاد علامة فقد قتل ، رحمه الله ، ولا لزوم لان ننسب اليه تهمة القتل وهو بريء منها ، لانه كما نعلم كان واقفاً في سفح الجبل من الجهة المعاكسة للجهة التي قتل فيها المغدور لحد الخوري واصيب رفيقه » وهكذا اعترف المتهمون الثلاثة بالجريمة بصورة مفصلة ووقعوا اعترافاتهم وايدوها امام محكمة الجنايات ، رغم ان اقاربهم حاولوا ردعهم عن ذلك ، ولكنهم فضلوا الصدق ولو كان فيه الموت على الكذب وان كان فيه بعض النجاة ، وكل ذلك املاً بأن يخلد لهم التاريخ بطولة ولو « بطولة » الاجرام .

وبذلك اسدل الستار على قصة فؤاد علامة وعصابته وما زالت حتى يومنا هذا مضرب الامثال .



سرقة هنري

•

يقع محل الخياط هنري في محلة باب ادريس وهو من اشهر خياطي الشرق ، ممن يتقاضون اجوراً باهظة تساوي اضعاف ما يتقاضى غيره من الخياطين .

دخل هذا الخياط محله في احد الايام ولشد ما كان جزعه ودهشته ساعة وقع بصره على « الصندوقة » الحديدية فلم يجدها .. فجن جنونه لا سيما وان الصندوقة تحتوي ستة آلاف ليرة لبنانية وبعض السندات المالية والاوراق الخاصة .. فتوجه تواً الى السلطات المسؤولة وتقدم بدعوى .. وصدف ان احيلت هذه الدعوى علي ، فبادرت بزيارة محل السرقة واخذت استجوب خدمه .. ولفت نظري شخص اخذ يتثاءب وقد بدت عليه دلائل التعب والاعياء وخاصة في عينيه الحمراوين ، فاقتربت منه وسألته : « في اي مكان قضى ليلته » وكان هذا الرجل ارمنياً ذكياً سريع الاجابة يتخلص من الاسئلة بسهولة ولكني ارهقته بعد استجواب دام دقيقتين بالاسئلة وقد تمسّكت بكل طرف من حديثه يشكل قسماً من الحادث . ثم ما لبثت ان انتزعت منه الاعتراف بالسرقة على الوجه الآتي قال : اتفقت مع صحبة لي من الارمن على ان نسرق هذا المحل ، وطلبت اليهم ان يوافوني ليلاً اليه واكون انا بانتظارهم في الداخل ..

وفعلاً فقد استأذنت من صاحب المحل بالانصراف مبكـــراً فسمح لي . توجهت نحو الباب الداخـــلي وبدلاً من ان اخرج الى الشارع اختبأت تحت الطاولة المعدة لكيّ البذلات .. وبقيت على هـذه الحالة مدة ثلاث ساعات لا استطيع حراكاً حتى كادت انفاسي تخمد ، لا سيما وان الطاولة كانت صغيرة وان الخدم كانوا يتنقلون باستمرار ويمرون قربها ويقومـون بالكيّ عليها ... ولم يكـد ينتهي وقـت الدوام وينصرف الجميـــع وتغلق الابواب حتى قفزت من تحت الطاولة ، وانتظرت حضور رفاقي ففتحت لهم الباب من الداخل ونقلنا الخزانة الحديدية الى محلة الكرنتينا وهي الآن في احد الاكواخ المتهدمة . وقد اتفقنا على ان نفتحها حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حيث يحضر احد الزملاء الآلات اللازمة لفتحها .

اودعت هـــذا المتهم في قصر العدل تحت اشرافي شخصياً وعنـــد منتصف الليل رتبت كميناً حول الكوخ حيث الخزانة ، وكان المتهم يرافق رجال الامن ، وتم بذلك القاء القبض على المشتركين جميعاً وهم بحالة الجرم المشهود ، وصودرت منهم الآلات التي كانوا يحاولون فتح الخزانة بها ولا سيما آلة فولاذية صنعت خصيصاً لمثل هذا العمل .

وكان صنعها على غاية من الاتقان لدرجة انها تكفل لصاحبها فتـــح جميع الخزائن مهما كانت محكمـة الاقفال متينة الصنع ، وبعبارة اوضح لقد كانت الخزائن الحديدية امام هذه الآلة كعلبة السردين امام مفتاحها .

وقد اعترف الجميع واعيـدالحق الى نصابه .



هذا الجمال يمكن ان يجذب الجميع
حتى سيدنا المستنطق

●

وردت على النيابة العامة دعاوى سرقات عدة حار رجال الامن بامرها وضاق التحقيق بها ذرعاً نظراً للغموض الذي كان يكتنفها ، اذ ان هذه السرقات كانت تحصل بصورة تثير الشك والعجب ، فكانت المجوهرات والاموال الموضوعة في الخزائن الحديدية داخل البيوت والمحلات تسرق دون كسر في الابواب او النوافذ ، ودون كسر في الخزائن الحديدية ، ودون اي اثر يتمسك به المحققون فيأملون العثور على الحقيقة بواسطته .. وكنت في ذلك الوقت اجري التحقيق في دعوى من هذا القبيل تتعلق بسرقة منزل الامير مالك شهاب من كبـار موظفي وزارة الصحة والاسعاف العام آنذاك. وتفصيلها ان هذا الرجل خرج من بيته برفقة زوجته وتوجها الى السينما .. وكانت الخادمة قد طلبت من مستخدميها ان تذهب الى السينما هي الاخرى .... وقد غادرت البيت قبل ان يغادراه ، وكانت الزوجة قد ارادت ان تلبس قبل ذهابها الى السينما خاتمها الالماسي الثمين الذي يقدر ثمنه بمائة وثلاثين ليرة عثمانية ذهباً ، ولكن الزوج اقنع زوجته ان لا لزوم لذلك اثناء الذهاب الى السينما ، فوضعت الزوجـة هذا الخاتم مع المجوهرات الباقية في الخزانة واقفلتها ثم غادرا المنزل بعد ان

اقفلا الباب بالمفتاح ، ولهذا القفل ثلاثة مفاتيح احدها مع الخادمة التي ذهبت قبل سيديها والاثنان الباقيان مع الزوجين . وصادف ان عاد الزوجان الى البيت قبل الخادمة وما كادا يفتحان الباب ويطلان على محتويات البيت حتى وقع نظرهما على الخزانة التي تحوي الخاتم والمجوهرات مفتوحة وليس في داخلها شيء .

وفي الحال استدعي رئيس الادلة الجنائية الذي باشر تفقد الابواب والنوافذ فلم يجد اي اثر لكسر او خلع او ضغط على الابواب الداخلية والخارجية ، فأكد ان السرقة حصلت بواسطة مفاتيح البيت ... وازاء ذلك كانت الخادمة هي المتهمة الوحيدة التي تناولها التحقيق ، ولكن الخادمة انكرت التهمة وبرأت نفسها ، وثبت بعد ذلك انها لم تذهب الى السينما بل كانت مع عشيقها . ثم أصدرت بحقها مذكرتا توقيف ...

وبعد شهرين من الحادثة قبض على لص بتهمة السرقة فاخذت استجوبه واحقق معه فاعترف لي بست وثلاثين سرقة ، وكانت سرقة الامير مالك شهاب احداها .

القبض على اللص

لقد غادرت احدى السيدات منزلها واتجهت صوب المدينة لقضاء بعض حاجاتها ، وعندما عادت الى البيت ودخلته فغرت فاها جزعاً ودهشة ساعة رأت الخزانة مفتوحة وقد تبعثرت اثوابها فهالها الامر وخرجت لتوها تبحث عن شخص تروي له الحادث . وفجأة شاهدت شاباً لا يزيد عمره على العشرين سنة يقترب من دراجة كانت بالقرب من باب البيت ويحاول الركوب عليها فاوقفته السيدة وشرحت له الامر ، فترك الشاب دراجته واتجه مع المرأة نحو بيتها واخذ يستجوبها ويدون ما حصل ثم دقق الفحص في الخزانة والابواب وكأنه محقق عدلي ، واخذ يطرح عليها بعض الاسئلة . فاشتبهت السيدة من خلال هذه الاسئلة بامره لما بان عليه من العلائم والدلائل ، فادخلته

الى غرفة الاستقبال واخذت تجيبه على هواه وكان الشاب قد استلطفها ، ثم ما لبثت ان قالت له بأنها ذاهبة الى المطبخ لتحضر له فنجاناً من القهوة ، فلم يمانع ، بل اخذ يمني نفسه بالحصول على بغيته منها فتكون بينهما علاقات غرامية . ولكن السيدة ذهبت فوراً الى جارتها وطلبت اليها ان تخبر رجال الشرطة بان لصاً قد دخل بيتها . وبعد برهة كان رجال الامن قد دخلوا البيت والقوا القبض على الشاب بينما كان يغازل السيدة ويشرب القهوة . وبعد التحقيق معه اعترف بسرقاته المعدودة ، وقد ارتكبها جميعاً على هذه الصورة ، فقد كان يقصد البيوت الارضية فيدق الاجراس وعندما يطل عليه احد يتظاهر بانه يسال عن احد البيوت غير المعروفة في الحي . واما اذا لم يجبه احد فيتأكد من ان المنزل خال من ساكنيه فيعمد الى فتح القفـــل بوسائله الخاصة وكانت عبارة عن سلك حديدي لا يقل طوله عن المتر ثم قطع صغيرة من شفرات الحلاقة ، فلم يكن ليعصى على ادواته هذه اي باب مهما كان نوعه دون ان يحدث اي اثر في غال الباب او قفل الخزائن .

ولما سئل عن انجذابه وتعلقه بهذه السيـــدة رغم ذكائه وحدة بصره وتمرسه في السرقة ، قال لي اذ كنت استنطقه: « لقد سحرني جمالها كثيراً ، واظن ان هذا الجمال ، واشار الى السيدة ، قادر على ان يجذب حتى سيدنا المستنطق » .

أما الاشياء المسروقـة فقد أعيـــد اكثرها إلى اصحابها وبينها خاتم ومجوهرات زوجة الامير مالك شهاب .



ضيف بلا دعوة...

●

كان للمدعو حسن ناصر ، يوم لم يكن في محلة الاوزاعي الجاثمة على شاطيء البحر ، جنوبي مدينة بيروت ، منازل او سكان – كان له بناء يأوي اليه لينفض عنه غبار الاسفار ويستريح من عناء الاعمال ويستمتع بالهدوء والسكينة .

وحسن ناصر هذا ، رجل في العقد الخامس من عمره قصير القامة ، نحيل الجسم ، عاش وحيداً ودأب على العمل بهمة ونشاط فجمع من المال ما يكفيه لان يعيش في بحبوحة ، ولكنه آثر عيشة التقتير والحرمان ليجنب ماليته الانفاق الذي قد يحرمه من لذة الاستمتاع بالحرص على ما جناه .

وفي احدى الامسيات اختتم حسن رحلة اعمال استغرقت خمسة ايام وعاد الى داره كعادته ، ممتطياً حماره ولكن الدار كانت مضاءة . فاستغرب ، وجمد في مكانه وجمد حماره معه وهو ما يزال على مسافة بعيدة من المنزل ... من هو هذا المتجريء الذي استباح مأواه واوقع في نفسه هذه الرهبة التي ارتعدت لها فرائصه ؟ اهـــو نسيب أو قريب ؟ ولكن ليس له انسباء ولا اصحاب ولا خدم . اذن لا بد ان يكون في الامر سر خطير ... مجرم ، او سارق ، او أشقياء ، عرفوا بما يملك فجاؤوا

يفتكون به ويسلبون ماله .

وهاله هذا الشك الذي رسخ في ذهنه حقيقة مفجعة ، وادار حماره واطلق له العنان . لا بد من الاستنجاد بالسلطة . وادرك صاحبنا بعبدا وحماره وهو على الرمق الاخير ... الاول من التعب والثاني من الوجل . وصرخ واستنجد وافرغ ما في رأسه من اوهام فاستعد الدرك واستدعي المستنطق وطار الجميع الى الاوزاعي .

وكتب المستنطق :

الانوار كانت تسطع في المنزل والسكون شامل . فأحاط الدرك بالمكان من جميع نواحيه ، وطرقت الباب وكان يرافقني صاحب الدار وقائد الدرك وأحد الانفار . وكررنا الطرق دون ان يجيب احد . واخيراً سمعنا صوتاً من الداخل يصيح بلهجة مصرية :

— « أمال يا اخي داكه ؟ حافتحلك بس استني شوية علشان البس هدومي . »

ذهلنا جميعاً وحرنا في تفسير ما يحصل . وما هي الا لحظات حتى فتح الباب واطل علينا عملاق زنجي بادرنا بقوله :

— اهلاً وسهلاً تفضلوا .

وكان كريه المنظر مخيفه يلبس قميصاً ابيض حتى الركبتين . فبادره الجنديان بتصويب بندقيتيهما الى صدره طالبين اليه الاستسلام .

ولكنه بكل هدوء ورباطة جأش اجاب على تحديهما بقوله :

— يا اخي انتو لصوص ؟ بستقبلكم وبتحاولوا تقتلوني ؟

وكبله الجنود . ودخلنا المنزل . ودار حسن في ذهول يتفقد محتوياته فوجد ان كل شيء في مكانه واعلن لنا ذلك .

ولدى التحقيق في الامر اتضحت لنا الحقيقة التالية :

المصري محمد الزاكي ، سدت في وجهه سبل العيش في بلاده فتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الى لبنان . ولم يكن نصيبه في هذا

البلد بأحسن مما كان عليه في غيره . وذات مساء حطت به الرحال في الاوزاعي وكان يتضور جوعاً . فجاء منزل حسن ناصر عله يجد فيه من يحسن إليه بشيء من الطعام . ولما لم يجد فيه احداً اقتحم بابه واستطاب المقام فبقي فيه . واستباح لنفسه كل ما وقعت عليه يده من مـــآكل متيسرة : السردين والجبنة واللبنة والزيتون . واستلذّ الاركيلة فغزا مؤونة التنباك ، وقضى اياماً خمسة بين الاكل والنوم والتدخين والتنزه عـــلى الشاطيء واعترف ، بحق ، انها اسعد ايام حياته . واستهجن ان يكون في عمله ما يمكن ان يؤاخذ عليه . فهو لم يرتكب فرية ، لا سيما وانه جعـل من نفسه حارساً « اميناً » لهذا المنزل .

. . .

وبين ضحكاتنا التي كان ينتزعها منا هذا الشخص الظريف انتزاعـــاً وحسرة صـــاحب الدار على ما استنفد من مؤونتـــه وتبغه التفت المصري الى حسن ناصر وصاح في وجهه مؤنباً اياه على عدم وجود خبز صالح في المنزل مما ادى به الى الاستعانة « بالفتافيت »



الطبيب المزيف

•

كنت في مستشفى الدكتور ربيز ، جالساً في غرفة الانتظار ، ريثما يؤذن لي بالدخول لعيادة احد الاصدقاء . وفجأة لاحظت حركة غير عادية . فالممرضات بثيابهن الناصعة البياض وخفتهن اللبقة يتسابقن جيئة وذهاباً والاطباء ومعاونوهم يعدون من مكان الى آخر ثم ينصبّ الجميع على غرفة في اقصى البناء الجنوبي يفتحون بابها بحذر ويدخلها بعضهم بتؤدة كلفحات النسيم الهادىء الناعم . والدكتور ربيز ، مؤسس المستشفى ومديره ، رحمه الله ، ينثر اوامره ويتنقل بين مكتبه والبهو بجدة وانفعال ظاهرين .وحاولت بجشرية فطرية ، ان اقف على السبب فلم افلح . فالجميع صمّ بكم ، ابوا ان يرووا ظمأ فضولي . واذا بامين نخله المحامي الشاعر يصل مهرولاً فيدخل مكتب الدكتور ربيز ويقفل الباب وراءه . ثم فتح الباب وخرج منه الاثنان الطبيب والمحامي ، واتجها نحوي ودعواني للدخول الى المكتب لاستشارتي في امر . فلم امانع . وابتدأ الاستاذ نخله يروي ما تقت الى معرفته قال :

— « احضروا الى المستشفى فتاة مصابة بنزيف يهدد حياتها بالخطر ، على اثر عملية اجهاض اجريت لها . وطلب الى الدكتور ربيز ان يعالجها . والمعالجة تتطلب عملية قد لا تخرج منها الفتاة سالمة . ودعاني الدكتور

ربيز للاستشارة فنصحته باحاطة السلطة علماً بما يحصل فيتنصل من كل مسؤولية . ولكنه ابى متذرعاً بان سر المهنة لا يسمح له بذلك ، فنرجو باعتبارك من رجال القانون ومستنطقاً لبيروت ان تساعدنا في حل هذه المشكلة بصورة تبعد عنا تبعة المسؤولية وتحافظ على السر الذي يحرص عليه الطبيب مع العلم بان حالة الفتاة تتطلب المعالجة السريعة » .

وقبل ان احاول التفكير في ايجاد الحل الملائم بدأ الطبيب يبدي نظرياته الفلسفية والعلمية والمهنية واسترسل فيها ليخرج منها مقتنعاً بانه على صواب وان لا حرج عليه مهما كانت النتائج .

ووجدت نفسي في حيرة . فواجبي المهني يحتم عليّ ضبط هذه الجريمة وتسلم زمامها للاقتصاص من المجرمين . بينما اللباقة وحرمة الاستشارة الخاصة والثقة التي اولاني اياها المحامي والطبيب تمنعني من التصرف على هواي . واخيراً استقر رأيي على العمل بوحي الواجب . وبحثت عن طريقة مستترة أصل بها الى اعتراف من الفتاة . واوصلني اليها جدل واجتهاد المحامي والطبيب اللذين كانا ما يزالان يبحثان عن نقطة تفضي الى عدم مسؤولية الطبيب بتنصله من تبعة الاجهاض التي لم يكن ، في الواقع ، له يد فيها واعتبار عمله مجرد اسعاف لمريضة في حالة الخطر . واعلنت عن فكرة نالت ارتياح الاثنين واستحسانها وهي : ان ألازم الطبيب ربيز بوصفي معاوناً له ، اثناء اجراء العملية ، وبهذه الطريقة يصبح باستطاعتي ان اقف ، من الفتاة نفسها ، على حقيقة امرها وسبب اجهاضها فأصبح شاهداً « رسمياً » لصالح الطبيب . وعاد الطبيب يلح علي بوجوب محافظتي على السر من اساسه ، فطمأنته . اما الشيء الذي لم يكن بالحسبان فهو ان يفرض علي ارتداء البرنس الابيض ووضع الكمامة على انفي وفمي لاخرج ، بهذه القيافة ، طبيباً . وعصرت الكمامة انفاسي فضاق صدري . وتغير معنى مشاهداتي لكل ما حولي وانا ادخل غرفة العمليات . وافتقدت شخصيتي التي لازمتني اعواماً طويلة وحاولت ان

التمسك بتلابيب الشخصية الجديدة التي امثلها ففشلت وبت كالتائه ، الغريب المتعثر الخطى ، لا اعرف اين اقف ... وكيف أقف ... وما افعل ... وزاد في ارتباكي ذلك الصمت الغريب ، العجيب الذي خيم على الغرفة وتلك الوشوشات التي كان يتبادلها الطبيب والممرضات والأنات الجارحة المنطلقة من اعماق الفتاة المتألمة . وتحققت اذ ذاك عظمة الطب وسر وقاره . وحلقت في جو فارغ كفراغ رأسي مما يدور حولي واستفقت مذعوراً على لكمة وجهها الطبيب ريبز الى خاصرتي . وطلب الي بلهجة الامر ان أجسّ نبض الفتاة . فاذعنت . وابتدأ يدير الالة ليباشر عمله . ووقفت وجهاً لوجه امام الفتاة . واذ ذاك فقط تذكرت سبب مجيئي . وعدت الى نفسي شيئاً فشيئاً حتى اصبحت قادراً على استيضاحها عن حالتها ، فاخبرتني بصوت متقطع ، متوجع ، عن غرامها وتدهورها الذي ادى بها الى الاستعانة بقابلتين قانونيتين تدعيان «ام محمد وام محمود» ليزيلا من احشائها ثمرة الخطيئة . اما وسيلة الاجهاض فقد كانت قطعة خشبية مستطيلة ، ثاقبة استعملتها القابلتان لتفقآ بها بيت الرحم ....

✡

وانهى الدكتور ريبز عمليته بنجاح فبدا مرتاحاً ولكن ارتياحه لم يدم طويلاً اذ صارحته ، عندما عدنا الى مكتبه ، انني مضطر بحكم وظيفتي ان اثير القضية واحيل المسؤولين على المحاكمة . وصرخ واحتج وطالبني بوعدي وانزل عليّ لعنات السماء دون جدوى . واكتفى اخيراً ، واكتفيت ، بان يبقى اسم الفتاة مكتوماً .

..... واوقفت القابلتان وزجتا في السجن لتقضيا فيه ثلاث سنوات .



خيانة البشر

•

شاء القدر ان يجمع في رحم واحد بين الخير المستفيض والشر المجسم فبعث الى الكون بشخصين لعبا دوريهما على الارض فكان احدهما رمز الرجولة والرقة والحنان والثاني مبعوث الخيانة والغدر .

رشراش وهنيدي العوام اخوان ولدا في قرية راشيا ورشفا كأس الحرمان والعذاب منذ الطفولة . فقد شبا يتيمين ، محرومين من عطف الوالدين . وترعرع رشراش فوجد نفسه وحيداً ، واستيقظت في نفسه عوامل العزم الاكيد على النهوض بنفسه وبأخيه من هوة العوز واندفع في تيار الحياة يناضل ورائده ، كل رائده ، الاستقامة والصدق . وقد عرف فيه مواطنوه مزاياه فاحتل في انفسهم منزلة التقدير والاعجاب . واندفعت به عجلات التوفيق تنقله من حال الى احسن حتى بات بغنى عن العمل المأجور . فاستملك بيتاً متواضعاً يسكنه ، وارضاً يستغلها تيناً ، وعنباً وقمحاً .

ولم ينس أخاه فقاسمه كل ما جنى . واستطاب هذا عيشة الخمول والاتكالية . واستغل حنو اخيه الاكبر فجعل من ساحة القرية مرتعه الدائم ، ومن لهو الشباب وطيشه هدفه الاسمى .

ووطىء رشراش عتبة العمر التي يصبح فيها لزاماً على شباب تلك البقعة

ان يتزوجوا . فبحث عن الشريكة ، ووقع اختياره على مـن وافقته في ان تكون له زوجـــة بارة وأختاً لشقيقه . فالزواج ، في عرف رشراش يجب الا يحـول شيئاً من ماضي الاخوين بـــل ان يضفي عـــلى ارتباطها روعة وراحة تاق اليها رشراش بكل جوارحه . وكان له مـا اراد .

وبين انهزام ليل وانبلاج فجر اصبح بيت العوام في راشيا يضم ثلاثة بدلاً من اثنين .

وارتاح رشراش للحياة الجديدة . حياة سارت هادئة ، مطمئنـــة ، يسودها التفاهم والمحبة ويعززها العمل المثمر .

وما كانت الايام وانانية الحياة الزوجية لتخفف من محبة رشراش لاخيه بل انها زادت نارها استعاراً . وسمت به الاخلاق لدرجة ان زوجتـــه ابتاعت بقرة لها من مال جنته هي ففرض عليها مناصفة ملكيتها بينهـا وبين اخيه هنيدي .

واستيقظ يوماً ، على خاطر تزويج هنيدي . ولام نفسه لتأخره في التفكير بهذا الواجب المقدس . وتحول عن الهناء والراحة لينصرف الى الانتـاج وتوفير المال اللازم » .

ولم تكن امرأته بأقل رغبة منه في اسعاد سلفهـا . فباركت فكرة بعلها واندفعت تؤازره في العمل والانتاج .

وفي احـد الأيام علم رشراش ان ثمن الحنطة في سوريا بخس بالنسبة لثمنه في لبنان فذهب الى حوران تاركاً زوجته وديعة لدى اخيه هنيدي ثم سار ونظراته معلقة في الاسرة التي طالما جاهـــد وعانى للترفيه عنها وتأمين راحتها .

وذات صباح ، وكان قـد مضت ثلاثة ايام عـلى غياب رشراش ، مرت امرأة بمنزل العوام لترافق امرأة رشراش الى الحقل ، فوجدت الباب مقفلاً .

فتابعت طريقها اعتقاداً منها ان تكون انيسة ، زوجة رشراش ، قد سبقتها ، الى حيث كانت متفقة معها على العمل . ولكنها لم تجدهـــا . فاستفسرت عنها الفلاحين فاجيبت بان احداً لم يرها ذاك الصباح . فعادت ادراجها الى القرية تطرق مرة اخرى باب انيسة . ولكن البـــاب بقي صامداً ، صامتاً على ما وراءه . وتململت المرأة ، وحارت في التفسير .

« لا يعقل ان تبقى انيسة نائمة ومنكمشة على نفسها حتى هذا الوقت المتأخر . »

واستشارت الجيران . فاجمعوا على خلع الباب .

واندفع الجميع الى الداخل . وهلعوا لهول ما رأوا . وتعالى صراخ النساء وعويلهن وجمد الرجال مصعوقين . لقد وجدوا انيسة مخنوقة مهشمة الجسم ملقاة على سريرها وهي شبه عارية .

دمعة

لاول مرة في حياتي القضائية استطاع شخص ان ينتزع دمعة من عيني وانا متربع على عرش العدل احكم باسم الله والقانون .

ذلك ، عندما وقف رشراش بين يدي يدلي بما عنده في حادثة مقتل زوجته انيسة اذ قال بصوت خرج من اعماقه كحشرجة الموت :

ـ ماذا تريدون ان اقول ؟ أأطلب الانتقام لعرضي المثلوم ام اطلب الشفقة والرحمة لاخي القاتل في سبيل استباحة عرضي هذا الذي ربيته كولدي ؟

كلا لن اطلب شيئاً من هذا ، فيا الله استرد امانتك مني ، رحماك ، يا ربي .

وهوى الرجل . هوى تحت عبء المصيبة التي ينوء تحتها اعظم جبابرة الارض ....

هوى مترنحاً ، ثملاً من كأس ارشفه اياها هنيدي حتى الثمالة ، كأس الذل والانكسار والسفالة والغدر والخيانة والقتل .

كأس علقم سكبها رسول الجحيم ليجزي بها رسول الانسانية السمحاء .

وفاضت انفاس هنيدي على حبل المشنقة تشيعها اللعنات وتواكبهـــا ألسنة اللهيب .



قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

•

هي ليلة من ليالي شتاء سنة ١٩٣٦ القاسية ، من تلك الليـــالي التي اراد الشتاء ان يظهر فيها جبروته وصولته ، فعصفت الرياح ، وهطلت الامطار وقسا الزمهرير على الاجساد يلسعها لسعات داميات .

وكنت يومذاك قاضياً للتحقيق في جبل لبنان ، واذ أنا بمن يستدعيني على جناح السرعة . فتمنيت لو بقيت بالقرب من الموقد الذي كنا نستعين به على شراسة البرد فيخفف من وطأته ويزيل بعض قسوتـــه ، الا انه الواجب ، وعلى القاضي ، بنوع خاص ، ان يكون مثالاً في تأدية الواجب .

غادرت الزاوية الدافئة الى حمانا ، الى مكان المأساة .

انها لمأساة حقاً .

فاجعة ، أنسانا هولها ، غضبة الطبيعة وجبروتها ، فاجعة تدمع لفظاعتها اشحّ عين ، ويدمي لشراستها اقسى قلب .

...

شاحنة تنقل تبناً . يقودها سائقها بسرعة فائقة ، فـــيرتطم مقدمها بشجرة ... وفي داخل الشاحنة اشخاص ثلاثة ، السائق والى جانبة امرأة تحمل طفلاً رضيعاً ، ورجل آخر بالقرب من الباب الثاني . وفي خارج السيارة

شخصان وقف كل منهما على جناح .

وكان من جراء قوة الصدمة ، ان قضى الشخص الواقف على الجناح الايمن وهو دركي ، فالشاحنة ارتطمت بالشجرة من اليمين . ومات الثلاثة في داخل السيارة : الرجلان والمرأة . اما الشخص الخامس ، فقد قدر له ان ينجو من الموت . لكنه اصيب بجراح ثخينة اقعدته عن كل حركة . واجهد نفسه فافهمنا ان المرأة كانت تحمل طفلاً رضيعاً . وبحثنا عن الطفل ، فلم نقع له على اثر ... حتى كدنا نيأس من العثور عليه ... ونقطع الأمل من الوصول اليه ... وبينما كان احد مرافقيّ يفتش على بعد اثنين وثلاثين متراً ، على حد قول الخبير ، اذ به يقع على شبه كتلة تلفها الاقمطة البيض . فصرخ : هذا هو ... وتراكضنا ، فاذا المشهد أروع من المشهد السابق ... اذا بالطفل قابع على كيس كبير من التبن ، وكأنه على سرير ....

وتأثرنا حينما لم نسمع للطفل صراخاً . تأثرنا لأننا اضعنا وقتاً طويلا حتى نعثر في النهاية على جثة جديدة . وفجأة ... فتح الطفل فمه ، فاذا هو مملوء تبناً . ونزعنا التبن من الفم الرقيق .... فتعالى الصراخ ....

هذه هي الواقعة اذكرها ، فيقشعر لهولها بدني . وما زلت حتى اليوم اطرح على نفسي سؤالين طالما طرحتهما على معاوني من قبل وعلى الخبير الفني رئيس الادلة الجنائية :

« كيف طار كيس التبن كي يأتي الطفل جالساً عليه ؟ »

ثم ، كيف طار الطفل من حضن امه وهي الجالسة في وسط السيارة بين السائق ورجل آخر ؟

اجل ! ما زال هذان السؤالان يجولان في خاطري ، ومـا زلت حتى اليوم عاجزاً عن ايجاد تعليل منطقي او فني لهذه الحادثة الغريبة الا قول القرآن الكريم : قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .

نهاية سفاح

•

كان المحكوم عليه فكتور حنا عواد جندياً في الجيش الفرنسي ثم طرد منه بعد ان حكم عليه بعشر سنوات حبس لارتكابه جريمة السرقة الموصوفة .

تعرّف فيكتور على برسيخ ستراك انكابيان في السجن حيث كان يقضي هذا الاخير عقوبة قضي عليه بها بمادة سرقة .

بعد خروج فكتور من السجن دخل في خدمة عمه في مستودع الفحم ويظهر ان ما يتقاضاه اجوراً عن عمله لم يكن كافياً للقيام بما يشتهي . فتداول مع صديقه برسيخ وقر رأيها على الفتك باحدى البغايا للاستيلاء على حليها ، عندئذ اخذ فيكتور يفتش في المحلات العمومية على ضحيته .

وفي اليوم الثالث من آب سنة ١٩٤٨ استلف فيكتور من برسيخ مبلغ خمسين ليرة لبنانية وذهب لبيت الفتاة انطوانيت نجار ، فاتفق على المبيت معها طوال الليل ونقدها مبلغ خمسٍ وثلاثين ليرة على ان يعود اليها في الموعد المعين .

وقد أطلع فيكتور برسيخ على ما جرى وطلب اليه ان يأتي بسيارته الى المحلات العمومية حيث هو فيوقفها بالشارع انتظاراً لاشارة منه حين الشروع بالقتل فيدير محرك السيارة لتحدث هديراً يحول دون سماع

الصراخ او الاستغاثة . وبالفعل تنفيذاً لهذه الخطة جاء فيكتور ودخل على انطوانيت بعد ان اشترى فاكهة وموالح وزجاجة من الخمر ، وبعد ان عاقرا الخمرة قدم لها لفافة تحوي مادة « الحشيش » فدخنتها انطوانيت . وحوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل بينما كانت نائمة والى جانبها فيكتور ، وعندما ايقن انها استسلمت للرقاد ، انسل من الفراش واطل من النافذة فاعطى اشارة الى برسيخ واستل من تحت الوسادة موسى استحضرها خصيصاً لهذه الغاية وحزّ بها عنق ضحيته من الوريد الى الوريد ، ثم نزع من يديها سبعة عشر سواراً ذهبياً وخاتماً ، وغسل يديه والموسى وارتدى ثيابه وانصرف دون ان يشعر به احد واعطى رفيقه برسيخ عشرة اساور من المصاغ المسلوب ورهن وباع الباقي .

بعد ان سار التحقيق شوطاً بعيداً لم يهتد الى الفاعل .

اخذ فيكتور يبحث عن ضحية ثانية فوقع الخيار على املي عينطوري التي تقيم بالقرب من دكان الفحم والتي شاهد في يديها عدداً من الاساور ، فاخذ يتردد عليها . ويوم الثلاثاء الواقع في ٢١ ايلول سنة ١٩٤٨ جاءت املي الى دكانه لتقدم له علبة من زجاج كان طلبها منها بمناسبة زفافه ، وما ان دخلت المسكينة المستودع المظلم حتى ضربها بشاكوش على رأسها فسقطت على الارض جثة هامدة ، عندئذ قطعها ارباً اربا ووضعها في كيس احكم خياطته بعد ان نزع المصاغ الذي كانت تحمله ، وتقدم من محل بائع الخضار بولس العظم حيث كان يعمل الولد جان رزق‌الله وكلف هذا الاخير ان يأتيه بعجلة لينقل كيساً من الفحم لاحد زبائنه ، فاستحضر له جان المذكور العجلة ، فأخذها منه وطلب ان يعود في المساء لينقل له الكيس .

وفي الموعد المعين عاد جان فجرّ العجلة ورافقه فكتور حتى شاطيء البحر لجهة الكرنتينا . وهناك امر جان بالابتعاد عنه ففعل ، فقلب العربة فتدحرجت الجثة على حافة الطريق ثم سلم العربة الى جان ليعود بها

وتولى هو طمر الجثة بين الصخور . واما الحلى التي سلبها فكتور من هذه الضحية فقد باعها الى الصائغين جورج فتوش وسركيس حديديان وصودرت منهما .

استمر فيكتور في اجرامه . ولم ينقض شهر على ارتكابه جريمته الثانية حتى عمد الى البحث عن ضحية ثالثة ، فتوجهت انظاره الى سوق الصياغين حيث يمكنه الحصول على المال الوافر . فتعرف الى الصائغ جوزيف عواد واوهمه ان اسرة مصرية ترغب في شراء بعض الحلى باسعار عالية ، فانطلت الحيلة على هذا المسكين وذهب برفقة فيكتور الذي اخذ يدله في واجهات الصاغة على المجوهرات التي توافق العائلة المصرية . ثم افترقا على ان يوافيه بالحلى المطلوبة الى دكان الفحم ليعرضها على الشاري المزعوم وتتم الصفقة .

وفي اليوم التالي الواقع في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ بعد ان جمع جوزف الحلى من الصاغة واعداً اصحابها باعادتها بعد هنيهة او اعادة ثمنها ، ذهب الى دكان فيكتور حيث عرض عليه المصاغ . وبعد ان قلب هذه الحلى بين يديه متظاهراً بانتقاء ما يلائم منها طلب الى الصائغ ان يجلس الى طاولة هناك ويأخذ بكتابة بيان بهذه الحلى . فما كاد يجلس هذا المسكين حتى فاجأه فيكتور بأربع رصاصات من مسدس كان قد اعده خصيصاً لهذه الغاية فارداه قتيلاً للحال . ثم خرج على الاثر فشاهد الفتاة ايفت جارته التي فتحت النافذة لتستطلع الخبر . فقال لها : « ما في شي، ابن عمي جورج اشترى مسدس جربه » . ثم توجه نحو جاره بائع الخضار فكلفه ان يبعث اليه بعجلة مع جان لينقل كيس فحم لاحد الزبائن فأتاه جان بالعجلة في المساء فوضع الجثة في كيس من الفحم ووضع كيس فحم آخر فوقها . وما ان بلغ محلة الكرنتينا حتى امر الفتى بان يوصل كيس الفحم الى بيت ارشده اليه وهو بدوره قذف بالجثة في المحل الذي قذف فيه جثة اميلي . واما الحلى التي سلبها فيكتور فقد رهن قسماً منها واهدى قسماً آخر الى شقيق لزوجته ، ووضع الباقي في

علبة طمرها امام بيته في سن الفيل .

تأيدت هذه الوقائع على الصورة المبسوطة آنفاً ، باعتراف المحكوم عليه ، فيكتور ، الصريح في جميع اطوار التحقيق ، اعترافات ايدتها الوقائع وبتمثيله الجرائم الثلاث وانطباق هذا التمثيل على الوقائع ايضاً وبكشف الادلة الجنائية والتقارير المنظمة فيها وبمصادرة بعض الحلى المسلوبة والعلبة المطمورة والمسدس ، وبشهادات الشهود وبتقرير الخبير وبالبرقيتين والرسالة .

وبتاريخ ٢٤ كانون الثاني ٩٤٩ قضت محكمة الجنايات عليه بالاعدام وبتضمينه عشرة آلاف ليرة لبنانية بدل عطل وضرر لورثة انطوانيت ومثل هذا المبلغ لورثة اميلي وخمسة عشر الف ليرة لبنانية لورثة جوزيف عواد وتدريكه النفقات . وصدق حكم الاعدام من لجنة العفو التي كنت مقررها . وهكذا دفع هذا المجرم المخيف دمه وعنقه ثمن الدماء البريئة التي جعلها الواحاً من الحطب وقطعاً من الفحم .



قبر سيدي حمد

●

محمد الوزال ، بيروتي ، متوسط الحال ، طيب القلب ، حشري ، يملك منزلاً متواضعاً في المصيطبة ، يقطن الطبقة السفلى منه مع زوجته واولاده الثلاثة ويخصص الطابق الثاني للايجار .

وفي احد ايام عام ١٩٣٦ جاءه السمسار ابو محمود بشاب تدل ملامحه وتصرفاته على العزة والكرامة وطيب العنصر بقصد استئجار الطبقة الثانية . فطلب الوزال كعادة اكثر الملاكين ان يكون بدل الايجار السنوي اربعمئة ليرة لبنانية ليصل بذلك الى المئتين ، ولكنه فوجيء بقبول طالب الاستئجار وبدفعه كامل المبلغ سلفاً . فطار جذلاً وما ان انفرد بابي محمود السمسار حتى ارتمى على عنقه يوسعه عناقاً وتقبيلاً .

وازعج محمد الوزال جيرانه ومن ساءهم الحظ وصادفوه في ذاك النهار بتمجيده جاره الجديد ، واتفق وزوجه ام مصطفى على وجوب السهر التام على راحته وعدم ازعاجه بصراخ الاولاد .

واحضر رشاد الدكرمنجي ، وهو المستأجر الجديد كما عرف عن نفسه ، عفشه فاذا هو كناية عن اربعة مقاعد مخلخلة وسرير صنع من بقايا اخشاب منخورة بالسوس وفراش تكتل ما في داخل قماشه الممزق ، المرقع فشكل سلسلة من المرتفعات والمنخفضات تؤدي بمن يرقد عليها الى تكسير

الاضلاع وتورم المفاصل . ولا تسل عن اللحاف والوسادة المجهولي اللون مما تلبد عليها من اوساخ وما اضيف اليها من رقع .

ولم يعجب الوزال من هذه الظاهرة باكثر مما استهجن رفض جاره العزيز لخدماته واقفاله الباب في وجهه وانزوائه داخل البيت اياماً عديدة كان يخرج في بعضها وقتاً « قصيراً » ليعود ويستأنف حياته التنسكية الغامضة .

واستفاقت الحشرية في محمد الوزال . فلجأ الى ام مصطفى علها تشبعها له باستنتاجاتها ، فما استفاد ، واستقر رأيه اخيراً على ان تصنع ام مصطفى « اكلة سفيحة » فيقدمها هو الى جاره ، وبالمناسبة يتقرب اليه ويقف على ما يتوق الى معرفته .

واستقبل الدكرمنجي جاره بوقار . وشكره على لطف التفاتته بعبارات متزنة ، لبقة .

وكانت هذه الزيارة فاتحة عهد صداقة بين الرجلين انتهت بان افضى الدكرمنجي الى الوزال بانه يزيف النقد اللبناني . واثباتاً لذلك ادخله الى غرفة مظلمة واخذ منه ورقة من فئة الخمس والعشرين ليرة وفتح علبة حديدية وضع في داخلها ورقة النقد ، وفوق هذه الورقة وضع ورقة اخرى صفراء ثم اقفل العلبة بواسطة ضاغط من الاعلى ، وبدأ عملية التزييف بادارة دولاب مركز على جنب العلبة الايمن يرسل لمعات متتابعة بتتابع دورانه . وبعد فترة اضاء الدكرمنجي الغرفة وفتح العلبة فاذا بداخلها ورقتان من فئة الخمس والعشرين ليرة اعطاهما للوزال طالباً اليه المحافظة الشديدة على السر .

ورأى الوزال باب الثروة ينفتح امامه على مصراعيه . فطلب المساهمة بعملية التزوير ، وابدى استعداده لان يساهم بما يطلب منه . وقبل الدكرمنجي بهذه الشركة بعد الحاح .

ومر حوالى الاسبوع كان الوزال يستفيد خلاله من عملية التزييف بما

يتراوح بين الخمس وعشرين والخمسين ليرة يومياً . واقـترح الدكرمنجي اخيراً اتمام صفقة تزوير كبيرة وطلب الى شريكه الوزال ان يقدم مـا عنده من مال على ان يكون المبلغ جميعه من اوراق فئة الخمس وعشرين ليرة باعتبار ان كل ورقة تخرج ورقة اخرى بقيمتهـا . واسرع الوزال بجميع امواله فبلغت الاربعة الاف ليرة وهبط المدينة يجوب متـاجرها ليحول اوراق النقد الى فئة الخمس وعشرين ليرة بحسب ما طلبه منه . وعاد في المساء ودخل تواً الى منزل الدكرمنجي ومعه المبلغ واصرّ على ان يبدأ العمل فوراً . فكان له ما اراد ودخلا الغرفة المظلمـة واستلم الدكرمنجي المال وفتح العلبة الحديدية ورتب فيها الاوراق على طريقته الخاصة ، وضغط الضاغط وانطلقت اللمعات وبعد فـترة توقف الدكرمنجي فجأة ، وتبرم ولعن الحظ واضاء النور وجلس عـلى كرسي ووضع رأسه بين يديه . فتقدم منه الوزال مستفسراً فاعلمـه ان الدواء الذي يشكل العنصر الرئيسي في التزييف قد نفد لانه لم يكن يحسب ان كمية النقـد الكبيرة القائمين بتزييفها تتطلب اكثر مما كان لديه من ذاك الدواء . ثم انتصب الدكرمنجي وطلب الى شريكه الوزال ان يذهب الى حمص في صباح الغد مصحوباً بليمونة سوف يعطيه اياها يسأل عن قبر سيدي حمد ويضع عليه الليمونة في الساعة الرابعة تماماً ويستتر ، وبعد ساعة يعود فيرى الليمونة مستبدلة بزجاجة ملأى بمادة سائلة ، فيحضر هذه الزجاجة سريعـاً لاتمام عملية التزييف بواسطة الدواء الذي بداخلها . ولكي يذهب الوزال مطمئناً على ماله الموجود داخل العلبة غلف الدكرمنجي هذه العلبـة ، التي كانت لا تزال مقفلة ، بورق وربطها بخيط بصورة محكمة وسلمها الى الوزال ليضعها في خزانتـه على هذه الصورة ويقفل عليهـا . ثم فتح الدكرمنجي درجاً سرياً في الطاولة الموضوعة عليها علبة التزييف واخرج منه ليمونة سلمها الى الوزال متمنياً له سفرة موفقة .

في صباح اليوم التالي ركب الوزال سيارة الى حمص حيث سأل عن

قبر « سيدي حمد » فارشد اليه . ولما وصله كانت الساعة تقارب الثالثة . فانتظر في ظل شجرة قريبة منه . وما ان بلغت الساعة الرابعة حتى تقدم من القبر ووضع عليه الليمونة . وبفطوته الحشرية اراد ان يقف على سر ابدال الليمونة بالزجاجة فتسلق الشجرة وبدأ يراقب . ومر الوقت طويلا . ومضت ساعة وساعة ونصف وساعتان واليد لم تمتد من داخل القبر لتأخذ الليمونة كما قال له الدكرمنجي . وبقي على هذه الحال حتى التاسعة مساء . فقطع الامل وهبط من الشجرة واخذ الليمونة وبات ليله في احد خانات حمص . وفي الصباح استعد للعودة الى بيروت ولكنه فطن الى امر لام نفسه عليه . لعل اليد لم تظهر لانه كان يراقب .

وقرر العودة ثانية الى القبر . وفي الوقت المحدد بعد الظهر ذهب ووضع الليمونة على القبر وابتعد متحاشياً المراقبة .

وعاد بعد ثلاث ساعات فوجد ان الليمونة لا تزال في مكانها . فأخذها وركب اول سيارة صادفها عائداً الى بيروت وهرول الى منزله يسأل عن الدكرمنجي فقيل له انه خرج من المنزل منذ صباح اليوم الفائت ولم يعد اليه بعد . وتفقد العلبة فوجدها لا تزال على حالها . وزيادة في الاطمئنان فتح العلبة ولكنه صعق عندما وجد انها لا تحوي سوى اوراق صفراء .

... وهكذا طار ماله الذي امضى عشرات السنين في جمعه .

اما الدكرمنجي فقد افلت فاراً الى تركيا يفتش فيها عن ساذج آخر يحول واياه ، في الغرفة السوداء ، الورق الى ثروة ، والطمع الى خداع .



وحش بشري كاسر

•

عثر في السابع والعشرين من تموز ١٩٤٧ بمحلة جوار الزعتر بالقرب من طريق كفرحون قضاء جزين على المدعوة فريال ابنة الرقيب صبحي الحاج البالغة من العمر ست سنوات جثة هامدة مفضوضة البكارة ملوطاً فيها ومحطمة الجمجمة .

وتبين لدى التحقيق بهذه الجناية المريعة ان المحكوم عليه علي ابراهيم العمار من قرية مشغره ترك قريته بتاريخ ٢٥ تموز سنة ١٩٤٨ وذهب الى منطقة جزين متجولاً في القرى مدعياً التفتيش على عمل للارتزاق ، ولدى وصوله الى خراج قرية الريحان شاهد القاصرات آمنة علي سليم خزام وزينب علي ايوب ومريم محمد خليل برو اللواتي كن يرعين البقر في الحقول ، فتبعهن حتى عين الكبير حيث جلس قربهن فاذا باسماعيل احمد عبدو يمر من هناك فيجلس معهن ايضاً . وبعد برهة تابع هذا الاخير سيره مع البنات فتتبعهن المحكوم عليه علي العمار ، وما ان ابتعدن عن العين قليلاً حتى صاح علي باسماعيل عبدو قائلاً له :

« اوقف لي البنت التي تلبس فستاناً ابيض » . ولما لم يكترث اسماعيل بندائه ادركه علي واقدم على ضربه بقضيب على عينه ومجبر على كتفه واقتاد البنات الى حرج الصنوبر المجاور للطريق حيث افلتت منه احداهن

مريم وولت هاربة . اما آمنة وزينب فقد حملهما الجاني على نزع لباسهما والتفرج بالقوة على فرجيهما . وبينما كان يقصد الذهاب بهما الى محل بعيد عن الاعين لاغتصابهما تمكنتا من الهرب . واما مريم فقد وصلت القرية واعلمت اخاها اسماعيل برو وشقيق زينب ايوب علي ايوب بما حدث ، فتوجها للحال يبحثان عن الجاني وادركاه بخراج القرية حيث اقدما على ضربه ضرباً مبرحاً .

تابع علي سيره في ليلة ٢٦ – ٢٧ الى قرية عرمتى حيث قضى تلك الليلة في بيت جميل الحاج علي حسين مدعياً انه من بعلبك وانه يريد عملاً للارتزاق . وفي اليوم التالي عاد الى قرية الريحان وبمروره بالقرب من قرية عرمتى شاهد بعض الاولاد الصغار يلعبون وفي عدادهم المغدورة فريال ، فاقترب يتودد اليهم طالباً منهم مرافقته الى خارج القرية لمساعدته على سوق غنمه واعداً كل من رافقه « بقرقور » . فانطلت الحيلة عليهم جميعاً فتبعوه وعندما ابتعدوا عن القرية نحواً من خمسمائة متراً طلب منهم ان يستريحوا ، فرفض احدهم عدنان ابراهيم احمد الحاج الذي كان نصيبه ، قبل ان يلوذ بالفرار مع رفاقه ، ان صفعه الجاني ورفسه برجله وشلحه مسبحة ومشطاً ابيض وصفيرة . وظلّت المغدورة فريال تتابع سيرها خلفه حتى وصلت الى محلة تدعى « جوار الزعتر » وهناك انقض عليها هذا الاثيم فنزع لباسها وافتضّ بكارتها ولاطها بالجبر والشدة ثم حطم رأسها بالحجارة اخفاء لجريمته الشنعاء .

وقد تبين ان هذا الوحش البشري الكاسر قد حكم عليه من محكمة بداية البقاع بتاريخ ٢٠ شباط سنة ١٩٣٧ بتسليمه الى وليه لقاء سند تعهد لارتكابه جريمة قتل محمد قاسم محمد بكسر جمجمته بالحجارة . وبتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٤٠ قضي عليه ايضاً من محكمة الجنايات بخمس عشرة سنة اصلاحاً للنفس لارتكابه الفعل الشنيع بقاصر جبراً وقتله اخفاء للجريمة . وقد اخرجته من ظلمة السجن ، قوانين العفو . واننا لنراه الآن يكرر جريمته بطريقة

بربرية تقشعر منها الابدان ، فحكم الاعدام على مثل هذا المخلوق رحمة له وحفظ لسلامة المجتمع وتطبيق للقانون الذي لم ينص على الاعـــدام الا للاقتصاص من امثال هؤلاء المجرمين الذين هم كسرطان في جسم المجتمع وجب استئصاله .

« ولكم في القصاص حياة »

●



عشق يقود الى جريمة

•

تمام العدس ومخايل عسكر

احبت المحكوم عليها « تمام » البالغة من العمر السابعة والثلاثين المدعو سليمان عسكر فرزقت منه سفاحاً ولداً سمي ميخائيل . وبعد سنة تقريباً عادت تمام هذه فأحبت هاني البالغ من العمر الحادية والعشرين . استاءت شقيقة تمام المدعوة منيفة من تصرفات اختها وانبتها على سلوكها ، الامر الذي حمل تمام على ترك البيت والسكنى وحدها مع ولدها ميخائيل . وبعد مدة لحقت بها والدتها راحيل واقامت معها لانها كانت تفضل ابنتها تمام على منيفة .

وبعد مدة اتفق العاشقان على الزواج ، وأيدت الوالدة راحيل هذا الاتفاق ووعدت ابنتها تمام بثلاث قطع ارض تملكها ارثاً عن والديها اذا هي اقترنت بهاني وطلبت اليها الى تذهب الى حاصبيا وتنظم صك البيع ، وبالفعل فقد توجه العشيقان الى حاصبيا حيث قابلت تمام كاتب العدل الذي نظم لها صكاً واستحضر هاني ورق التمغة وعادا الى القرية .

وعرضت تمام الصك على والدتها راحيل فرفضت التوقيع بداعي انها تريد الاحتفاظ بقطعة من القطع الثلاث لتبيعها وتعتاش بالثمن . وعندما علم هاني بالامر حاول بدوره اقناع الوالدة فلم يفلح .

عندئذ صمم العشيقان على قتل راحيل والولد ميخائيل ، وبعدئـــذ تضع تمام بصمتها في ذيل الصك وتدعي فيما بعد ان تلك البصمة للمغـــدورة ويبيعان الاملاك والبيت ويسافران الى اميركا .

وفي ليل ٢٥ - ٢٦ كانون الاول سنة ١٩٤٧ استحضر هاني القذيفة التي كانت شاهدتها معه تمام من ذي قبل وجلس كعادتـــه هو والمغدورة راحيل وتمام والولد ميخائيل الذي كان نائماً . وبعد هنيهة خرجت تمام حسبما اتفقت مع هاني ورشقت النافذة بحجر ثم عادت الى الغرفة واخذت تتساءل امام والدتها عن الفاعل ، ثم عادت فخرجت ثانية من الغرفة بعد ان اومأت الى هاني بان يلقي القذيفة في الموقدة ، وبينما كانت راحيل تتلفت للجهة حيث ضرب الحجر وضع هاني القذيفة تحت الرماد والنار وخرج متظاهراً بالبحث عمن يرشق البيت بالحجارة . وما هي الا لحظة حتى انفجرت القذيفة فاصابت شظاياها الوالدة راحيـل في مواضع خطرة من جسمها ادت الى وفاتها في الصباح . وقد اصيب ايضاً الولد ميخائيـــل بجراح طفيفة والسبب بنجاته كونه كان نائماً وتطايرت شظايا القذيفة من الاسفل الى الاعلى .

وبتاريخ ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ قضت محكمة الجنايات بالاجماع على المجرمين هاني وعشيقته تمام بالاعدام .

...

ثبت ثبوتاً لا يقبل الشك ان هاني قد اقدم على وضع القذيفـة في النـار لقتل راحيل والولد ميخائيل عن سبق تصور وتصميم . وقـــد اتت اعترافاته امام المحقق والمحكمة مؤيدة بالوقائع ومثبتة لجريمة القتل عمداً ، فلمثله لا لغيره حبل الموت .

ان تمامَ قد لعبت دوراً بهذه الجناية ، وقد اقدمت على قتل والدتهـا ومحاولة قتل ولدها عن سبق تصور وتصميم فلمثلها لا لسواها ايضاً العقاب الرهيب .



اسرة تقتل ربها

•

منذ اكثر من ثلاثين سنة اقترن المغدور الدكتور انطون بالسيدة أديل . ولم يكد الزوجان يهنآن بلذة العيش حتى دب الخلاف بينهما ، فاتهم الزوج زوجته بالخيانة فانقلبت السعادة الى شقاء .

انتقل الزوجان الى مسقط رأسهما ... حيث رزقا اولاداً فكانت فترة من الزمن هدأ فيها نفور الزوجين . ولكن سرعان ما عاد الزوج الى اتهام زوجته بالخيانة ، فاخذت الالسن تلوك سمعة الزوجة ، مما ادى الى انفصاله عنها واسكانها مع اولاده شارل وفرجيل وبناته الأربع ، وسكن هو في منزل آخر اعد قسماً منه عيادة تقوم بخدمته امرأة تدعى ماري كانت موضوعاً جديداً لاتهام الزوجة زوجها بالخيانة ايضاً .

لم يقف اهالي القرية وخصيصاً اقارب الزوجين من هذا الخلاف موقف المتفرج او اللامبالاة . فتدخلوا لاصلاح ذات البين فاضطر الزوج لمساكنة زوجته مدة من الزمن رزق خلالها بالولد السابع ثم ما لبث ان دب الخلاف بينهما فانفصلا وترك الزوج اولاده في كنف والدتهم ينفق عليهم ما يحتاجون .

...ويظهر ان الزوجة غذت اولادها على كره والدهم وقد نشأوا في بيت لا الفة فيه ولا عطف ... والدة يملأ صدرها الحقد على زوجها وزوج

يعيش بعيداً عن اولاده وعائلته لا يزورها الا ليتبادل وإياهـــا قوارص الكلام ويكيل لها الاتهامات .

عاش الاولاد في هذا الجو المملوء بالمأساة البيتية فاخذوا بعد حـــين يسمعون اشاعات السوء عن والدتهم التي اوغرت صدورهم على والدهم ، فما كان من ألما و مارسـيل الا ان هربتا من القرية ودخلتا الى الدير كراهبتين. وما كان من الثالثة إلا ان تزوجت من عامل بسيط في بيروت تخلصاً من هذه الحياة المرة ، اما شارل وفيرجيل فقد تزوجا وسكنا في طرابلس حيث فتح لهما والدهما محلاً للخياطة بعد ان يئس من امر تعليمهما لعـدم رغبتهما في العلم .

يظهر ان المال الذي كان يكسبه كل من شـارل و فيرجيل لم يكف لسد حاجتهما فكانا يأتيان القرية ليأخذا دراهم من والدهما الذي كان يجيبهما الى طلبهما تارة بالحسنى وطوراً بالتهديد ، حتى ان احدهما « فيرجيل » سبق له ان شهر مسدسه بوجهه مهدداً اياه بالقتـــل ، الامر الذي اضطر الوالد الى تقديم الشكوى ضده لمخفر الدرك ، وتوصل الآخر « شارل » بتهديده ايضاً بالضرب للحصول على المال .

عاد شـارل الى القرية تاركاً زوجتـه أدما في طرابلس واقام في الشقة الغربية من البيت الذي تقيم فيه والدته . وكان فيرجيل يتردد على اخيه شـارل ويتداول مع هـذا الاخير ووالدته بامر ضيق ذات يدهم وكيفية الحصول من الوالد على المال الوافر .

وعلى الرغم من ان المغدور كان لا يتوانى من تأمين اعاشة عائلتـــه الا ان هذه العائلة كانت تطمع في المزيد فلا يمر اجتماع بينه وبين ولديه شارل و فيرجيل حتى يحصل الجدال العنيف حول المـــال والحصول عليه . وكثيراً ما كانت تعلو الضوضاء ويجتمع الجيران لايقاف المشادة عند حد التراشق بقوارص الكلام .

وبتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٩٤٨ بينما كانت أدال زوجة المغدور واولادها

شارل و ادمون و بولين وخطيب هذه الاخيرة فـؤاد و أدمـا وزوجة شارل جالسين في قاعة الاستقبال في البيت الذي تقطنه أديل اذ بالمغدور يدخل عليهم . وبعد ان انسلت الزوجة الى المطبـخ التفت المغدور الى ولده الصغير ، أدمون واخذ يؤنبه لعدم موافاته الى الصيدليـة ليعطيه درساً فيها استعداداً للعام الدراسي المقبل . فتدخل شـارل بالامر دفاعاً عن اخيه وتدخلت أدما زوجة شارل فغضب الوالد لهذا التدخـل وتبادل مع أدما قوارص الكلام فانسحبت بولين وخطيبها من القاعـة وتبعتها أدما بعد ان انتصر لها زوجها شارل واخذ حجراً مـن جانب الباب المؤدي الى المطبخ وضرب به والده فما كان من هذا الاخير الا ان امسك به ورماه ارضاً . عندئذ استنجد شارل باخيه فيرجيل الذي حضر على الفور وبيده فأس استلها من المطبخ واخذ ينهال بها على رأس والده من الوراء واخذ شارل حجراً كبيراً بيده واخذ بدوره ينهال به عـلى رأس والده من الامام . اما ادمون فـكان يتناول الحجارة عـن السطح ويرشق بها والده . وكان شارل عندمـا يقع من يـده الحجر من شدة الضرب يلتقط من الحجارة التي كان يقذفها ادمـون .

استمرت هذه المعركة مدة من الزمن كان اثناءها يسترحم المغـدور اولاده مستنجداً الجيران غير انهم بدلاً من ان يقفوا من فعلتهم الشنعاء عند هذا الحد استمروا في ضرب والدهم بقوة وحشية لم يسبق لها مثيل حتى خارت قواه ووقع على احد المقاعد مضرجاً بدمائه .

وقد سمع بعض الجيران اصوات الاستغاثة فاقبـلوا يهمون بالدخول ولكن الزوجة الاثيمة كانت واقفة خلف الباب الذي اغلقته لتمنـع من يريد ان يحول بينها وبين ما تشتهيه الا وهو القتل . وكلما همّ احـد في الدخول كانت تصده بقولها : « ما في شيء . الاب يتفـاهم مع اولاده وحلوا عنا » .

عندما تم للجناة ما ارادوا وشاهدوا ضحيتهم تتهـالك مُسلمةً الروح ترك فيرجيل القاعة ورمى بالفأس تحت خزانة المطبخ وانتقـل الى الممشى

حيث اخذ يغسل الدماء التي كانت تصبغ وجهه ويديه وثيابه وذلك بمساعدة والدته ، اما شارل فلم يكتف بما جرى . دخل المطبخ واستل سكيناً طويلة وعاد الى والده اثناء لفظه النفس الاخير وطعنه فيها طعنة اصابت الجدار الامامي من البطن تحت الاضلاع اخترقت الجلد والعضلات فكانت طعنة زيادة في الانتقام .

تكاثر الجمهور امام البيت فما كانت من الزوجة الا ان دخلت الى الغرفة الثانية حيث اجتمعت باولادها وخطيب ابنتها وكنتها وطلبت اليهم اعطاء الافادة للسلطات بأنهم كانوا جميعاً في الكروم وان مرتكب الجريمة هو شارل وحده . عندئذ اراد شارل ان يلجأ للفرار فشاهد الجمهور محتشداً امام البيت فخاف على نفسه من الانتقام فاخذ مسدساً من عيار « ٥ ميللي » واطلق منه عيارين ناريين او اكثر في الفضاء فتفرقت عنه الجماهير ، ولكن صادف في هذه اللحظة حضور رجال الدرك فالقوا القبض عليه .

تبين من التقرير الطبي الذي اعطاه الدكتور حسن الجسر طبيب المحافظة ان المغدور اصيب بما يزيد على الثلاثين اصابة برأسه من الفأس وعلى عشر اصابات بالحجر لكماً وعدة اصابات بالحجر رشقاً ، وقد احدثت هذه الاصابات نزيفاً دموياً خارجياً وداخلياً شديدين واحتقاناً في الدماغ ادى الى الوفاة بعد ربع ساعة من الحادث .

وفي الثالث من شهر شباط سنة ١٩٤٩ قضت محكمة الجنايات باعدام شارل وفرجيل ولدي المغدور الدكتور انطون ، وبوضع اديل زوجة المغدور في الاشغال الشاقة مدة عشر سنوات وبتضمين المحكوم عليهم الثلاثة نفقات الدعوى والرسوم ومصادرة المسدس .

وفي ٥ شباط سنة ١٩٤٩ احيلت اوراق الدعوى على لجنة العفو الدائمة ، ثم في ٧ شباط سنة ١٩٤٩ وكنت مقرراً للجنة العفو التي صدقت الحكم بالاجماع . فكان جزاءً وفاقاً لما ارتكبته ايديهم الاثيمة .



حب يقود الى الموت

•

روت الاساطير القديمة ان « ديك الجـن » الشاعر الحمصي ، كان له صاحبة فاتنة ، ساقية الكؤوس في ساعات النشوة ، وتفنين الهوى المدله في ليالي الخمر والاحلام ، وعندما تقدمت به السن تذكر انـه سيموت يوماً ، وان تلك العشيقة الساحرة ستنتقل إلى سواه ... خاطرٌ مرير ظلّ ينتابه ويعكر عليه صفو العيش ...

... وفي احدى الليالي المتلألئة بضوء القمر جلس « ديك الجن » يشرب الخمر من يدها حتى ثمل فاستل خنجره الرهيب وأهوى به على جسدهـا الغضّ يقتلها ثم يحرقها بالنار ويجبل من رمادها كوباً يشرب منـه في اوقات الصفاء .

تنطبق هذه الاسطورة الحزينة بمعناها عـلى المأساة الاليمة التي وقعت في زحلة .

... محمد موسى محمد ...

محمد موسى محمد لاجيء فلسطيني جاء الى معلقة زحلة على اثر حوادث فلسطين وتعاقد مع السيد نجيب النجار على خدمة بيته الكائن في المعلقة لقاء اجرة سنوية قدرها مائتا ليرة لبنانية . وبيت السيد النجـار يجاور

فارس نمور ، ابو بشارة ، الذي هو من انسبائه . وللسيد فارس ابنة تدعى جورجيت ، وكان محمد موسى ،خادم السيد النجار بحكم الجوار والقرابة القائمة بين ربي البيتين ، يرى الابنة جورجيت مرات عدة في النهار . فاحبها حباً ملك عليه لبه ، واصبح لا يرى الحياة حلوةً إلا إذا رآها ، واصبح من شدة حبه لها يغار عليها حتى من اقرب الناس اليها .

وازداد حبه لها لدرجة انه أخذ يتتبع اثرها حيث تروح وتجيء .

✡

واخيراً اختلف مع مخدومه قبل انتهاء مدة العقد بشهر ، فترك خدمته ورحل الى صيدا يفتش فيها عن عمل آخر . ولكن حبه لجورجيت وهيامه الشديد بها دفعاه الى الرجوع الى المعلقه طالباً من السيد النجار قبوله في خدمته حتى انتهاء مدة العقد . ولكن السيد النجار طلب منه قضاء الباقي من الشهر في خدمة انسبائه آل بشارة فقبل محمد فوراً لان ذلك يقربه من مالكة لبه . وهكذا دخل محمد خدمة آل بشارة . وخيّل اليه ان جورجيت تبادله حباً بحب .

ولما انقضت مدة الشهر طلب منه آل بشارة ان يجدد العقد معهم لقاء اجرة سنوية قدرها ٢٦٠ ليرة لبنانية فقبل ، وهو الذي يتمنى خدمتهم دون بدل ما دام ذلك يجعله قريباً ممن احب .

وكان اثناء خدمتهم يكثر من مراقبة ابنتهم والتجسس عليها وعلى من يزورها حتى كان يحاول الانصات الى احاديثها مع زائريها .

وحبه الشديد وعدم اكتراث الابنة له ومجاملتها لزائريها كل ذلك اوجد في نفسه حالة قلق دائم ويأس شديد أدّيا به الى التفكير في طريقة يتخلص بها من آلامه ...

كأس خمر

ومما زاد في بليته ان الابنة ذهبت في عيد خميس الجسد برفقة شقيقها نور وأحد انسبائها الى وادي العرائش فتتبعهم محمد وجلس بعيداً عنهم

وعينه لا تفارقهم وقلبه يتآكل غيرة وحقداً ، الى ان لمحه نمور فدعاه الى الجلوس معهم فلبى الدعوة ، وقدم له كأساً من الخمر احتساها دفعة واحدة ثم انصرف الى مقهى آخر حيث جلس كئيباً والالم ينخر في قلبه والغيرة تتأجج في صدره . جلس يفكر في حبه الضائع وامله الخائب وقلبـــه المظلوم فرأى ان خير وسيلة في نظره تحدّ من آلامه وترضي نفسه انما هي قتل الابنة وخاصة بعد ان يئس من اجتذابها اليه .

وكان آل بشارة قد استخدموا اجيراً جديداً في بيتهم ليعاون محمـد ، فخيل اليه ان الاجير الجديد جاء ليحل محـــله ، وان ايامه قد اصبحت معدودة في بيت من احب فجن جنونه واخذ يعدُّ العدة للفتك بها ويتحين الفرصة الملائمة لجريمته .

الجريمة المجنونة

وفي ليل ١٢ / ١٣ حزيران انتهز محمد فرصة غيـاب اشقاء جورجيت في اعمالهم وصمم على تنفيذ ما قرره ، ونزل الى مزرب الدواب في الدار حيث كان ينام عادة ، واستلقى على ظهره يترقب ساعات النوم .

ولما تأكد من نوم الخادم الجديد ، الذي يبيت معه ، وكان قد انقضى اكثر الليل ، اخذ من « المزرب » بلطة وتسلل الى غرفة جورجيت . واقترب من بابها الذي كان مفتوحاً ودخل الى الغرفة فوجـــد ضحيته مستغرقة في النوم وبعض النور يتسلل من النافذة ، فاقترب من السرير ووجدها مستلقية على ظهرها واللحاف يغطي جسمها حتى القسم الاسفل من وجهها . وقبل ان يتفرس في وجهها خوف تردده في تنفيذ ما اعتزم ، اهوى على وجهها بالضربة الاولى مـــن بلطته ، فشهقت وتدحرجت الى الارض واخذ يتابع ضرباته دون ما شفقة او رحمـــة حتى بلغت السبع عشرة ضربة .

ولما اطمأن الى موتها خرج من حيث دخل واغلق الباب وانسل عائداً

الى « المزرب » ثم خرج منه الى بركة مـاء غسل فيهـا البلطة ويديـه الملطختين بدماء ضحيته ، ثم اعاد البلطة الى مكانها وبقي قرب البركة يترقب الفجر بعد ان خلع قميصه الملوث بدم الضحية والقاه الى جانب الطريق . ولما لاح الفجر سار في طريق شتورة . وعندما وصلها استقل سيارة نقلته الى بيروت حيث اخذ يتنقل من مقهى الى آخر يحتسي القهـوة ويدخن النارجيلة ثم بات ليلته في فندق صغير . ولما جاء اليوم التالي فكر بتسليم نفسـه ، وهكذا ذهب الى مخفر البسطة في بيروت حيث استسلم الى رئيسه معترفاً له بجريمته . وقد عثر معه حين تفتيشه على خرقتين هما من ثوب ضحيته كان اقتطعها على سبيل الذكرى ، وكان يشمها احياناً .

وعندما مثل امام محكمة التمييز ، وكنت انا المدعي العام ، اعترف بارتكابه الجريمة الفظيعة . وبدلاً من ان يطلب الرحمة والشفقة ، طلب الموت العاجل ، وكأنه كان قد حاكم نفسه بنفسه عندما استسلم للعدالة ، وقبل ان يلفظ القضاء عليه حكم الاعدام .

امـام المشنقـة

وعندما وقف امام حبل المشنقة كانت الابتسامة ترتسم على شفتيه وهو يتمتم سوف الاقيها ...

ولكنه كان لقاء وحشياً بين دم الفتاة الطاهرة الغالية ، وبـين حبل الجلاد يخنق انفاس هذا المجرم ... وجنون حبه ... وشهوته الآثمة .



اولادنا اكبادنا

•

هذه قصة ولد تعس لفظته الحياة الى الشارع ، وهـو في عمر الورود ، وحرمته حنان الام وعطف الاب ، فمشى على شوك الفاقة في درب الزمن ، حتى دميت قدماه ، وجرى في ميدان الارتزاق حتى انتحرت عزيمته ، وعندما رجع لاهثاً الى والده القاسي اوثقه بالحبال ، وصب عليه الكاز واشعل فيه النار !!

انها قصة مئات الاطفال الذين تشردوا في ارصفة الحياة فـلم يلقوا مجتمعاً يصلحهم ويخفف عنهم وطـأة التشرد ولا حكومة تعطف عليهم وتردهم الى احضانها بعد ان فجعهم الدهر بحضانة الآباء والامهات .

بل هي مأساة الاهل الجاهلين الذين يكفرون بحق ابنائهم وفـلذاتهم المتنقلة على الارض ، فيقذفون بهم الى الازقة الممتلئة بالآفات فيسقطون في حفرة البؤس ويصبحون ويلاً على أنفسهم واهليهم ووطنهم .

مصطفى الخواجه

مصطفى محمد الخواجه يبلغ من العمر ٣٥ عامـاً وهو من قرية « اليهودية » في الجنوب ، نزح عنها منذ سنوات وجاء الى بيروت يبحث عن عمل ، وتزوج فاطمة ياسين فرزق منها ولدين توفي احدهما والثاني هو

غازي ، المغدور .

ثم ما لبث ان طلّق قاطمة ياسين واقترن بامرأة اخرى هي خديجة كحيل فانجبت له ثلاثة اولاد وبقي غازي في كنف والده حتى ادرك العاشرة ، فأجبره والده على العمل والكسب وتقديم هذا الكسب ونتاج العمل له . فأخذ الولد يبيع البوظة تارة وطوراً المعلل ويؤدي في المساء لوالده الجعل المفروض ، فاذا هو تأخر يوماً او استنكف عن الاداء او فرّط في بعضه انهال عليه والده بالضرب المبرح . وكثيراً ما كان هذا الولد المسكين يضطر للالتجاء الى بعض النسوة من اهالي الجوار مستجدياً النزر من النقود لتسديد الرصيد المطلوب دفعاً لغضب والده .

وكان ، كلما تعذر عليه ذلك ، لا يجرؤ على العودة الى البيت خوفاً من الضرب فيقضي بعض الليالي عند اقاربه . وظل الولد على هذه الحال حتى يوم الحادث اذ كان قد تغيب عن البيت ثلاثة ايام . فراح والده يبحث عنه حتى عثر عليه صباح يوم الاحد ٢٤ حزيران ١٩٥١ فاقتاده الى البيت . وما ان عرف بعض الجيران بذلك حتى توافدوا الى هذا البيت لانهم كانوا يتوقعون ان يضرب مصطفى ولده بقسوة جرياً على عادته .

واخذ بعض النسوة يستعطفنه ويحاولن منعه من انزال القصاص الشديد بابنه ومنهم زوجته خديجة . ولكنه انتهرهن واخرجهن من الدار محتجاً بانه انما ينوي تأديب ولده فقط .

ثم أقفل باب الغرفة من الداخل وعمد الى قشاط من الجلد اوثق به معصمي ولده الى الخلف شاداً اياه بالابزيم ، وربطه بحديد النافذة بحيث لا يستطيع حراكاً ، ثم صب عليه كازاً ، واضرم فيه النار .

وكان الولد البائس يصرخ ويستغيث متوسلاً الى والده ان يكف عنه قائلاً :

« دخلك يا بيي اذبحني ... اقتلني ، ولكن لا تحرقني » .

ولم يكن قلب الوالد المتحجر ليرق ، بل تابع فعلته النكراء . وسمع بعض الجيران استغاثة الولد ، وشاهدوا النيران تتصاعد من داخل الغرفة فاسرع احد اخوة غازي الى الفرن المجاور مستنجداً بمن فيه ، فأسرع على الفور بعض الاشخاص واقتحموا الباب فألفوا الولد مقيداً والنار تلتهمه التهاماً مروعاً .

فعملوا ما في جهدهم لاخماد النار وحلوا وثاق الولد . اما الوالد فقد كان في احدى نواحي الغرفة « يبرد » يديه المحترقتين في « برميل » من الماء .

وقد نُقل الولد الى المستشفى ولكنه ما لبث ان فارق الحياة .

على اعواد المشنقة

لقد تأثر الرأي العام اللبناني بهذه الجريمة تأثراً شديداً واصبحت قصة الآباء والامهات وحديثهم . وما ان حان موعد المحاكمة ، وكنت انا رئيساً لمحكمة الجنايات ، حتى رأيت الالوف من الناس يدخلون قصر العدل . ولما مثل الاب المجرم في قفص الاتهام اخذت تنصب عليه النظرات المحمومة من كل ناحية ، وتسلقه الالسن بلهيب الهمس الخافت .

وعندما لفظ القضاء عليه حكم الموت ، دوت القاعة بالتصفيق ابتهاجاً بالحكم .

وفي تلك الليلة التي نفذ فيها الاعدام ، وتحت المطر المنهمر فيها بغزارة على قصف الرعد ولمعان البرق وصرير الرياح ، سهر بضعة آلاف من اللبنانيين واللبنانيات يشاهدون الوالد الكافر بنعمة الابوة المتنكر لقدسية الحياة معلقاً على اعواد المشنقة مؤرجحاً في صمت الموت بين ابتسامات الشماتة وعدالة القصاص .



الفنّ في الإجرام

جرائم السرقة في لبنان كثيرة متنوعة ، منها ما يبت بـه القضاء ، ومنها ما يسوّى بالطرق العشائرية ، ومنها ما يبقى طي التكتم فيطمس مع الزمن وتخفى معالمه على رجال التحقيق . وجميع تلك السرقات المطوّحة باصحابها الى الهاوية سببها على الغالب الفقر والفاقة ، وقلما شهد القضاء جريمة تشذ عن هذه القاعدة الا في بعض الحالات النادرة .

واغرب تلك الحالات وابعدها شذوذاً هي تلك الجنايات التي ارتكبتها عصابة حسن قاسم غدار ...

الافلام وخطط المغامرات

تألفت هذه العصابة من فتيان جاهلين متهوسين ، كانوا يغشون الملاهي ودور السينما ، ويشاهدون افلام البطولة والاجرام العالميـة فتنطبع في مخيلاتهم الساذجة صور المغامرات والسرقات ومـا يرافقها من دراسات وخطط يمليها الفن الحديث .

وسرعان ما تقمصت فيهم روح الشر المتفاعل في نفوسهم مـن تلك

المشاهدات فمشوا في طريق التجربة الخطيرة ، متخيلين انهم سيصبحون من ابطال الاساطير الذين يرونهم على الشاشة وبدأوا يرتكبون الجريمة تلو الجريمة مطبقين الخطط الفنية التي تلقنوها من « افلام السينما » .

وكان الحظ العابث يحالفهم ويشجعهم على المضي في طريق « المجد المزعوم » فاقترفوا خمساً وستين جريمة كان ختامها مصرع احد الابرياء . وكان اسدال الستار الاخير حين قبض عليهم وأودعوا السجون .

وها نحن ننقل نبذتين من افعال تلك العصابة .

. . .



عصابة غدّار

•

حسن قاسم غدار مجرم بطبيعته نمت في نفسه غريزة الاجرام، بفضل ما شاهده على شاشة السينما من جرائم ممثلة، فالف عصابة من قاسم ابن محمد غدار وعمره ١٣ سنة، وعفيف بن جميل الفاكهاني الملقب بالنعسان، وعمره ١٤ سنة، ومحمود بن سعيد احرق وعمره ١٢ سنة، وعبدالله شحاده عبد الغفار وعمره ١٣، ومحمد بن سليم زهرة وعمره ١٥، وعلي بن درويش شوربا، عمره ١٦، وسليمان بن فرح فرح وعمره ٢٠، وحسن علي غدار وعمره ٢٢، ومصطفى قاسم غدار وعمره ٢٠، وحسين يوسف سعد وعمره ٢٤، وخليل بن محمود عبود وعمره ٢٢، واخذ يعيث واياهم في بيروت فساداً، واقدموا على ارتكاب جريمة محاولة قتل، وعلى القتل تسهيلاً للسرقة، فارتكبوا خمساً وستين سرقة متنوعة بين كسر وخلع، وسلب، وقتل، ومحاولة قتل، وغير ذلك .... منها :



محاولة قتل جدعون جدعون

•

توجه افراد العصابة ليلاً الى بيت جدعون جدعون الساكن في شارع « فردون » فوق دكانه ، فصعد خليل عبود وطرق الباب ففتح صاحب الدكان جدعون ، فطلب منه حسن غدار ان يعطيه علبة دخان فاجابه جدعون : « هلق ما في دخان » وبعد الاخذ والرد ، قبِلَ ان يعطيه علبة دخان ثم حصل جدل بشأن تكميل الثمن فما كان من حسن غدار الا ان رفع جدعون بعنف وقذف به على الدرج الممتد من البيت الى الطريق .... وعطله مدة شهرين عن العمل .



مقتل روفايل في بعبدا

•

لم يكتف الأئمة بالسرقات والغنائم التي احرزوها ، بل اجتمع في ليل ١٢/١١ آذار سنة ١٩٤٨ حسن قاسم غدار ، بحسن علي غـدار ، وقاسم محمد غدار ، وعلي شوربا ، ومحمد زهرة ، وعفيف الفاكهـــاني ، ومحمود احرق ، وسليمان فرح ، وذهبوا بسيارة هـــذا الاخير « الجيب » الى بعبدا ، ثم ترجلوا منها قبل وصولهم الى البلدة بالقرب من بيت المغـدور سعيد روفايل ، فنزل احدهم حسن قاسم غـدار الى بيت سعيد الكائن تحت الطريق ، ونزع حديد الشباك بواسطة قدوم وشلف من الحديد ، ثم دخل قاسم محمد غدار الى البيت ليفتح الباب ، فاستيقظ سعيد روفايل وهرب قاسم غدار من الشباك ، الا ان المغدور سعيد روفايل فتـــح الباب قائلاً : « شو عم تعملوا هون يا حرامية » فأجـاب حسن قاسم غدار « نحن مش حرامية ، نحن عم منفتتر » ثم هجم عليـــه يساعده حسن علي غدار ولكمه على وجهه وبطنه وضربه حسن علي بشلف الحديد على رأسه فوقع المسكين على الارض فانحنى فوقه حسن قاسم وانـتزع من يده خاتمي ذهب واخذ ساعته التي كانت في الجاكيت ثم ناوله عـلي شوربا شرشفاً غطاه به ، واخذ حسن علي ابريق الكاز وصب منه عـلى الشرشف واخذ حسن قاسم القنديـل الذي كان في الغرفـة واشعل الكاز

فالتهمت النار سعيد روفايل ضحية هؤلاء الوحوش الذين هربوا بعد ان تركوا المغدور طعاماً للهيب واقفلوا الباب من الخارج إقفال ابطال الشاشة ابواب الدور والمصارف بفن اللصوصية ، وبقوة المغامرة في براعة الاجرام .

☆

كنت رئيس محكمة الجنايات عندما احيل عليّ افراد هذه العصابة الفنية ، هؤلاء الشباب من ابنائنا الذين اقتبسوا من حكايات الافلام خطط السلب والقتل ، فقلدوا وبرعوا في التقليد ونقلوا الجريمة من الشاشة البيضاء الى احياء المدينة ونوافذ بيوتها .

وقد اصدرت المحكمة على رئيس العصابة هذه حكماً مبرماً بالاعدام ولكن عفواً عاماً ، كان قد صدر يومئذ قبل اصدار الحكم ، وبعد ارتكاب الجريمة ، حمل المحكمة على الاستبدال بالاعدام خمسة عشر عاماً سجناً مع الاشغال الشاقة وحملها على الحكم على افراد العصابة الباقين باحكام تتراوح بين ست وعشر سنوات كل بنسبة الدور « البارع » الذي لعبه في اقتراف الجنايات المرتكبة .

كيف نحدّ من كثرة الجرائم في لبنان



تطور العقوبة

●

استقرت العقوبة في اذهان الناس منذ أجيال ، على انها الوسيلة الناجعة لمكافحة الجريمة . والعقوبة في جوهرها ، تنطوي على معنى إيلام المجرم . ونحن نعلم كيف نشأت فكرة العقوبة ، وكيف تطورت على ممر الاجيال ، وانها اولاً مرت بدور الانتقام الشخصي ، حيث كان المجني عليه يقتص لنفسه من الجاني ، على النحو الذي يقدر عليه . ثم انتقلت الفكرة خطوة اخرى ، عندما لاحظت الجماعة ، ما كان يتسم به هذا الانتقام في اغلب الحالات ، من روح التشفي والمغالاة في التنكيل بالجاني فتدخلت في الامر ، وأصبح المجتمع هو الذي يتولى القصاص من الجاني ، نيابة عن الافراد . وصحب هذا التطور ابتداع فكرة السجون للحد من حرية المذنب ، وهكذا وصلنا بالتدريج الى النظم الحالية السارية ، حيث تتلقف الجانيَ الهيئاتُ المختلفة .

*

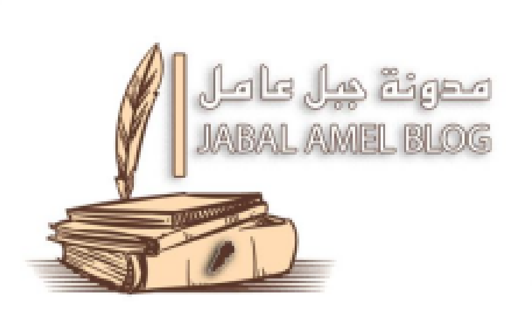
يقوم رجال الشرطة اولاً بالقبض على الجاني ، ثم تتولى هيئة الاتهام اجراءات التحقيق معه ، ويأتي بعد ذلك دور القضاة الذين يحكمون عليه ، وينتهي به المطاف الى رجال السجون لتنفيذ العقوبة .

ويرى اصحاب هذا النظام ، انه جاء كفيلاً بمكافحة الجريمة على احسن الوجوه . فهم يقولون ان العقوبة فضلاً عن انها تؤلم المجرم فتزجره

عن ان يفكر في معاودة عمله ، فأنها كذلك تردع غـيره من الناس ، فتصرفهم عن التفكير في تقليده والسير على منواله . ومن ثم اخـــذت تلك الهيئات الاجتماعية المختلفة ، تمـارس عملها في إلحاق الأذى بالجناة بدعوى انها تعمل على اصلاحهم وتهذيبهم .

*

وليس في نيتي هنا ان اتابع ، في هذا البحث ، مـا اورده العلماء في مؤلفاتهم من النظريات والآراء ، وهم يدرسون العقوبة ويبيّنون قيمتها ، في معالجة الجريمة ومكافحة المجرمين . فالكتب غنية بأمثال هذه المباحث . ولكني بوصفي قاضياً ، احب ان أبيّن مبلغ انفعالي في مراحـــل حياتي القضائية المختلفة ، بهذا النظام التقليدي ، وهو نظام معالجة الجريمة عـن طريق العقاب ، لأقيم حجتي في النهاية ، على اساس الحقائق المستمدة من الواقع الحي لا من بطون الكتب .



كيف نحد من كثرة الجرائم
في لبنان

•

هي مشكلة سعى ائمة الشرع والفكر في معالجتها منذ غابر القرون . ومـا زالت ، هي اياها ، تزيدها الايام رسوخاً ، خاصة في لبنان ، هذا البلد الذي وهبه الله كل ما عنده من جمال طبيعة ، وطيب منـاخ ، وخلق فيه آفة الاجرام التي تزداد شراسة عنها في بـلاد العالم ، كأن القدرة تريد ان تدلنا مرة اخرى على ان الكمال لله ، ولله وحده .

ومشكلة الحدّ من كثرة الجرائم او تخفيفها ، مشكلة نشأت مـع نشأة الانسان وتقوية غريزته .

ووضعت القوانين في هذا الصدد . وبحثها المتشرعون على مر العصور . غير ان تمسك بعض هؤلاء بحرفية القانون واعتبارهم القانون الملجأ الوحيد بل الاوحد في كل معضلة ، حال دون توفيقهم كل التوفيق في درس المشكلة لانها وقفت عند حد حرفية القانون ولم تتجاوزها .

ومع دخول فلسفة المجتمع صلب الابحاث القـانونية فإنّ قضيـة الاجرام وكيفية استئصاله بقيت مشكلة قائمة في ابعاد التفكير واعماق التفتيش . ولمحة بحثنا هذا انما تتناول في خطوط اساسية موجزة مشكلة الجريمة في لبنان .

...

فنحن اذا راقبنا الشكاوى الحافل بها مجتمعنا ، وقفنا على الشكوى

من كثرة الجرائم وتزايدها يوماً بعد يوم .

تخفيف ... وجمع سلاح

يتناول المواطنون ورجال الفكر والشرع هذه القضية ، قضيـة وفرة الجرائم ، فينسبونها احيـــاناً الى تخفيف العقـوبات الصادرة بحق الشذاذ في اتباع شريعة الغاب .

ومنهم من يفتش اكثر فاكثر فيقع على سبب ابعد واعمق من السبب الاول .

فاذا السبب في كثرة الاجرام ، عدم جمع السلاح من الاهلـــين ، حتى اصبح لبنان موئل ذخيرة .. على انها ذخيرة شخصية ليس للدولة فيها ملكية حتى ولا رأي .

وهناك فئة من المواطنين عالجت القضية معالجة اجـــتماعية صرفة . فعزت تـكاثر الاجرام وتزايده الى الوساطات والشفاعات التي اساسها حماية بعضُ رجال السياسة المجرمين ، من طائلة العقاب وصولة القانون .

الارتجال

وانا لا اود ان اخطيء الباحثين ، ومقترحي هذه العلاجات ، ولكني اودُّ ان ارى في المسببات المذكورة اسباباً لا اجدها حاسمة قاطعة .

واعتقادي ان اسس الاجرام اكثر تأصلاً في المجتمع البشري ، لا سيما في مجتمعنا اللبناني .

فالدولة بدلاً من ان تعمل باديء بدء على منع العوامل في امكانية وقوع الجريمة ، تراها « منتظرة » وقوع الجريمة لتتفادى فيما بعد امتدادها ولتعاقب مرتكبها .

... فيكون الارتجال وتكون سياسة « مداواة الحاضر بالموجود » ، على حد قول المثل العامي . فالدولة لا تداوي الشيء للوقاية منه ، بل تفكر

في تلافيه بعد وقوعه . وهنا ، هنا مكمن العلة .

ولا شك في ان سياسة الارتجال هي سياسة دولة مفلسة ، لا يجوز ان يقال في القيّمين عليها انهم رجال دولة حقيقيون ، الا" لمن شذ عن الواقع الصريح والحقيقة الدافعة .

السجن مدرسة عريقة .. في الاجرام

لقد قضيت ، شخصياً ، خمسة وعشرين عاماً في القضاء الجزائي . وما كنت اصدر مذكرة توقيف بحق مجرم مبتديء الا ارتجفت يدي ، لعلمي انني اقود المجرم المبتديء ، فيما اقوده ، الى السجن ... الى مدرسة عريقة في تلقين الاجرام وتدريس فنونه ...

والواقع ، ان المجرم الذي كان يدخل السجن في لبنـــان من جراء اقترافه ذنباً صغيراً ، يغادره ، واذا هو خبير في الاجرام واتباع مسلك المجرمين .

والسجون في البلدان الراقية ، مؤسسات تربوية ، تلقن الداخلين اليها العلوم جميعها ، فإذا بمن دخلها مجرماً يخرج وقـــد تهذّب خلـــقه وزاد علمه ، وانتقل بطرق التربية الصالحة من عضو فاسد مفسد الى عضو عامل مثمر .

فليس للعقوبة اذن اثر فعّال في تكاثر الجرائم وطغيانها .

وليس انتشار السلاح ايضاً حافزاً لكثرة الجرائم وتشجيعاً على انتشارها .

وهذه سويسرا تقدم اوفى دليل على ما اقول .

فالسلاح فيها مباح ، يباع كأي سلعة اخرى .

والدولة ، حتى الدولة ، توزع السلاح على الاهلين ابّان اضطرارهم للقيام بواجبهم العسكري الاجباري .

ويبقى السلاح مع السويسري طوال واحد وعشرين عاماً .

ومع هذا فلا جرائم تقع ، ولا مجازر - تهدد امن الدولة وسكينتها

وطمأنينة سكانها .

*

اما الشدة في تنفيذ القوانين فليست ايضاً الطريق الذي يكفل زوال الاجرام او يضمن التقليل من شروره . فهناك احكام قاسية صدرت ، لم تعط ثمارها ، لانها صدمت نفسيه المجرم ، فقهرتها ولم تمهد لها الى سبل الاصلاح ، والارتقاء ، من مكانة وضيعة الى منزلة رفيعة ، تجعل المرء يشعر وهو ينال القصاص بانه نعم ببعض ميزات الانسان .

الثقافة النفسية

والدليل على ان الحكم القاسي لا يروع بمقدار تهيئة سبل الثقافة النفسية هو ان الاحصاءات تشير الى ان ٩٥ بالمئة من السرقـات تقع لحاجة مقترفها وضيق ذات يده ، لا عن لذة في « امتهان » السرقة .

وقد اقع بعد كل هذا على من يسألني عن اقتراح الحلول لهذه المعضلة المزمنة في لبنان .

فانا احصر مداواة المسألة على ما هي عليه من خطورة ، في قضية تهذيب الشخص عامة والسجين خاصة .

فيخرج السجين كافراً بكل ما يكفل عودته الى السجن . فيكتسب من التهذيب العام جهازاً اجتماعياً وعقلياً واخلاقياً وعملياً ارقى بكثير من الجهاز الذي قاده الى حيث لا حرية ولا انطلاق بل عبودية وصغار واذلال لكل شموخ وعنفوان .

فتثقيف الشخص اذن ، هو الاساس في اصلاح حالة المجتمع وتخفيف الاجرام .

وثقافة المواطن ، مقترفاً كان ام غير مقترف ، هي حق له على الدولة ، التي يجب ان تؤمن حياة أناس ، شاءت الانظمة ان تكون القيّمة على شؤونهم ومقدراتهم .

الإلهام وأثره عند قاضي التحقيق



الالهام وأثره
عند قاضي التحقيق

●

تقع بعض الجرائم في جو يكتنفة الغموض لأسباب منهـا الظروف والمكان وتهيئة الجاني سترَ الجريمة .

فعلى قاضي التحقيق في مثل هذه الحالات ان يبرهن عن المقـدرة وطول الباع توصلاً الى كشف كنه الجريمة فاماطة اللثام عن عواملها ومسبباتها .

اما دوره في الجرائم الواضحة فثانوي للغاية يقتصر على اعمال ميكانيكية يقوم باكثر فصولها كاتب المحكمة .

ويتناول بحثنا الموجز في هذا الفصل الجرائمَ الغامضة وما يتوجب على قاضي التحقيق في كشف اسرارها .

التحقيق موهبة

ان التحقيق ليس بعلم يدرسه المحقق ويتعمق فيه بل هو موهبـة اذا تحلى بها المرء تبلورت بالممارسة وبرهن صاحبها عن جدارة وكفاءة واستحق

شكو السلك الذي ينتسب اليه والمجتمع الذي يعيش فيه . اما اذا كان المحقق ليس بذي المواهب الفطرية المطلوبة فلا يستطيع البروز ويبقى انتاجه مدعاة للاسف ، ويقتصر عمله على القضايا الواضحة من الجرائم فيستجوب ويصدر مذكرات الجلب ، او الاحضار ، او التوقيف ، ويحيل هذه القضايا بموجب قرارات ظنية ، أو اتهام .

امور لا نرى من موجب لبحثها ... وانما نرى ان نتحدث عن واجب قاضي التحقيق ، الملهم ، الموهوب ، عندما يسند اليه التحقيق في جريمة غامضة .

الفكرة المسبقة

اول ما يجب على هذا المحقق ان لا يأخذ فكرة مسبقة يكوّنها عن الجريمة في مخيلته تكويناً راسخاً بحيث يستنتج ، قبل ورود كل دليل ، ان الجريمة قد ارتكبها فلان ... وقد حصلت على الصورة الفلانية ... فالمحقق الذي يسبق سير التحقيق بتكهناته واستنتاجاته هو بعرفي اخطر رجال القضاء على المجتمع ، ذلك لأن التكهنات والاستنتاجات السابقة سيرَ التحقيق تؤدي بالمحقق الى ان يتكهّن كيفية وقوع الجريمة ، ومن ارتكبها ، فيمنع عليه هذا التكهن ايّ اتجاه آخر ويصبح المحققُ المتكهن عبداً لما تكهن ، وعندئذ لا يعود من فائدة للتحقيق او للامارات او للشبهات حتى وللبينات التي ترد على عكس ما تكهن ، فيجبر المحقق عندئذ على تسيير التحقيق في اتجاه واحد ، ألا وهو التوصل الى اثبات ما تكهنه في بادىء الامر ، هذا التكهن الذي يصبح في ذهنه حقيقة راسخة لا تقبل الجدل او التحوير . فاذا صادفه الحظ وصدقت تصوراته وتكهناته اكتشفت الجريمة والا زادها هذا المحقق غموضاً ، فضاعت واتّهم المحقق نفسه باتهامات عديدة ، منها مثلاً : انه اوقف الشاهد فلاناً من دون حق ... وارهق الشاهد فلاناً بأسئلة لا محل لها من الاعراب ... واصدر مذكرة

توقيف بحق فلان وهو بريء مما اسند اليه وقد ظهرت براءته فيما بعد ...

ويقولون عندئذ ان هذا القاضي المحقق لا يستحق شرف الانتساب الى هذا السلك الشريف ... فهو منتقم ... او متحيز ... او مسير بعوامل حزبية وشهوات شخصية ... وتكون الحقيقة على عكس ذلك . غير ان شدة رسوخ التكهنات والتصورات السابقة في ذهنه قد ألجأته إلى تسيير التحقيق في اتجاه كان فيه على خطأ وكان عبداً ليس إلا ...

قرائن .. ادلة

وفي نظري ان اول ما يجب على المحقق هو ان يترك التكهنات والتصورات والاستنتاجات المسبقة وان لا يأخذها الا من سياق التحقيق وان يكون كريشة في مهب الريح يتجه في اتجاه كل تيار يوجه اليه دون ان يأخذ فكرة جازمة قبل ان تصبح لديه قرائن وادلة شبه قاطعة .

اما الالهام فله ، عند قاضي التحقيق ، اثره البعيد في بعض الاحيان ، حتى وفي اكثرها . ويجب على المحقق الاخذ به وتتبعه شرط ان لا يبني عليه اقتناعاً إلا بمقدار ما يؤيد هذ الالهام من قرائن وادلة وردت في سياق التحقيق ، فالالهام عند المحقق موهبة تنشأ فيه وتسوقه احياناً الى ابعد حدود النجاح في اكتشاف الجرائم الغامضة التي قد لا يقوى على اكتشافها محقق ما اذا لم يكن يتمتع بهذه الموهبة .

امثلة ... نصائح

وأمثلتي عديدة على صدق الالهام . وقد ورد عليها بعض الحوادث في ذكرياتي هذه ، واخطاؤها اكثر من حسناتها واخص بالذكر جريمة الكاردينيا ...... الجريمة الدامية التي وقعت في ضاحية بيروت الشرقية على طريق عاليه ، وكانت ضحيتها امرأتان شابتان ، زوجة صاحب

الكازينو وخادمتها .

وكانت الامارات والدلائل كثيرة ، الى درجة حدت بقاضي التحقيق، ان يتكهن بأن الزوج هو مرتكب الجناية تخلصاً من الزوجة ، فسيّر التحقيق في هذا الاتجاه فكانت النتيجة ، بعدئذٍ ، على طول التحقيق ، وتبدّل المحقق ، عكس ما ورد من أدلة وقرائن مغمورة بالتصورات .

وكان الجناة ، غيرَ الزوج : اخوين عاملين بسيطين في حديقة الكازينو . وقد اعترفا بجريمتها وتأيد اعترافهما بجريمتها بالادلة والبراهين القاطعة ، وعُلقا معاً على حبل المشنقة .

فنصيحتي ، لزملائي الذين سيكون لي شرف اطلاعهم على ذكرياتي هذه واخص منهم من سيكون لهم شرف الانتساب الى سلك القضاة والاضطلاع بمهمة قاضي التحقيق هي :

● ان لا يكوّنوا فكرة مسبقة عن أي جريمة غامضة يعهد اليهم كشف كنهها واسبابها ، قبل ان يصبح لديهم مما قاموا به من تحقيقات ادلة وقرائن تخولهم تكوين فكرة عن الجريمة وكيفية وقوعها ومسبباتها وان لا يدعوا هذه الفكرة ترسخ في ذهنهم الا عندما تصبح الادلة التي جمعوها في سياق التحقيق قاطعة مانعة كل شبهة .

● ان يتركوا التحقيق يسير في اتجاهات عدة وان لا يغلقوا باباً من ابوابه ولو كان صغيراً فلربما كان هذا الباب الصغير ، لا سواه ، هو باب الحقيقة .

● ان يعتمدوا على الالهام ويعطوه قسطاً وافراً في القضايا الغامضة التي يقومون فيها بالتحقيق ، شرط الا يعتبروا هذا الالهام بمثابة الدليل الذي يجب التشبث به وتسيير التحقيق باتجاهه دون سواه .

● ان لا يعتمدوا على الافادات ، حتى والاقرار ، إلا بقدر ما ترمي اليه من اثباتات تعززها الامور المادية . فالشهادات والاقرار في بعض الاحيان

تكون وسيلة لتحوير الجريمة وسترها .

*

نصائح علمتنا اياها خبرة الزمن من طول التحقيق في كثرة الجرائم ومتنوعها والغامض منها والواضح . وهي نصائح كانت لنا دائماً الدليل الهادي في تسيير ما قمنا به من اعمال تحقيقية فكشفنا من الجرائم الصعبة المستصعبة ما كشفنا .. واظهرنا الحقائق من غموض الاجرام ما اظهرنا ، فعسى ان يكون في النصيحة المجرّبة ما يفيد .

تطور جبل عامِلة
مُنذ قرون حتى الآن



قبيل الخاتمة

•

هذه المعلومات التاريخية او اللمع شبه التاريخية ، او التي يراها المواطنون و كأنها تاريخ ينقله من لم يستوعب على التفصيل وقائع التاريخ ودقائقه ، عن جبـل عاملة منذ بـــدء التاريخ حتى اليوم الذي نعيشه ، انما هي لمحات استقيناها من افـــواه بعض المخبرين وسمعنـاها من روايات بعض الشيوخ ، وبعض العلماء ، وقرأناها في بعض المخطوطات ، والكتب التاريخية ، تردد في المجالس ، وتضرب في الامثال ، وتختلج في الخـــاطر وتحيا فيه ، وتنسكب منه .

...

وقد عشنا مراحل معها نرددها كما تردد وننقلها مثلما تنقـل ، فاذا نشرناها في هذه الذكريات قسماً منها ، فانما نود ان نجعلها توطئة لنـداء مخلص نرسله الى اخواننا المهاجرين المقيمين في كل قطر ، النازلـين مع الشمس في كل ناحية من نواحي العالم عـلى الارض الجديـــدة والارض القديمة .

..... توطئة نتدرج فيها الى واقع ...



تطور جبل عاملة

•

اساطير ... وحكايات ... ووقائع

سكن الكنعانيون منذ قرون ، عريقة جداً في القدم ، جبل « عاملة » حتى قيل ان ابراهيم حين حلّ في جنوب الشام قبل اربعين جيلاً تقريباً وجدها آهلة بهم ، خاضعة لنفوذهم .

والكنعانيون ، حسب الحكاية ، عرب هاجروا من نواحي البحرين والكويت ونجد والعراق . وسمّوا بذلك لنزولهم في الاراضي المنخفضة والاغوار والسواحل . واطلقت كلمة آرامين على فئة من هؤلاء العرب انفسهم سكنت اعالي الجبال ، وسفوح المرتفعات .

فينيقيون

وقد اطلق على الكنعانين والآرامين معاً منذ حوالى ثلاثة وعشرين قرناً اسم : فينيقيين .

وفي هاتيك الاثناء دخل عاملة جماعة من الياطورية نسبة لابن اسماعيل ياطور هاجرت من الحجاز منذ ستة وعشرين قرناً فسكنت حوران . ثم اقام بعضها في مجدل عين جر ، واقام حصنها الموجود اثره حتى الآن ، ومن هناك تسلقت جبال لبنان واقام بعضها في عاملة ولا تزال قرية « حيتورة » التي يقال إنها محرفة من « ايتور وجيدور وياتور » وانها من تأسيسهم ، قائمة معروفة .. ولهم في تاريخ هذا الجبل وهذا الساحل شأن لامع .

سد مأرب

وقيل انه منذ ثلاثة وعشرين قرناً وقعت في اليمن حادثة سيل العرم فتهدمت السدود وخربت القرى والمزارع ، وهاجر كثير من القبائل الى الحجاز والشام . فدخل « عاملة » من هذه الموجة قبائل كثيرة ، منها قضاعة وانمارة ومراد ، وعرف الجبل بجبل « عاملة » نسبة الى امرأة تدعى « عاملة القضاعية » .

صلة الدم والقرابة

وهكذا ارتبطت وثائق الدم ووشائج القرابة بين سكان جبل عاملة وبين سكان الشام وانحاء الجزيرة القريبة والبعيدة ، فبنو مراد مثلاً ، الذين هاجروا من اليمن منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، سكن بعضهم عاملة واقام بعضهم الآخر في شمال الشام قرب مرعش وعينتاب واسكندرونة ، وعرفوا بالجراجمة ، نسبة الى مدينة لهم يقال لها الجرجومة ، كما عرفوا بالمراديين نسبة لعشيرتهم اليمانية ، ثم عرفوا بـ « المردة » لتمردهم على بعض اباطرة القسطنطينية ، الذين ارادوا قسرهم ، على ترك مذهبهم وادماجهم تحت الراية البيزنطية ، وبعد ذلك انصهرت تلك القبائل مع الكنعانيين

والياطوريين في بوتقة واحدة ، وكوّنت القوى العربية التي استقبلت الفتح الاسلامي العربي .

عاملة والاسلام

ما كاد المسلمون ينتهون من موقعة اليرموك ، حتى ارسلوا قسماً من الجيش لاتمام الفتح في السواحل الشامية وما هي الا اعوام حتى رأينا عرب عاملة يدخلون في الاسلام افواجاً مستقبلين هذه الموجة العربية الجديدة التي جاءت تحمل اليهم نور الاسلام .

عاملة في مطلع عهد بني امية

وامتلأ جبل عاملة في صدر الاسلام وفي العهد الاموي بالرجال الذين يفهمون معنى التطور وقيم الحياه المدنية . واختار مجتمعهم ابو ذر ، حامل لواء المعارضة ضد الامويين ودافع سفينة الشعب الى حياة السعادة ، حصناً له ، يثور على الانظمة التي ادخلها الامويون في حكم المسلمين ... انظمة لم يكن للعرب معرفة بها او اطمئنان اليها .

ابو ذر في الصرفند

اجل ان ابا ذر ، زار الصرفند من جبل عاملة واستوطن ، لانه رأى في هذا الجبل أرضاً صالحة لغرس مبادئه .

ولم يغادر بلاد الشام الا بعد ان ترك جذوة من الثورة متأججة ، لا سيما في جبل عاملة ، حيث كان السعي لتكوين المجتمع العربي تكويناً يتفق مع ما تدعو اليه النصوص القوية والمثل العربية العليا . وقد عاشت عاملة قلقة حذرة منذ عام اربعين للهجرة حتى نهاية القرن الاول : اي منذ بويع معاوية حتى جلس على عرش دمشق عمر بن عبد العزيز .



عاملة في العصر العباسي

تنفست عاملة الصعداء في عهد عمر بن عبد العزيز ، وراحت ترقب الحركات المتجاوبة الاصداء في العراق وفارس . وما هو الا ثلث قرن حتى أفلت شمس بني امية بقتل مروان . فاتخذت عاملة يوم قتله ، نقطة فصل بين ايام وايام . وما كادت ترى راية آل البيت ، حتى ظن الناس ان الخلافة ستعود الى ابناء الامام علي . ولكن بني العباس اعرضوا عن تلك المواعيد ، واسفروا عن وجههم الحقيقي ، وتصاغرت امام الشيعة فاجعة كربلاء ، حين قاسوها بما لاقوه في عهد بني العباس من عذاب واضطهاد وآلام وفواجع .

عاملة وصلاح الدين الايوبي

ولا غرابة ان يقف العامليون الموقف الجريء الحازم ، موقف المجاهدين الذين يطلبون الشهادة في سبيل المحافظة على وطنهم ودينهم طوال امواج الحروب الاستعمارية التي دعاها الغرب صليبيّة ، ليسيطر على بلاد الشام ، وهي بعيدة عن رمز الصلب في بعدها عن المحبة المسيحية .

اجل لا غرابة ... وما يزال الواقع يحدثنا عن موقف البطل بشارة ابن اسد الدين بن عامر الوائلي ، الذي كان عضد البطل صلاح الدين ، وعينه التي لا تنام ، وقائد الطلائع في المواقع التي احتلها الصليبيون في الساحل العاملي وداخله ، يقاتلهم قتال الموت ، ويردهم ردّ الاندحار .

عاملة في عهد المماليك

خلا الجو للمماليك بمصر والشام اذ دالت دولة الايوبيين ويئست الحملات الصليبية من تنفيذ خططها . ولكن ذيول هذه الحملات كانت تنتهز الفرص لتغزو السواحل الشامية . غير ان العامليين لم يعتمدوا في الدفاع عن سواحلهم على حكومة المماليك ، بل كانوا يرون انفسهم بطبيعة شعورهم وتحسسهم جنوداً طبيعيين ، مكلفين الدفاع عن ارضهم ... دافعت حكومة المماليك او قصرت عن الدفاع ... ولذا رأيناهم بزعامة آل بشارة ، يصطدمون مع الفرنجة المهاجمين صور عام ٨٥٥ هـ ويعيدونهم صفر اليدين .

ولا ريب في ان هذه المواقف وهذه الشجاعة النادرة عند العامليين في القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، ترجع الى التشجيع الذي كان يقوم به اهل القيادة من آل بشارة ، سواء للروح الوطنية وسواء للعلم ، وللفضيلة الدائمة النضال .

المدارس ...

فنرى يومئذ ، علاوة عن المدارس الابتدائية ، مدارس فقهية في جميع مدن عاملة وكبريات قراه . ومن ينسى مـدارس جزين وميس وشقراء وجباع التي كانت تدّرس الى جانب الفقه الجعفري ، جميـــع المذاهب الاسلامية ؟

ورق ومحابر

وكان المحسنون يرصدون لها الاوقاف ويحبسون عليها الاموال ، حتى بالغ بعضهم فوقف قرية ليرصد ريعها للمؤلفين ثمن ورق ومحابر ، اذ كانت تقذف عليهم الاموال من الاثرياء والوجهاء وتؤمن لهـم اسباب الراحة .

الارض الطيبة

اجل كان جبل عاملة في القرن الثامن والتاسع للهجرة ، يفوق جميع اجزاء الوطن العربي ، ما خلا القاهرة والنجف الاشرف ، يفوقها بالمدارس الدينية والمجالس الادبية ، ويمدها بالكتاب والشعراء والمؤلفين الذين لا تزال تدرس تآليفهم في كل الاقطار الاسلامية .

ولا غرابة فالارض الصالحة للانبات تمدّ ساكنيها ومجاوريها باطيب الثمار ، ولو كان القائمون على الاستفادة منها عديمي الاعتناء بها ....

ثلاثمائة عالم من جزين

.... ونحن لن يأخذنا العجب او الدهشة حين نرى مركز « عاملة » العلمي في هذين القرنين لا يضاهيه مركز آخر في مجموع الوطن العربي لاننا سنجد في سجل جامعة النجف الاشرف وحدها ما لا يقلّ عن ثلاثمائة شخص من فحول العلماء من بلدة جزين وحدها ، يتخرجون من تلك الجامعة ويعودون الى ربوع عاملة وغيرها من الاقطار العربية والاسلامية ، ينشرون الادب والشريعة وخيرات المعرفة والدين .

عاملة في عصر بني عثمان

ما كادت الشام تودع القرن التاسع الهجري وتستقبل العاشر منه ، حتى استقبلت معه السلطان سليم العثماني . فازال المماليك عن الشام ومصر وحلّ محلهم .

تغيرت حالة عاملة عن ذي قبل فانتهت زعامة آل بشارة واضمحلت مدارس العلم وسار الجبل في طريق الانحطاط التدريجي ، وذرّ قرن التعصب القبلي ، واطلت شهوات تنازع البقاء ، وتفجرت مآرب التطاحن على الارض . وتجاوز الناس حدودهم لانعدام الانظمة التي ترغم كل

امريء على الوقوف عند حده . وظن السذج والمساكين ان هذه عداوات جوهرية دينية ، وضع اسسها المسيح ومحمد .

... وما كان المسيح بعداوة ولكنه المحبة القوية السمحة التي ينعم في اعماقها السرمدية ضمير الانسان المتمدن ...

... وما كان محمد ببغضاء ولكنه رسالة التوحيد الازلية التي تخلق وحدة الطمأنينة وأخوّة التعاون ، وتكاتف الانسانية .

طرابلس .... جبل كسروان

كان الشيعة يملكون في طرابلس ولا يزال التاريخ يحدثنا عن مكتبة آل عمار الشيعية التي احرقها الصليبيون بطرابلس ، وكانوا يملكون في جبل كسروان ولكن الشيطان اتخذ الناس كرة بيده فما زال بسكان كسروان يثيرهم بعضهم على بعض ، حتى هاجر الشيعة ، الا اقلـّهم ، الى جبل عاملة وبعلبك واصبحت كسروان حصناً للعشائر العربية المسيحية التي غادرت حوران في فترات متقطعة .

فقر ... وانحناء

افقر جبل عامل من مدارسه في عهد بني عثمان وتنازعه الزعماء وحنى عنقه لطاعتهم ، واقام على الجماجم دعائم مجدهم ، ورفع على دمه وماله اعلام زعامتهم ، حتى اصبحنا لا نرى الا الزعماء المتنافسين ، وقد يصل بعضهم الى درجة تشبه « الاستقلال الداخلي » فلا تنكمش القوة التركية في الساحل حتى يروح يصول ويجول ويعاهد مجاوره ومنافسه الزعيم الاخر « معـــاهدة عدم الاعتداء » ، كما نرى بين الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف النصّار مثلاً عام ١١٨١ هـ .

قتل وتشريد

وقد تضعف سلطة الزعماء ويرتفع شأن الدولة العثمانية المستعمرة فترسل جنودها الى قرى عاملة وتحاول ازالة معالمها تقتيلاً وتخريباً وتشريـــداً كما نرى في هجوم اسعد الدين باشا العظم والي صيدا على جبل عاملة .

توديع ... واستقبال

وهكذا عاشت عاملة طوال اربعة قرون ، تودع زعـــامة آل نصار لتستقبل زعامة آل شكر وآل منكر وآل صعب وآل الصغير ، ليستفيد هؤلاء الزعماء ، او بعض هؤلاء الزعماء ، من الغنم ويكون على غيرهم الغرم . وقد تستغل الحكومة التركية هؤلاء الزعماء « لتأديب » بعض الخارجين عليها من اخوانهم عرب حوران ، فلا يتأخرون عن مقاتلة اخوانهم في سبيل الدولة الحاكمة .

وقد تتناسى عاملة بعض ما فطرت عليه ، وما عرفناه عنها في اكثر ادوار تاريخها من ثبات وعزم ، فلا تشترط فيمن تهبّ لمساعدته الا قوته وبطشه ، كأنها آلة طيعة في يد القوة ودوافع البطش . ولذا تستقبل ابراهيم باشا حين دخوله ، ثم تطعنه في ظهره اكراماً لعين الدولة العثمانية ، وتثبيتاً لبعض الزعماء في سجل الباب العالي، ليسلط هذا « الباب العالي » يده « غير العالية » على عاملة فيحصل منها الاموال الاميرية بالعنت والظلم لقاء رشوة حقيرة يقدمها اليه « الزعيم » ، اعترافاً بسلطته ونفوذه . وقد يتنافس الزعماء على لحم هذا الحمل فيقتسمونه اقتساماً هيّناً كما نرى في تمزيقهم عاملة الى مناطق نفوذ وجباية عام ١١٦٣ هـ .

وقد زاد في خراب عاملة اشتراكها في فتن القيسية واليمانية التي كانت تشطر البلاد الى حزبين متطاحنين قائمين في سبيل تحقيق الغايات على الاسس السياسية لا الدينية او الطائفية .

عاملة في عهد الجزار

اشتدت وطأة الجهل في اواسط العهد التركي واواخره ، واصبحت الدولة التركية تستعين بالعرب على تأديب العرب ، فتستعين بعاملة على تأديب غيرها من اخوانها ، وبغيرها من اخوانها على تأديبها ، وتستعين ببعض الزعماء الآخرين . ثم جاء عهد الجزار يكمل نواقص التخريب . فقتل في هذا العهد الشيخ ناصيف النصار مقدم آل الصغير وشيخ مشايخ عاملة . وشاهد سجن عكا الواناً من عذاب العامليين الذين وقع عليهم اختيار الجزار ، كما شاهدت افران عكا مكتبات عاملة تقدّم لها وقوداً .

زعامة آل الصغير

تمّ إقفار دور العلم ، وهجر عاملة من بقي بها من العلماء والمفكرين واهل القلم ، واستوطن بعضهم العراق والحجاز وتسلم بعضهم مركز الوزارة في احدى مقاطعات الهند ، الا وهو الشيخ علي الزين الجد الاعلى لآل الزين . ثم آلت الزعامة لآل الصغير فاصبحت راية الصلح حتى بين العشائر المقيمة بعيداً عن جبل عاملة ، كفلسطين ، وجبل العلويين وعشائر عنزه ، ودروز وادي التيم ، لا تعقد الا في تبنين . بل كان لجبل عاملة في هذا العهد ، موقف مشرف في فتنة ١٨٦٠ . وساعدت عاملة كل من احتاج المساعدة وكانت اموال بعض النصارى تودع امانات سليمة في منازل آل نعمة وآل الحر ، وكان آل الصغير يساعدون على حفظها ويدافعون عنها بدمائهم .



عاملة والمهاجرون

☆

ان الاسباب السياسية الاخيرة التي قست على عاملة في العصر التركي اضطرت كثيراً من اهله الى المهاجرة لافريقيا العالم الجديد ، شأن اخوانهم العرب في انحاء لبنان وسوريا . وقد كان العامليون في مهاجرهم موفقين كل التوفيق ، لما يمتازون به من الذكاء والاخلاص الفطريين ، ومن التقوى التي جعلتهم بعيدين عن الآثام المهلكة للمال والصحة .

وهم رغم قساوة هجرتهم وتشتيتهم ظلوا يحافظون كل المحافظة على عروبتهم ولغتهم وظلوا يمتازون في مهاجرهم باستقبال ضيوفهم استقبالاً عربياً فيه الترحاب والبشر .

الا ان هذا لا يكفي من الناحية الاجتماعية الوطنية ، لان للوطن على ابنائه حقاً ابعد من الترحاب واعمق من الضيافة .



نداء الجبل

•

ايها الاخوان المهاجرون ، يا ابناء جبل عاملة ، هذه ذكريات واحد منكم ، أحبكم واحببتموه فأحببتم أخباره . وعاش في حياتكم ، وتقاسم آلامكم ، وصارحكم بجوادث دنياه من تشريده الى اطمئنانه ، ودفعته اليكم حرارة الشوق والتقدير ، وربطته بكم روابط الاخوة والتعاون والوطنية وسكنى التراب الواحد .

فإذا ناداكم فانما يناديكم لتذكروا جبلكم ، وانتم غير ناسين أو متناسين ، واذا نقل اليكم أخباره ووقائع ايامه ، فأنما يريد ان يحمل اليكم اخبار مواطن من مواطنيكم ، لاقى الاضطهاد فانتصر عليه ، وهاجر فانتصرت في نفسه قوة العودة ، وحكم فكنتم انتم وما في اعماق نفوسكم من حب للحق والعدالة ، وحياً يستوحيه في احكامه ، وينبوعاً يستقي منه في اعماله . أليست حياة كل واحد منكم في مهاجره وغير مهاجره ، في غناه وفقره ، صوراً شبيهة بحلقات حياتي ؟

وبعد ،

الا تشتاقون هذا الجبل الذي دخل واياكم في صفحة التاريخ على اسم البطولة والنضال ؟

الا ترون أنه موطن صغير لكم ، هو جزء من موطن كبير ، لا يحتاج إلى مساعدتكم الفردية ، بل يحتاج « كجزء كلّ » إلى مساعدتكم الكلية المتحدة في سبيل رفع شأنه والنهوض بمجتمعه والسير به في ركاب المجتمع المتمدن المنتج ، المبدع ، المؤسس ، لا على الترفيه الشخصي ، بل على الترفيه العام ، على المعونة العامة في سبيل جميع المواطنين من ابناء الجبل خاصة

والمواطنين اللبنانيين عامة ، فخدمة للبنان وطناً عربياً مستقلاً حراً لكم .
تساعدون وانتم أهل المساعدة ، وتنشئون وتبنون وانتم اهل البناء .
ومن احرى منكم : مقيمين ومغتربين ، أن تساهموا مساهمتكم النضالية القائمة على التضحية والعطاء الواقعي ، المثالي .
لننهض واياكم بالبلاد ، فتعودون اليها ، اذا عدتم مقيمين او زائرين ، وانتم فخورون بها ، وبما قدمت انفسكم من جودٍ تجسم عمراناً وازدهاراً .
انتم اقوياء فرادى ولن تتحول قوتكم الفردية هذه ، إلى قوة وطنية فعالة ، الا يوم تقررون ان تقوموا في لبنان بأعمال جماعية تأخذ حظها من النهوض باقتصاديات الوطن فتشغلون ثرواتكم الضخمة في مصالح وطنكم ، وتحققون حقكم الانشائي ، في مجاري حياته السياسية ، على العلم وبعثات العلم ، وهو وحده طريق الحياة ، وعلى التنظيم الشامل والتكاتف والتعاون وهي وحدها سبيل النجاح في حياة الأمم .
ايها المهاجرون .... الاخوان المهاجرون ...
انها لفرصة اجدها فاتحدث اليكم عنا وعنكم ، وكم تحدثت ... واتكلم عن شؤوننا وشؤونكم ، وقضايانا وقضاياكم ، وكم تكلمت ودافعت .
واني وانا مقيم في لبنان لأشعر وكأني مهاجر معكم اتحسس احساسكم واشعر شعوركم وأضع يدي على قلبي فأراكم فيه مناضلين ما اخافتكم وحشة الغربة ، وغابات المهاجر ، ولا قطعتكم عن جبلكم مسافات البعاد ، ولا أنستكم قراكم العطشى ، القرى الجديدة ، ولاجعلتكم تغمضون اعينكم عنها ، او تسدون آذانكم عن اصوات ابنائها المقيمين وحاجاتهم وأمانيهم .
ان جبلكم لينتظركم ابداً ، وان سكانه لينتظرون منكم عملاً جماعياً . وانهم في انتظاركم اصحاب حق عليكم فأنتم اخوانهم وابناؤهم ، واقرباؤهم وجيرانهم .
وللجيران في القرابة والاخوة الوطنية حق وايّ حق ، وواجب واي واجب . وللمواطنين المقيمين على المواطنين المغتربين الف حق والف واجب .
ما تحوّلت رابطة الدم يوماً الى ماء .
ولا تحولت رابطة الوطنية الى نسيان .

رضا التامر





●

يستمر المؤلف اليوم في كتابة الاقسام الباقية من «ذكرياته» يروي فيها من شجونه وشؤونه ومن حكايات اولئك الذين امتدّ أثرهم في نفسه ، وخفقت اسماؤهم من خواطره على دنيا السياسة والعدالة .

فيحدّث في الجزء الثاني من ذكرياته عن :

● رياض الصلح وسياسته في لبنان عامة وجبل عامل خاصة .

● القضاء اللبناني في العهدين الانتدابي والاستقلالي .

***



فهرست

عهد في باريس

عودة الى الوطن

70,000

